

عبد الكريم الخطيب

الإسلام

في مواجهة الماديين والملحدين

دار الشروق 

الطبعة الأولى

أبريل ١٩٧٣

الإسلام
في مواجهة الماديين والملحدين

© دارالشروق

القاهرة : ١٦ جواد حسنى ت ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
بيروت : ص.ب ٨٠٦٤ ت ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق بيروت

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك
نعبد ، و اياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت
عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ..

الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور،
ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، والصلاة والسلام على سيدنا
رسول الله ، محمد بن عبد الله ، امام المرسلين ، وخاتم النبيين ،
الذى كانت رسالة الاسلام ، جامعة الرسالات ، التى تم بها الدين
الذى رضيه الله تعالى ديننا للانسانية ، وامر رسوله محمدا صلى
الله عليه وسلم أن يؤذن به فى الناس جميعا : « يا ايها الناس انى
رسول الله اليكم جميعا ، الذى له ملك السموات والارض ، لا اله
الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله ، النبى الامى ، الذى
يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » (١٥٨ : الاعراف)
فصلوات الله وسلامه عليك ايها النبى الامى ، ورحمة الله وبركاته
عليك ، وعلى آلك ، واصحابك ، ومن اهتدى بهديك ، واتبع
سبيلك ، الى يوم الدين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب
العالمين ..

وبعد ، فهذا الكتاب ليس دفاعا عن الاسلام ، ولا مناقحة عن نبي الاسلام ، في وجه ما يسقط من أفواه الملحدين ، والمبشرين من زور وبهتان ، على الاسلام ، ونبي الاسلام ، وما يقدمونه بين يدي أباطيلهم ومفترياتهم من مغريات: بالمال ، والخمر ، والنساء ، يتملقون بها شهوات الشباب ، ويحركون بها العواطف البهيمية فيهم ، حيث يصادف هذا الأغراء حرمانا جسديا ، وجوعا عاطفيا ، الى تصور في التفكير ، وجهل بحقائق الدين ، فيجد له مسارب من الضلال ، تسوق الشباب ، ومن في حكم الشباب الى متاهات تعمى عليهم فيها السبل ، فلا يميزون بين طيب وخبث ، ولا يفرقون بين نور وظلام ، فتزاحم في صدورهم الوسوس ، وتتداعى عليهم الريب والشكوك ، ويكون من هذا أن يخف ميزان الدين عندهم ، وتنحل الروابط بينهم وبين أحكام شريعته ، فلا يوقرون تعاليه ، ولا يقيمون سلوكهم عليها .. وهذا ما يريده أعداء الدين من اتباع هذا الدين ، وهو الانفصال الشعوري والعاطفي عنه ، ثم سيان عند هؤلاء الأعداء لدين الله أن يأخذ هؤلاء المنفصلون عنه أى طريق ، ولو كان طريق الشيطان ، ودين الشيطان .. وحسبك بالبهائية ، والقديانية مصيدة للجهلاء ، ومزلقا للأغرار والسذج ، ينحرف بهم عن طريق الاسلام ، وهم يحسبون أنهم على جادة الدين ، وعلى صراطه المستقيم ، ومدادوا أنهم مسوقون الى هاوية هيهات لمن يضع قدمه عليها أن يمسكه شيء حتى يهوى الى القاع ، ويدين بدين البهائية أو القديانية ، التي تتخذ من الاسلام وجها تستر به كيدها لدين الله ، إذ ما أوسع الباب الذى يدخل منه البهائى أو القديانى الى الدين الذى يدعو اليه الملحدون ، والمنشرون .. ثم ما أكثر الضلالات التي تدخل باسم الاسلام ، كذبا وأفتراء في هذه المذاهب الشيطانية ، التي يبدو وجه الاسلام من خلالها أشبه بوجوه السحرة والمشعوذين ، لا يقابل من العقلاء الا بالسخرية والاستخفاف !

* * *

ومرة أخرى نقول : ان هذا الكتاب ليس دفاعا عن الاسلام ، ولا مناقحة عن نبي الاسلام .. فما كانت الحقائق العليا ، والفضائل السامية بحاجة أبدا الى من يدافع عن وجودها ، ويحدث عن

آثارها ، ويعلم عن فضلها وقدرها ، فذلك من شأنه أن يجور على مقامها ، ويهون من شأنها ، بما يوقع في النفوس من أنها في خفاء يحتاج الى بيان ، وفي وجه تهمة تحتاج الى دفع ودفاع . ثم ان من يعنى عن رؤية هذه الحقائق العليا ، ويتنكر لهذه الفضائل السامية ، ويجادل أو يمارى في بهائها وجلالها ، هو أبعد من أن يهتدى الى حق أو يستقيم الى هدى ، ولو تمثل له الحق شخصا يراه بعينية ، وجاء اليه الهدى شاخصا يسعى بين يديه ، والله سبحانه وتعالى يقول : **((ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم))** (٦ - ٧ : البقرة) . . وتلك حقيقة عرفها الناس ، وصورها الشاعر الحكيم بقوله :

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار الى دليل
 وإذا كان من المضیعة للجهد الوقوف في مقام المجادلة مع الذين
 يعملون عن الحقائق العليا ، والفضائل السامية - فإنه يكون من
 الأزرار بدين الله ، في مقام الدفاع عنه ، الموازنة بين حقائقه ، وبين
 ما تحمل الديانات والمذاهب الأخرى من مقولات ، وتصورات ،
 ومعتقدات . . ولهذا كانت دعوة الرسول الكريم قائمة على هذا
 المنهج الذى رسمه له ربه جل وعلا ، في قوله سبحانه : **« خذ
 العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلین »** (١٩٩ : الأعراف)
 ومن هذا المنهج الربانى للرسول الكريم ، كان المنهج الذى يسلكه
 المؤمنون بهذا الدين ، مع المخالفين لدينهم ، حيث كان أمر الله
 تعالى اليهم بقوله : **« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي احسن
 الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل لنا ، وأنزل اليكم ،
 والها والهمك واحد ، ونحن له مسلمون »** (٤٦ : العنكبوت)
 وذلك فضلا بالحقائق العليا أن تنزل في سوق المزايدة والمهاترة ،
 وأن توزن بميزان السفسطة والمخاراة . .

الم تر أن السيف يذرى بقدره
 اذا قيل هذا السيف خير من العصا

ومرة ثالثة ، نقول : ان هذا الكتاب ليس دفاعا عن الاسلام ، ولا منافحة عن رسول الاسلام ، في وجه هذه الدعوات المضللة ، وتلك الرميات الطائشة التي يرمى بها اللحدون والمبشرون في مواطن الاسلام ، وفي حمى رسول الاسلام ، وانما هذا الكتاب هو في صميمه دفاع عن العقل الذي كرم الله تعالى الانسان به ، ومنافحة عن حمى هذا العقل ان يمتن ويسترق ، وان يخليه الانسان من كيانه ، وان ينزل عنه لقاء دريهمات معدودة ، أو قضاء وطر من كأس خمر أو شهوة جنس !!

* * *

اننا هنا لا ندافع عن عقل فرد أو جماعة ، وانما ندافع عن الانسان من حيث هو انسان ، ومن حيث كان العقل هو الذي أعطى الانسانية هذا المعنى الكريم ، وخلع عليها هذه الخلعة الربانية ، التي أعلت بين المخلوقات قدر الانسان ، وعزلته عن عالم الحيوان ، وأقامته على هذا الكوكب الأرضي مقام الخلافة لله على هذا العالم ، بكل ما خلق الله تعالى فيه ، مما ظهر منه أو بطن !!

ان الدين — أي دين — في مقام استرخص فيه العقل ، وامتهنت فيه مكانته ، وهان فيه سلطانه — هو لغو اللغو ، وباطل الأباطيل ، حيث لا دين لن لا عقل له ، ولا عقيدة الا في رحاب عقل يفقهها ، وينفذ الى مواقع الهدى والخير منها ..

وغايتنا من هذا البحث هو ان يعرف للانسان قدره ، وللعقل مكانه ووزنه في انسانية الانسان ، وفي اعطائه معنى الانسانية ، الامر الذي يدعوا كل ذى عقل أن يحرص على عقله حرصه على الحياة ذاتها ، حيث لا يرضى بالحياة في غيبة من عقله ، ولا يقبل من من الحقائق الا ما يجيزه هذا العقل ، بعد ان يدفع عنه أي هوى يتسلط عليه ، أو شهوة تخادعه عنه ، والا بعد ان يقلب بين يديه الامر على وجوهه ، وينقده نقد الصيرفي ، ويأخذه بما يأخذ به القاضم نفسه ، من مراجعة ضميره ، والاحتكام اليه قبل ان يصدر حكمه !!
وذلك : « **ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة** » (٤٢ : الأنفال) ..

وإذا حمد لهذا العصر شيء ، فإن أحمد ما يحمد له هو الاعتزاز بالعقل ، والثقة البالغة به ، والتعويل في كل شيء عليه ، وإن جاوز ذلك الحد الذي يبلغ مدى بعيدا من التهور والغرور ، فذلك — على ما به — خير من خمود العقل ، وانطفاء جذونه في كيان الإنسان ..

إن هذا العصر ، هو بحق — عصر العقل الذي أعيد فيه تشكيل الحقائق وتنظيمها على أسلوب من النظر العقلي الصارم ، البعيد عن خفقات القلب ، ونبضات الوجدان ، ولسات الشعور !

وإنه ليس من أنباء هذا العصر ، ولا من المتزين بزى حضارته ، ولا من دعاة أو أديعاء التجديد فيه ، من لا يجعل عقله أمام كل خطوة يخطوها ، وبين يدي كل رأى يراه ، أو عمل يعمله ، أو مذهب يتمذهب به ، أو دين يضيف نفسه إليه ..

إن عصر التقليد والتابعة قد انتهى ، ودالت دولة الرؤساء الروحانيين ، وأصحاب السلطان الديني على المتدينين ، وأصبح كل إنسان سيد نفسه ، ومالك أمر عقيدته ، لا يأخذ من الدين إلا ما ارتضاه عقله ، ولا يعتقد عقيدة إلا إذا وقعت موقع اليقين من هذا العقل !

ونحن إذ نعرض حقائق الإسلام كدين يعيش الناس في ظله ، واذ نعرض حياة نبي الإسلام كنموذج للكمال البشري ، وكحقيقة من حقائق هذا الدين — فإنما نستدعي لذلك العقل بكل ما ملك من ملكات ، وبكل ما اجتمع له من قوى ، وبكل ما وضع العلم بين يديه من سلطان يتسلط به على فحص الحقائق وكشفها ، وفي قبول ما يقبل ، أو رفض ما يرفض منها ..

وذلك — يقينا منا — أن حقائق الدين — أي دين — لا يمكن أن تكون معتقدا مؤثرا في حياة الإنسان ، هاديا له إلى الخير ، ووازعا له عن المنكر — إلا إذا آمن المرء بتلك الحقائق ، واطمأن إلى سلامتها ، وأنزلها من عقله منزل اليقين ، الذي لا يخالطه شك ، أو يطوف به طائف من ريب — عندئذ ، تجد هذه الحقائق

عقلا يحرص عليها ، ويعتز بها ، وينفق منها ، تماما كما يحرص الانسان على النقد السليم ويطمئن اليه ، ويعتد به ثروة ينفق منها ، ويقضى مطالبه بها ، على خلاف النقد الزائف الذى يقع ليد الانسان فى غفلة منه ، فانه يراه شيئا بغيضا منكرا ينبغى التخلص منه فى أسرع وقت ، وبأية صورة !

ومن هنا كانت دعوة الاسلام قائمة على هذا المبدأ العام : « لا اكراه فى الدين » (٢٥٦ : البقرة) والاسلام اذ يقرر هذا المبدأ ، فانما يأخذ بواقع تفرضه الطبيعة البشرية ، وهو أن المعتقدات ليست مجرد اشارات ، يتحلى بها الانسان على صدره ليرى الناس منه ما يعتقدده .. وانما المعتقدات ، هى معان خفيه مستبطنة فى مدارك الانسان ومشاعره وعواطفه ، لا يراها أحد غيره ، ولا يطلع عليها بشر سواه ..

انها امور ذاتية لا تخضع الا لارادة الانسان المتحرر من أى قهر مادى أو أدبى .. فاذا حمل الانسان حملا على اعتناق مذهب ، أو تدين بدين ، فان ذلك لا يجاوز حدود المظهر الخارجى ، الذى يلبس شارة هذا المذهب ، ويتحلى بحلية هذا الدين ، يدخل به فى أهله ، ويردد الكلمات والعبارات التى يرددونها منه ، أما فى قرارة نفسه ، وفى خلجات ضميره ، فهو فى واد ، والمذهب الذى يتمذهب به والدين الذين يدين به ، فى واد آخر .. وهذا ما كشفه الاسلام من دين بعض الذى دخلوا فيه بالسنتهم ، ولم يخالط الايمان قلوبهم ، اذ يقول سبحانه : « **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** » (١٤ : الحجرات) ..

ونعم ، قد يضل الانسان ، وقد يخدع من المضللين والمخادعين ، فيقبل الفاسد السقيم من المذاهب والمعتقدات ، وقد ينزل هذا الخداع والتضليل منزلة الرضا والاطمئنان من عقله وقلبه ، وقد يعيش معها حياته كلها ، وقد تعيش فيها أجيال وأجيال من الناس ، تماما كما يعيش فى الجهل ، ويحيا فى الأوهام والخرافات أفراد وأمم ، وهم يحسبونها من الحق الذى لا يشوبه باطل ، ومن الخير الذى لا يخالطه شر . ولكن هذا كله لن يكتب له البقاء طويلا ، اذ

لا بد أن تطلع شمس الحقيقة يوما ، فاذا كل هذا قد انقشع كما ينقشع الضباب من وجه أشعة الشمس ! وأقرب مثل لهذا ، أن الإنسانية عاشت تاريخها الطويل ، وإلى عهد قريب على عقيدة أن الأرض ثابتة لا تتحرك ، وأنها بساط محدود . . . وأنها ، وأنها ، حتى كشف العلم عن فساد هذا الاعتقاد ، وجاء العلماء يقررون هذه الحقائق التي كشفها العلم ، وأراها للناس رأى العين ، ولمس اليد ، ومع هذا فإنه لا يزال في الناس من لا يصدق بهذه الحقائق ، ولا يعطيها أذنا سامعة ولا عقلا مصفيا !

ومن هنا كانت مهمة الرسائل السماوية ، ورسالة الرسل القائمين عليها ، هي كشف حقائق الوجود لأقوامهم المبعوثين اليهم ، وذلك بايقاظ عقولهم النائمة ، وإثارة مشاعرهم الخاملة ، ولفتهم الى ما في ملكوت السموات والأرض من بديع الصنع ، وقدرة الصانع وحكمته . . .

فنوح عليه السلام ، قد استفتح دعوة الرسل بهذا الأسلوب الذي واجه به الجهل الذي غشى على عقول قومه ، حيث هتف بهم : أن أنظروا وتدبروا في هذا الوجود ، وأن اقرعوا ما في صحفه من آيات الله ، وأخرجوا من عالم الحيوان ، الى عالمكم الذي خلقكم الله تعالى له . . . « ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعينكم فيها ويخرجكم أخرجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » (١٤ - ٢٠ : نوح) .

فهذه اول دعوة سماوية الى العقل الانساني ان يأخذ مكانه الصحيح في كيان الانسان ، وفي وصله بالوجود ، وفي تعرفه على خلقه من خلال النظر في مخلوقاته .

ان ذلك الاسلوب السماوي المبكر ، الذي التقى بالانسان في أولى خطواته على هذه الأرض ، ليدل دلالة قاطعة على مكانة العقل في الانسان ، وأنه بغير هذا العقل ، وبغير الاصطحاب له ،

والحياة معه ، لن يكون الانسان انسانا ، ولن يكون له المقام
العزيز الكريم في هذه الحياة ..

وعلى هذا المسار الذى اختطته دعوة نوح ، سارت دعوات
انبياء الله ، ورسله جميعا .. فلا يكاد يلتقى الرسول أو النبى
بقومه ، حتى يهتف بهم أن هبوا من غفلتكم ، وأفيقوا من ضلالكم ،
وانظروا فيما بين أيديكم وما خلفكم ، وعن أيمانكم وشمائلكم ،
ومن فوقكم ومن تحتكم . ومن هذا الطريق يقودهم الى الحق ،
ويدعوهم الى الله .. فان سمعوا له ، وأنزلوا الفشاوة عن
أبصارهم ، والعمى عن بصائرهم ، سعدوا وطابت لهم الحياة .

ان الرسالات والرسل رحمة من رحمة الله ، ونور من نوره ،
وغيث من غيوثه ، كلها في معرض النفع العام للناس جميعا ،
حيث تسع عباد الله كلهم ، وتشمل خلقهم جميعهم ، كالشمس
والهواء ، والماء ، لا يتكلف لها الناس كثيرا من الجهد ، وانما
هى بحيث ينالها كل طالب ، ويأخذ منها كل مريد .. وهكذا كل ما من
شأنه أن يصلح حياة الناس ، ويطهر وجودهم .. لابد أن يكون
أقرب شئ الى الطبيعة ، بل لابد أن يكون من صميم الطبيعة ،
بعيدا عن أية صنعة أو تكلف .. والدين ضرورة حياة للانسان ،
وهيئات أن يحيا انسان بغير دين .. ومن هنا كان أقرب دين
الى الانسان ، وأكثر ملاءمة له ، وأبعده أثرا في حياته ، ما كان
جاريا مع الطبيعة البشرية ، مُساكلا لها ، متجاوبا معها ، ملحقا
بها في « جو نقى » طهور ، أشبه بماء المطر قبل أن يختلط بتراب
الأرض .

* * *

والقول بأن الاسلام دين الفطرة ، انما يعنى أنه الدين الطبيعى،
الذى يلتقى مع الطبيعة الانسانية السليمة لقاء مواخيا ، مزاجيا
بين فطرة الله ، ودين الله .

فالانسان بفطرته مؤمن بالله ، ذلك الايمان الذى هو أساس
دين الله ، ومركز دائرته .. فلو ترك الانسان لنفسه من غير
أن تدخل عليه المؤثرات المنحرفة من خارج ذاته لكان مؤمنا
بالله ، بداع من فطرته ، قبل أن يدعوه داع من رسل الله ..

وهذا ما يشير اليه الرسول الكريم في قوله : « كل مولود يولد على الفطرة » .. وهو ما دلت عليه الآية الكريمة : « **واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا انما آياؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أتفلكنا بما فعل المبطلون** » (٧٢ — ١٧٣ : الاعراف) .. فهكذا أخذ الله العهد على ذرية آدم ، وهم في عالم النطف ، وأشهدهم على انفسهم بالوهيته ، وربوبيته ، فشهدوا .. ومن هنا كان قوله تعالى : « **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** » (٢٧ : البقرة) مشيراً بنقض عهد الله في هذه الآية الى ذلك العهد السابق في الأزل ، الذى أخذ الله تعالى على بنى آدم ، كما كان مشيراً بقطع ما أمر الله به أن يوصل الى ما كان ينبغى من الكافرين من وصل ايمان فطرتهم بالايمان الذى يدعوهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه اليه ، ولكنهم بكفرهم قد قطعوا ما أمر الله أن يوصل من وصل دين الفطرة بدين الرسالة .

نعود بعد هذا لنؤكد أن دعوة الاسلام ، ليست دعوة الى مراسم وطقوس ، والى صور من الرسوم والمشاهد ، وانما هى قبل كل هذا تصحيح لانسانية الانسان ، ورد لاعتباره ، بايقاظ عقله من رقاد ، أو تنبيهه من غفلة ، أو رده من شرود ، أو تقويمه من زيغ ، أو بعثه من موات .. وذلك حتى يعود الى فطرته ، وينفض عنها كل ما علق بها من آفات الضلال والزيغ .. فاذا أقام الاسلام الانسان بهذا المقام ، يكون قد وصله بخالقه ، ووجه وجهه ، وعقله ، وقلبه الى ما لله سبحانه وتعالى من صفات الجلال ، والعظمة ، والكمال .. وبهذا يصبح الانسان أهلاً لان يتلقى وصايا ربه ، وأن يخاطب على لسان رسله ، وأن يكلف بما يكلف به من عبادات ومعاملات ، وأخلاقيات ، هى زاده العتيد ، ليظل محتفظاً بانسانيته ، التى صفى الاسلام جوهرها ، ودفع عوائل السوء عنها ..

فالاسلام لا يتعامل الا مع الانسان العاقل الرشيد ، الذى ليس لهواه سلطان على عقله ، ولا لانسان تسلط على ارادته .. فان

التقى الاسلام بمثل هذا الانسان ، صافحه مرحبا به لأول لقاء ،
وافسح له مكانا كريما بين أهله ، وان التقى به مفتونا مغرورا ، أو
احمق جهولا ، لم يزو وجهه عنه ، ولم يقبض يده دونه ، ولم يفلق
الباب في وجهه ، بل لقيه حانيا عليه ، رحيبا به ، لقاء الطبيب الكريم
الرحيم بجريح في مخلفات معركة .. فهو يضمد جراحه ، ويمسك
زئيف دمه ، ويملا قلبه بدفء الأمل بالابتسامة الحلوة على شفثيه ،
وبالكلمة الودود الواعدة بالشفاء ، المبشرة بالعافية .

هكذا يفعل الاسلام مع من يلتقى بهم من مرضى العقول ،
وضعاف الأحلام .. حيث يلتاقهم حدبا عليهم ، حفيا بهم ، يضع
بين أيديهم كل دواء يذهب بعلمهم ، ويشفى أسقامهم ، إذا هم
أقبلوا عليه ، واستساغوا طعمه ، وجروا معه على ما رسم لهم
من حدوده ومعاله ، والله سبحانه وتعالى يقول : « **وننزل من
القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا** »
(٨٢ : الاسراء) .. أما من يعرض عن هذا الدواء ، ويسوء
ظنه به ، ورأيه فيه ، فانه يدعه وشأنه دون أن يفلق بابه دونه ،
ودون أن يجرمه هذا الدواء المحدود له .. فالباب الى دين الله
مفتوح لكل انسان مدى الحياة الى ما قبيل أن يحضره الموت !

وننتهى من هذا كله الى القول بأن الاسلام لا يقبل التعامل
مع انسان الا اذا كان على هذا المستوى الكريم للانسان العاقل
الرشيد ، سواء أجاأ اليه هذا الانسان ابتداء وهو عاقل رشيد ،
أم التقى بالاسلام مريض العقل ، سقيم الرشد ، فوجد في هذا
اللقاء السلامة لعقله ، والعافية لرشده ، فتهيأ له بذلك أن يدخل
الاسلام ، وأن يصحبه صحبة ملازمة ، ويصبح من أهله ..

ان الاسلام ما جاء ليخدع الناس عن أنفسهم ، وعن الأمراض
الخفية التي تفتال عقولهم ، وتطمس معالم الإدراك منهم ، أو
ليقيمهم على هذا المستوى الهابط بانسانيتهم الى مستوى الحيوان ،
حيث يسلمون قيادهم لآي مخادع ، ويبدلون ولاءهم وأعمالهم
وأموالهم لكل مستغل مخادع ، فذلك أبعد ما يكون عن أي دين
سماوي ، الذي هو خير خالص للانسان ، ورحمة منزله من ربه
اليه ، تخصب مدركاته ، وتنمي عقله ، وتعلو قدره ، وتحرسه

من آفات الحياة التي تتهدد وجوده ، فان يكن في الدين — اى دين — شىء غير هذا ، فهو على القطع ، ليس من دين الله ، الذى هو جامعة كل خير ، ومصدر كل نور وهدى : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (٤٠ : النور) .

وقد كان بحسبنا ان نفث عند هذا في حديثنا عن الاسلام ، وان ندع لمن يريدون ان يتعرفوا على حقائقه ، سواء كانوا من اهله او من غير اهله ، وسواء اكانوا من اوليائه او اعدائه — ندع لهم ان يشهدوا هذا بانفسهم ، وان يتعرفوا اليه بقولهم عن تجربة وامتحان ، وان يعرضوا كل حقيقة من حقائقه موضع البحث والتمحيص ، مستنصحين لانفسهم ، طالبين الحق والخير لها ، ثم ليكن لهم بعد هذا ما يشاءون من اقبال على الاسلام ، او اعراض عنه . . . فاما ايمان مطلق ، عن يقين لا تخالطه ذرة من شك ، واما كفر صراح بلا توقف او تردد .

ومع هذا ، فان انسانا يعيش بعقله ازاء الحقائق باحثا دارسا ، وهو في حال من الشك ، او التردد ، او الرفض ، هو عند الاسلام خير الف مرة من انسان لم ينظر في دينه بعقله ، ولم يزن حقائقه بمدركاته ، بل اخذ ذلك وراثه من غير كد او جهد ، ومن غير ان يعرف حقيقة ماورث ، ولا كيف ينتفع بها ورث — ان انسانا كهذا لا يجد فيه الاسلام الانسان الذى يريده عالما صغيرا قد انطوى فيه العالم الاكبر ، بجلاله وروعته ، وعظمته ، ثم يريده لبنة سالحة في بناء امة بناها الاسلام واخرجها بتعاليمه لتكون خير امة اخرجت للناس .

نقول : كان بحسبنا ان نفث في حديثنا عن الاسلام عند هذا وندع لكل انسان ان يختار مع الاسلام الطريق الذى يشاء ، ينبئها بعقله ، ويميزها بادراكه ، ولكن رأينا من الوفاء للحق ، ومن قضاء واجب يقتضيه دين الله منا ، بالدعوة الى الله ، وبدفع الشبه والضلالات والمعائر التى يلقي بها الشيطان واولياء الشيطان على محجة هذا الطريق المستقيم ، لتزيغ عنها ابصار ، وتعمى عنها بصائر — رأينا ازاء هذا ان نلتقى بالاسلام لقاء مواجهها ، لا يصحبنا في طريقنا معه ، الا العقل ، والعقل وحده ، بعيدين —

على قدر ما نستطيع — عن كل منزع من منازغ العاطفة التي
تصلنا بالاسلام ، مجردين — ما أمكن ذلك — من كل المؤثرات
القوية التي تركها هذا الدين في أعماقنا .

فإن تحقق لنا هذا ، وذلك ما نرجوه ، ونسأل الله تعالى العون
عليه ، والتوفيق فيه — نكن قد أصبنا غرضين في وقت معا :

أولهما : ارتياد الطريق الى الله ، ونصب معالم عليه لن يريد
أن يقيم وجهه الى الله ، حيث يجد فيها عقله أنسا من وحشته في
صحبة عقل يسلك الطريق معه .

وثانيها : اعادة كشف الحقائق التي آمننا بها ، وأعطينا ولاعنا
لها ، وفي هذا تجديد لحياة هذه الحقائق فينا ، وإيقاظ لها من
مرقدتها في عقولنا وقلوبنا ، بعد أن طال الزمن بها ، وهى في حال
من الثبات والاستقرار ، فسكنت ، ونامت ، ولم يعد لها مفعول
مؤثر في حياتنا !! وهذا — في رأينا — هو سبب أول من أسباب هذه
العزلة الموحشة بيننا وبين ديننا ، فجمدت حقائقه في عقولنا ، وبردت
جذوته في صدورنا ، وزال سلطانه على متازعنا ، وسلوكنا .

وطبيعى أننا — ونحن نعرض حقائق الاسلام — لا نعرض
لحقائق أى دين غيره ، ولا نعقد الموازنات بينه وبين المذاهب
والديانات الأخرى ، لأننا نؤمن بأن الاسلام هو دين الله الذى رضيه
لعباده ، كما يقول سبحانه : « **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت
عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً** » (٣ : المائدة) .

اننا نعرض هنا حقائق الاسلام لكل مسلم ، ليعرضها على
عقله ، أو ليعيد عرضها من جديد ، ففى ذلك العرض تصحيح
لكثير من المفاهيم الخاطئة التي تدسست الى كثير من العقول ،
وأخذت مكانها من النفوس ، فكان هذا انذى نعانیه من غربة في
الحياة ، ومن اصطدام مدمر بواقعها الذى نلقاه تحت اسم
الاسلام ، دون أن يكون للاسلام مفهوم صحيح في عقولنا ، ومكان
مكين في قلوبنا . . . وانه لمن الظلم للاسلام أن نأخذ منه اسمه ،
دون حقائقه ، ثم نتعامل بهذا الاسم على أنه هو الاسلام ، فيكون

شأننا معه شأن شاهد الزور ، الذى يدعى أنه قريب الصلة
بمن شهد عليه ، وأنه مطلع على أحواله ، فيدينه بهذه الشهادة
الزور ، ويضعه موضع الاتهام .

وانحق أن الذى ينظر الى الاسلام من خلال المسلمين اليوم ،
وما أصيبوا به فى أخلاقهم مما ينكره الدين ، ويتوعد بالعقاب
الشديد عليه — الذى ينظر الى المسلمين هذه النظرة لا يسعه الا
أن ينكر الاسلام ، اذا لم يكن على صلة وثيقة به ، عرف منها
حقيقة هذا الدين ، وما يصبغ به أهله من كريم الأخلاق ، وحميد
الفعال .. فاذا كان على تلك الصلة الوثيقة بدين الله لم يربدا من أن
ينكر انتساب هؤلاء المسلمين الى الاسلام !

ان الاسلام اليوم غريب فى أهله الذى ينتسبون اليه نسبة
الأدعياء الى آباء لا تسرى فيهم دماؤهم ، ولم تلد لهم
زوجاتهم ..

ولقد شغلنا زما طويلا عن النظر الى أنفسنا ، واصلاح ما بيننا
وبين ديننا ، بأكثر من شاغل :

فأولا : تلك الحروب المتصلة ، وهذه الطعنات الخبيثة الخفية ،
التي يسوقها أعداء الاسلام الى الاسلام ، فكان من ههنا هو رد
هذه الطعنات بالطعن فى الديانات الأخرى ، وكشف ما فيها من
تحريف ، وتضليل ، حتى لكأن المعركة بين دين ودين ، وكان
الأولى بنا فى هذا المقام هو عرض حقائق ديننا ، لا بالأقوال
وحدها ، ولكن بالأعمال التي تتجلى فيها تلك الحقائق فى صورة
لا تقبل جدلا ، ولا مكابرة .. أما الأقوال وحدها المجردة من
الشواهد العملية التي تشهد لها ، فما أيسر المجادلة فيها ، والدفع
بالسفسطة والمحاكة ، وان كانت من الحق الصراح !

وخير شاهد لهذا القول ، أن القرآن ، وهو دستور الشريعة
الإسلامية ، وجامعة أحكامها ، وآدابها ، هو هو من عهد
النبوة ، لم يتغير منه حرف ، ولم تتبدل منه كلمة ، ومع هذا
فما أبعد الفرق بين مكانه وآثاره فى حياة المسلمين فى عصر النبوة ،

وبين مقامه وآثاره في حياة المسلمين اليوم ، وقبل اليوم لقرون خلت . . وما ذلك إلا لأن كلمات القرآن قد نزلت في قلوب المؤمنين الأولين وعقولهم منزل الغيث أصاب أرضا طيبة ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، على حين نزلت هذه الكلمات من قلوبنا وعقولنا منزل الغيث أصاب أرضا سيخة جديبا ، فتحول فيها إلى برك قد أسن ماؤها ، وخبثت ريحها ، لو اطلع عليها مطلع لفر منها ، ولسد أنفه أن ينفذ إليه ريحها .

ومن هنا نفهم صدق هذا الوصف ودقته ، الذي وصفت به النبي ، السيدة عائشة رضي الله عنها ، وهي تتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الكلمة الجامعة لصفاته الكريمة كلها إذ تقول : « كان خلقه القرآن » ونعم ، لقد كان الرسول الكريم سنوات الله وسلامه عليه قرآنا يمشي على الأرض في صورة بشر ، فكان تفسيراً حياً لآيات الله وكلماته . . وكذلك كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة مصغرة لهذا السميت النبوي الكريم ، فكان في كل منهم صورة مقاربة لكثير من آيات الله وكلماته . .

أما حال المسلمين اليوم مع القرآن ، فهم صور شائهة له ، وتفسير مفلوط مقلوب لآياته وكلماته . . لا يجدون من القرآن مصادقة على ما يستشهدون به من معجز أحكامه ، ومحكم آدابه ، حيث يرى الناس منهم غير ما يسمعون . . وما راء كمن سمع ، كما يقول المثل !

وثانيا ، مما شغلنا عن أنفسنا ، وعزلنا عن ديننا ، هو هذا البريق الخادع من مدينة الغرب المادية ، التي أغرت كثيرا منا بالعدو السريع إليها ، وبالجرى اللاهث وراءها ، الأمر الذي لم يدع لكثير منا فرصة يراجع فيها دينه ، ويلتمس المدنية الكاملة ، الصادقة ، من معدن هذا الدين ، ومن نسج ثوبها القشيب من خيوط أحكامه ومبادئه . . وأنه لو فعل لأقام في هدى دينه مدنية ، وأسس حضارة ، تزرى بكل مدنية ، وتعلو على كل حضارة . . ولكنه التقليد الأعمى والنظرة العجول ، والشهوة الحمقاء ، هي التي ساقطت كثيرا من شباننا ، وكهولنا ، بل وشيوخنا ، إلى هذا المزلق

الخطر ، فكانوا أشبهه بالغربان الذين يضعون على أجسادهم ريش الطواويس !!

وبعد ، فقد آن لنا هذا التمهيد الطويل ، أن نلتقى بالاسلام وحقائقه وبرسول الاسلام وهديه ، حريصين في هذا المقام على الا نقول على الله ، وعلى دين الله ، وعلى رسول الله غير الحق ، وما كان لنا — ونحن ندعو الى الله — أن نقول غير الحق ، الذي يهدى من ضلال ، ويبصر من عمى : « فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، » (١٠٤ : الانعام) .. « **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » (٢٩ : الكهف) « **والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** » (٤ : الاحزاب) .. وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، بدءا ، وختاما .

1911

...

الإسلام وقضاياها

« ومن يتبع غير الإسلام
نينا ، فمن يقبل منه ، وهو في
الآخرة من الخاسرين » .
(قرآن كريم)

الإسلام : عقيدة ، وشريعة ..

هاتان حقيقتان كبيرتان ، يندرج تحتها كل ما ضم عليه الإسلام
من حقائق عليا ، يدين الله تعالى بها أتباعه ، ويحملهم أمانتها ،
ويحاسبهم على ما يكون منهم من وفاء بها ، أو خيانة لها ، ثم
يجازى كلاهما هو أهل له ..

« ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا
بالحسنى » (٣١ : النجم) .

والعقيدة ، اقرار باللسان ، وتصديق بالعقل ، وإيمان ومعتقد
في القلب ..

والشريعة ، عمل ، وسلوك ، هو مظهر لما تمليه العقيدة ،
وما يقضى به المعتقد ، ليظل حيا نابضا في كيان الانسان ، أشبه
بالماء للزرع ، يخرج خبأه ، وينضج عوده ، ويطلع زهره ، وينضج
ثمره ..

العقيدة :

ويندرج تحت العقيدة خمسة أصول :

أولا : الايمان بالله ..

وثانيا : الايمان بملائكته ..

وثالثا : الايمان برسله ..

ورابعا : الايمان بكتبه ..

وخامسا : الايمان باليوم الآخر ، وما يتصل به ، من بعث ، وحساب ، وجنة ، ونار .

الشريعة :

ويندرج تحت الشريعة ثلاثة أصول :

أولا : العبادات ..

وثانيا : المعاملات ..

وثالثا : الأخلاق ..

وهذا اجمالى يحتاج الى تفصيل ..

الباب الأول

العقيدة

أولاً: الإيمان بالله

« قل هو الله أحد ، الله
الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ،
ولم يكن له كفوا أحد » .
(سورة الاخلاص)

الإيمان لا يكون الا بعد العلم بما يؤمن به الانسان ، والعلم لا يقع الا بتصور المعلوم ، واقامة مفهوم صحيح له في عقل الانسان ومدركاته . . . والعلم الذى يعطى ايماننا حقا هو أعلى درجات العلم ، واكمل درجة يبلغها العالم بعلمه ، حتى يقع اليقين عنده بما علم ، وحتى يكون هذا اليقين قوة ذات سلطان محكم ، ومتحكم في العالم ، بحيث لا يخرج في أقواله وأفعاله عن مفهوم ما علم واستيقن ، وآمن .

ونسأل : هل ينطبق هذا المفهوم للإيمان ، على الإيمان بالله ؟
بمعنى ، هل يمكن أن يتصور الانسان الاله ، ويحيط به ، كما يحيط
علماء بالوجودات التى بين يديه ، وتحت سلطان حواسه ؟

وهذا ائتساؤل ، انما هو للذين يؤمنون بوجود اله واحد لا شريك
له ، قائم على هذا الوجود كله ، خلقا وأمرا ، على اختلاف
تصوراتهم لهذا الاله ، وماله من صفات الكمال المطلق عندهم .

أما غير المؤمنين بالله ، فاننا لا نقف معهم موقف النظر والمجادلة
في هذا المقام ، بل ندعهم وما هم فيه من حيرة وقلق ، وهم في هذا
الموقف الذى هم فيه فيهممقيم متعقد مع ما يطرقهم من وسواس ،
وهم يبحثون عن هذا الاله الذى خيل انيهم أنهم خرجوا من سلطانه،
وأخلوا أيديهم منه ، كما يزعمون . . . ونحن نزعم بل نجزم أن فراغا
هائلا يموج في كيانهم ، تحركه عواصف مزمجرة من القلق ، والشك

والحيرة .. انهم — مع ما يبدو عليهم من رضى عن موقفهم هذا المنكر للاله — لا تخلو أنفسهم أبدا من طوارق الوسواس ، والكآبة والهموم التى تغشاهم من مناطق مندسة فى أعماقهم ، لا يدرون لها تأويلا ، ولا يستطيعون عنها تحولا ، وهى تحدثهم عن الله ، وتكشف لهم عن سلطانه القائم عليهم ، وعلى كل مافى هذا الوجود .. ذلك فى الواقع هو وضع الملحدىن ، والكافرىن ، والمنافقىن ، والمشركىن ، وكل من فى قلوبهم مرض حجب عنهم الرؤىة الكاشفة للحق الذى ينشر نوره ، ويمد سلطانه فى ملكوت السموات والأرض .. انهم لن يخلصوا لمعتقدم هذا الفاسد أبدا ، ولو أخلصوا له فى وقت ما ، حيث تقدافع بهم أمواج الحياة ، ويسوقهم تيارها العنيف ، جريا وراء متاع الدنيا ومفاتها — فانهم حين يخلون الى أنفسهم ، تعاودهم الوسواس والأوهام من هذا الشعور بتلك القوة المطلقة ، وهذا السلطان العظيم ، الذى يطلع عليهم من أعماق فطرتهم ، ثم اذا كربهم كرب ، وأحاط بهم بلاء ، وتقطعت الأسباب بينهم وبين النجاة من هذا الكرب ، والخلاص من هذا البلاء ، عندئذ لا يرون الا وجه الله ، فاذاهم به متعلقون ، وله داعون متضرعون .. انها صحوة لنفطرة ، أشبه بصحوة المشرف على الموت .. فاما أن تتحول هذه الشرارة المنطلقة من كيانه الى وهج تستضىء به جوانب نفسه ، فاذا هو فى نور من نور الله ، لا يغرب أبدا ، وأما أن تنطفىء تلك الشرارة ، وتصبح رمادا ، يتحول بعدها صاحبها الى عالمه المظلم الذى يعيش فيه ..

* * *

فمن الحقائق التى ربما غابت عن كثير من الناس ، أن وجود الله تعالى حقيقة مستقرة فى كيان الانسان — كل انسان — مندسة فى وجدانه ، حتى عند أولئك الملحدىن والمادىين الذين ينكرون وجود الله ، ولا يرون شيئا وراء هذا العالم المادى الذى يعيشون فيه ، وتتعامل معه حواسهم ، من بصر ، وسمع ، وشم ، وذوق ، ولمس ..

ان هذه الحقيقة من وجود الله ، فى فطرة من ينكرون وجود الله ، انما تكشف عنها الشدائد والأزمات ، التى يتعرض لها هؤلاء

المنكرون ، وذلك لا يكون الا حين تضيق بهم مسالك النجاة ،
وتسند في وجوههم منافذ الخلاص .. عندئذ تنجلي عنهم الأوهام
وتفر من بين أيديهم الضلالات ، التي حجبتم عن الله ، حيث
يصهرهم هذا الكرب الذي هم فيه ، فتندح في كيانهم تلك الشرارة
المقدسة بن أنوار الحق ، فيرون على ضوءها الا ملجأ من الله الا الى
الله ، والا خلاص الا بالولاء له ، والرجاء فيه .. وهذا ما ينسب اليه
قوله تعالى : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه
تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين .. قل
الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » (٦٣ - ٦٤ :
الأنعام) وما يكشف عنه قوله جل شأنه : « هو الذي يسركم
في البر والبحر ، حتى اذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة ،
وفرجوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ،
وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجينا
من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يفتنون في الأرض
بغير الحق » (٢٢ - ٢٣ : يونس) .

ومما يفهم من هذه الآيات الكريمة ، أن الله تعالى قد استجاب
دعاء هؤلاء الداعين ، ممن كانوا على انكار له ، وكفر به ، وذلك
في حال كانوا فيها - ولو للحظة عابرة - أقرب ما يكونون الى
الايمان بالله ، واخلاص الدعاء له ، وبغير هذا الاخلاص لا يقبل
دعاء .

روى أن عكرمة بن أبي سفيان وجماعة من المشركين ، فروا
من مكة يوم الفتح ، استكبارا أن يسلموا ، ويعطوا أيديهم لرسول
الله ، وللمسلمين ، فركبوا سفينة ، لم تلبث أن لعبت بها العواصف
وأخذتها الأمواج من كل جانب ، حتى كادت تفرق وتلقى براكبها
في الماء .. وهنا - ومن غير تدبير أو تفكير - هتف القوم ،
بالدعاء الى الله في ضراعة واستكانة ، فقال عكرمة : ما هذا ؟
فقالوا هذا مكان لا ينفع فيه الا الله ! فقال عكرمة : هذا اله
محمد ، الذي يدعوننا اليه ، وانه ان لم ينجنى في البحر الا هو ،
فلن ينجنى في البر غيره .. فאלلهم رب محمد ، ان لك عهدا ان عافيتني
مما أنا فيه ان أتى محمدا ، حتى أضع يدي في يده ، فلأجدته عفوا
كريما .. ثم جاء ، فأسلم ! » .

ويروى أن الامام جعفر بن محمد الصادق سئل عن الله تعالى ، وكيف يجده من يريده ، فقال لسائله : ألم تركب البحر ؟ قال بلى .. قال فهل هاجت الريح عاصفا بكم ؟ قال : نعم .. قال : فهل خطر ببالك ، أو انتقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إذا شاء ؟ قال : نعم .. قال : فذلك هو الله ! »

وأرانا قد طال وقوفنا مع المنكرين للاله ، وكثر حديثنا اليهم ، وما كان بهم من حاجة الينا ، والى هذا الحديث الذي نعرضه عليهم . وان كنا نحن بحاجة الى هدايتهم ، والى استنقاذهم مما هم فيه من غفلة وضياح .. فهم أعضاء في المجتمع الانساني ، ومن خير المجتمع أن تسلم جميع أعضائه من العطب والفساد ..

مع المؤمنين :

وعلى أى : فان حديثنا هذا الى من يؤمنون بالله ، ويعتقدون بوجوده ، وبوحدانيته ، هو حديث عن الاله ، وعن مفهوم المؤمنين للألوهية ، وتصورهم لله ، وما يصفونه به من صفات الكمال .. وفي هذا ما يتيح للملحدين أن يطلوا من عالم الملحد . على هذا العالم ، عالم الايمان ، الذى ينكرونه ، وذلك من باب حب الاستطلاع له ، أو السخرية منه !

ومن يدري ، فقد ينتهى هذا الموقف العارض أو الساحر بكثير من الملحدين ، أن يؤمنوا ، وأن يخلصوا دينهم لله . فان لم يكن هذا ، فما خسرنا شيئا ، على حين أننا ربنا الكثير بهذا الذكر لله تعالى فى صحبة الجماعة المؤمنة ، فنزداد ايمانا ، وثوبا ..

ما الاله ؟

وندع كل ما نعرف من المفاهيم والتصورات عن الاله ، عند غير المسلمين ، وبحسبنا أن نعرض المفهوم الاسلامى لذات الله ، وما له جل شأنه من صفات .. ثم نترك لغير المسلمين رأيهم فى هذا المفهوم ، وما يقبله العقل أو يرفضه منه .. فما مفهوم الاله فى الاسلام ؟

الاله في مفهوم الاسلام ، وفي معتقد المسلمين ، هو كما بينه القرآن الكريم أجلى بيان وأوضحه في كثير من آيات القرآن الكريم ، الأمر الذي ضم عليه حيز كبير من كتاب الله . ويكفى في الدلالة على هذا أن القرآن المكي يكاد يكون كله دعوة الى الله ، واعلاما به ، ووصفا لذاته ، حتى ليكاد ينحصر دور الدعوة الاسلامية في هذه المرحلة من مسيرتها ، في كشف هذه الحقيقة الكبرى ، واقامتها مقام اليقين في عقول المؤمنين ، وفي مكان الاطمئنان من قلوبهم .. ثم لازالت آيات الله تنزل في المدينة ، وفي محاملها الشريفة معارض كثيرة لما لله سبحانه وتعالى من جلال ، وعظمة ، وكمال ..

ففي سورة الاخلاص وهي من القرآن المكي ، يقول الله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .. في هذه السورة الكريمة ، وصف موجز معجز لذات الحق سبحانه وتعالى .. انه الوصف الذي وصف به الحق جل وعلا ذاته ، فهو سبحانه واحد لا شريك له ، صمد لا يملك أحد معه شيئا في هذا الوجود ، خلقا أو أمرا .. وهو جل شأنه لم يلد ، لأنه لو كان له ولد — وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — لكان الولد شبيها له ، ثم شريكا في صفاته ، ثم وارثا له من بعده ، لان كل والد إنما يلد من طبيعته ، وجنسه ، وصفاته الغالبة عليه ، ثم ان من طبيعة التوالد أن يخلى الوالد مكانه لمواليد ، طالعت صحبتهم لهم أم قصرت ...

وإذا انتفى عن الله ما لا يليق بوحديته ، وجلاله ، من نسبة الولد اليه ، كذلك ينتفى عنه سبحانه أن يكون مولودا لوالد ، لأنه لو كان جل شأنه ، وتنزهت ذاته ، مولودا لوالد ، لكان والده سابقا له ، ومقدما عليه ، ولا تصلت سلسلة التوالد الى ما لا نهاية من المواليد ، من آباء كانوا مولودين ، ومن مولودين صاروا آباء .. وهكذا ..

ثم هو سبحانه — كما وصف ذاته — « لم يكن له كفوا أحد » وهذا وصف يقطع بنسبة أحد اليه مولودا ، وبنسبته هو الى أحد والدا .. لان هذا النسب يقضى بالتكافؤ بين الوالدين والمولودين ..

وتعالى الله تعالى أن يكون له مكافئ أو مماثل ، والا لتعددت
الآلهة ، ولما كان لأحد فضل على أحد ، يقيمه مقام التفرد بسلطانه
على هذا الوجود ، الذى لا يقوم الا بسلطان اله واحد ، متفرد ،
له الخلق والأمر ، دون أن يكون لغيره خلق أو أمر ، الا بمشيئته
واذنه ، وتحت أمره وسلطانه ..

وفي سورة البقرة ، وهى من أوائل القرآن المدنى نزولا ، يقول
الله تعالى فى وصف ذاته الكريمة : « **الله لا اله الا هو الحى القيوم**
لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا
الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا
يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات
والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » (٢٥٥ : البقرة)
.. فالله ، هو الاله الواحد المتفرد بالالوهية ، لا شريك له ،
ولا صاحبة له ولا ولد ، لأن أى اضافة له — سبحانه — من
شريك ، أو زوج أو ولد ، لا يكون الا لدفع ضرر ، أو جلب خير ،
أو سد نقص ، وهذا مما يناقض الكمال المطلق الذى ينبغى أن
يكون للملك الملك كله ، والذى بغير هذا الكمال المطلق لا يتحقق
الاستواء على عرش الوجود ، والامسك بنظامه ..

والله ، هو الحى حياة قديمة قدما مطلقا لا أول له ، سرمدية أبدية
أبدا مطلقا لا نهاية له .. فالحياة المحدثه حياة عارضة ، والعارض
لا دوام له مهما امتد به الزمن ، لأن الحادث كما وجد بعد أن لم
يكن ، لا بد أن يزول بعد أن كان : « **كل شيء هالك الا وجهه** »
(٨٨ : القصص) .. وتعالى الله تعالى أن يكون محدثا ، لأن
هذا يعنى أن هناك من تقدمه فى زمان ، أو مكان ، أو حال فى زمان
أو مكان ، والمتقدم أولى من المتأخر بمقام الصدارة ، وكذلك الأمر
لو كان بعده شيء ، لأن هذا الشيء يكون الوارث له ، القائم
مقامه ، وهكذا تتدافع الموجودات المحدثه ، فلا يكون لأولها الأوليه
المطلقة ، ولا يكون لآخرها ، الاخرية المطلقة ، ثم تبقى الأوليه
المطلقة والآخرية المطلقة ، للذى لا أول قبله ، ولا آخر بعده ،
وهو الله رب العالمين : « **هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ،**
وهو بكل شيء عليم » (٣ : الحديد) والله ، لا تأخذه سنة أى تهويمه
أو غفلة ، ولا يغشاه نوم ، لأن ذلك عارض غالب ، يعرض للكائن

الحي عن فتور وتعب ، فيتسلط عليه هذا العارض ، ويخضعه لسلطانه ، ومن كان لغيره سلطان عليه لا تصح منه دعوى أن له السلطان المطلق ، والله سبحانه ينبغى أن يكون له السلطان المطلق على كل شيء ، الغالب لكل شيء .. « ان كل من في السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا » (٦٣ : مريم) .. ثم كيف يصح أن يعرض التهويم أو النوم لمن يقوم على هذا الوجود ، تسييرا وتدبيرا ؟ .. فمن يدبر هذا الوجود في غفلته أو نومه ، ومن يرعى شئون هذه العوالم ويحفظها من أن يموج بعضها في بعض ، ويأتى بعضها على بعض : « ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا » (٤١ : فاطر) .

والشاعر العربى يقول :

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد

فتعالى الله سبحانه عن أن تأخذه سنة أو نوم ، أو يعرض له تعب أو فتور : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » (٣٨ : ق) .

والعلم المطلق المحيط بكل شيء ظاهرا وباطنا ، صفة ينبغى أن تكون لمن يقوم على هذا الوجود ، ويدبر أمر كل موجود .. « الا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » (١٤ : الملك) فبالعلم المطلق المحيط بالوجود ، النافذ الى كل ذرة من ذراته ، يقوم سلطان الله تعالى على الوجود ، وعلى تدبيره ، وتسييره فى نظام محكم ، « لا الشمس ينبغى لها أن تترك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .. (٤٠ : يس) .

فهذا النظام الذى يمسك بالموجودات كلها ، وينظم مسيرتها ، هو دليل ناطق بلسان مبين بأن لهذا الموجود خالقا ، قادرا ، حكيما ، عالما .. « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع

البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك
البصر خاسئا وهو حسير)) (٣ - ٤ : الملك) .

والعرش الذى يقوم على سلطان الله قد وسع كرسية السموات
والأرض ، بمعنى أن كل شيء فى هذا الوجود ، من صغير وكبير
داخل تحت سلطان الله ، يقضى فيه بما يشاء ، ويصرفه كما
يريد : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » (٢٣ : النبا) .

هذه هى بعض صفات الله تعالى فى مفهوم الاستلام ، وهى من
بديهيات العقل ، ومن أوليات قضايا المنطق .

فأولا : هذا الوجود ، لا بد له من موجد أوجده بدءا ، على غير
وجود سبق .

وثانيا : موجد هذا الوجود ، لا بد أن يكون واحدا لا شريك له ،
ولا ند ، ولا شبيهه ، متصفا بالكمال المطلق من كل صفة تليق بذاته
السكرية .

وإذا كان هناك ذو علم ، كان لله العلم الكامل المطلق ، الذى
يخضع له كل ذى سلطان ، بلا شريك ، أو منازع ، أو معين . .
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق
وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »

وإذا كان هناك ذو علم ، كان لله العلم الكامل المطلق ، الذى
يحيط بكل شيء : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى
ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » (٥٩ : الأنعام)

وإذا كان هناك ذو حياة ، فهى من مانح هذه الحياة الذى من
حياته يحيا كل حي ، والذى لا يلحق حياته موت أو عدم . .
« وأنا لنحن نحى ونميت ونحن الوارثون » (٢٣ : الحجر) .

وإذا كان هناك ذو ارادة ، كان لله الارادة الكاملة المطلقة ،
التي تخضع لها كل ارادة ، وتجرى بسطانها كل مشيئة :
« وما تتساعون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (٢٩ التكوير) .

وإذا كان هناك رحمة ، وكان هناك عدل ، واحسان ، فله سبحانه وتعالى الكمال المطلق من الرحمة والعدل والاحسان ،

وهكذا في كل صفة كريمة يطلبها الانسان لكماله ، ويحاول أن يبلغ ما يستطيعه منها ، ثم اجعل للاله الكمال المطلق الذى لا حدود له ولا قيود في أى صفة من تلك الصفات .

ذلك ما يقضى به العقل بدهامة ، ويحكم به منطقته في تصويره للذات الكاملة التى يسلم الانسان بأنها صاحبة السلطان المطلق عليه ، في كل ما يرى ، وما لا يرى من عوالم الوجود .

فاذا قضى العقل بهذا ، وهو ملزم بديهيا ، ومنطقيا ، وفلسفيا بأن يقضى به — كان لابد لصاحب هذا العقل أن ينتظم في سلك هذا الوجود ، وأن يدخل طوعا بارادة الانسان الحر العاقل الرشيد تحت سلطان الله ، الذى هو داخل فيه كرها ، أن لم يدخل فيه طوعا .. « والله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم بالغدو والآصال » (١٥ الرعد) .

« قل انكم تكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين » (٩ — ١١ : فصلت) .

فماذا ينكر الذين يؤمنون بالاله أن يكون مفهومهم للالوهية على هذا الفهم الذى دعا اليه الاسلام ؟ أفى هذا المفهوم شيء ناقص فيما يطلبه العقلاء الراشدون لمن يعبدونه ، ويسلمون اليه وجودهم ، ويدينون له بالطاعة والولاء ؟

وإذا كان في هذا المفهوم الذى صورته الاسلام لصفات الله ، ما يرى العقل — وفاء لحق الكمال لله — أن يضيفه ، فإن الاسلام لا يأبى عليه ذلك ، ولا يعيب مسلكه ، بل انه ليحمد لله أن يرتفع

مدركاته وتصوراته الى أقصى مدى ، وأن يطلب غاية ما يمكن أن يبلغه من تصور لكلمات الله ، ما دام منزها الله عن كل شريك وعن كل صورة تعرض له من صور المخلوقين ، فالله سبحانه : **« ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير »** (١١ : الشورى) .

وأمر نحب أن ننبه اليه ، وهو أن هذه الصفات التي وصف الله تعالى بها ذاته في القرآن الكريم ، هي الصفات التي ينبغي أن نتمثل فيها ما له سبحانه وتعالى من كمالات ، على قدر ماتحتمل مدركاتنا وتصوراتنا من هذا الكمال المطلق الذي لا تحيط به العقول ولا تدرکه الظنون : **« لا تدرکه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »** (١٠٣ : الأنعام) .



فنحن — البشر — مضطرون بحكم ما فينا من عقل أن يكون إيماننا بالله إيمانا قائما على معرفة به .. ولما كانت هذه المعرفة لا يمكن أن تكون لذات الذات ، رؤية ، أو علما ، أو ظنا ، لأن ذلك يعني احتواء الذات وتحديدها ، وتعالى الله عن أن يحتوى أو يحد .. لأن الاحتواء ، معناه دخول المحتوى تحت سلطان ما يحويه من مادي أو معنوي ، ولأن التحديد يحصر المحدد في إطار من الزمان أو المكان .. وهذا وذاك مما يلحق الخالق بالمخلوقات ، بل يجعل للمخلوقات سلطانا عليه .

نقول — لما كانت معرفة الله لا تكون لذات الذات رؤية أو علما أو ظنا ، وكان لابد من معرفة الله ، حتى نعرف مكاننا منه ، وشعورنا بما له من جلال ، وعظمة ، وسلطان — فقد لزم أن تكون هذه المعرفة عن طريق صفات نصف بها الله ، من خلال شعورنا بكماله ، وجلاله ، وعظمته ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : **« والله الأسماء الحسنی فادعوه بها »** (٨٠ : الاعراف) .. فكل ما في أسماء الذوات وصفاتها من كمال ، هو مما ندعو الله تعالى به ، دعاء نستشعر به كمال الله تعالى وجلاله . وتنزيهه عن كل ما للمخلوقات من أسماء وصفات .

والاله فى الشريعة الاسلامية ، اله كبير متعال ، وسع كرسيه السموات والارض ، لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير .. ولكنه سبحانه — مع علوه علوا مطلقا ، هو قريب قريبا مدانيا ، من كل مخلوق ، ومع كبريائه سبحانه كبرياء عظمة وجلال ، هو سامع كل دعاء ، مجيب كل نداء .. « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أحيب دعوة الداعى اذا دعان** » (١٨٦ : البقرة) .. « **ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد** » (١٦ : ق)

ذلك ما يعرفه المؤمنون بالله عن الله .. انه سبحانه اقرب اليهم من خطرات نفوسهم ، وخلجات صدورهم ، وهو معهم اينما كانوا .. « **ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم اينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شىء عليم** » (٧ : المجادلة) .. وفى هذا يقول النبى الكريم فيما يرون عن رب العزوجل وعلا : « **ما وسعتنى ارضى ولا سمائى ، ووسعتنى قلب عبدى المؤمن** » .

صفات الله تعالى التى يصفه بها المؤمنون ، هى غاية ما يمكن أن يبلغه العقل من تصويره للاله الواحد ، القائم على هذا الوجود خلقا وأمرا ، وأنه لمن المحال أن يقبل العقل لها يعبده ، غير موصوف بكل ما يتصور الانسان من صفات الكمال له ، سواء اكان هذا الاله هو الاله الحق ، أم كان من آلهة الضلال التى يعبدها الضالون .. وهل يمكن أن يتعامل الانسان مع مالا يعرف حقيقة ، أو ظنا ، أو توهما ؟

وقد سئل الامام على كرم الله وجهه : « هل عرفت ربك ؟ فقال سبحانه الله ، وهل أعبد مالا أعرف ؟ » .. وهذا حق ، اذ كيف يعبد الانسان مالا يعرف ؟ ولن يتجه العابد بعبادته ، وولائه ، اذا غاب من تصويره وجه المعبود ؟

فاذا كان للانسان قدرة ، وعلم ، وحكمة ووجود ، وحياة ، وملك ، الى غير ذلك من الصفات التى ينشدها الناس ويجدونها

في أنفسهم ، أو في غيرهم — إذ كان للانسان هذا ، كان تجريد العقل للذات الالهية من اية صفة ، هو تجريد للذات نفسها من الوجود ، لأن الوجود نفسه صفة ، وكل موجود لا صفه له فهو — في حكم العقل — غير موجود !

التجريد والتجسيد :

وإذا كان تجريد الذات الالهية من صفات الكمال التي تنبغى لها ، وإذا كان هذا التجريد مما يرفضه العقل السليم ، ويأباه التفكير السوى ، لأنه كما قلنا تجريد للذات نفسها من الوجود — فان تجسيد الذات ، أو الصفات معناه انزال الذات الى عالم المحسوسات ، واخضاعها لحكم الحواس ، بحيث تراها العين ، وتلمسها اليد ، وهذا من شأنه أن يلزم العقل الذات الحكم السذي يلزمه كل المحسوسات ، وهو التحول والتبدل ، والزوال ، أيا كان هذا المحسوس من القوة ، والمنعة .

والتجسيد للاله أو الآلهة واضح في الأطوار الأولى للحياة الانسانية ، باقامة التماثيل والأصنام ، التي تصور بصورة اله ، وتمثله واقعا تحت الحس ، أو باحلاله في صورة بشرية أو حيوانية يراه الناس من خلالها ..

وهذا التصور للاله ملائم للتفكير البدائي للانسانية ، كما نرى ذلك في معظم الديانات القديمة ..

ومما وقع في هذا التفكير البدائي ، هذا التحديد لقدرة الإله ، والذى الذى يبسط عليه سلطانه .. ولم يقبل هذا التفكير أن يتصور لها واحدا قائما على الوجود كله .. ومن هنا تعددت الالهة ، فكان لكل ظاهرة من ظاهرات الوجود اله ، كما كان لكل مدينة ، أو قرية ، أو جماعة ، الهها الخاص بها ..

فلما ارتقى العقل أخذ يحذف كثيرا من تلك الالهة ويختصرها الى الهين متناظرين ، كالنور والظلام ، أو الخير والشر ..

ولم تتوحد الالهة في اله واحد الا حين بلغ العقل رشده ، وحين
جاءت رسالات السماء تدعو الناس الى اله واحد ، هو الله رب
العالمين ..

وهنا جاء دور التجريد ..

وتذهب الفلسفة الحديثة في تصور الاله مذهب التنزيه المطلق ،
وتتمثله فكرة أو رمزا ، أكثر منه ذاتا أو حقيقة .. انه مجرد فرض
لاله ، موجود ، أو غير موجود .. لا يهم !

وما قيمة هذا الفرض ؟

يقول الفيلسوف الأمريكى « وليم جيمس » :

« لذلك ينبغي علينا ، كفلاسفة ، ومن أجل تحقيق غاياتنا في
ايجاد نظام خلقى واحد — ان نفترض وجود الله !

ثم يقول تطبيقا لهذا الافتراض :

« ان اضافة صفة القداسة الى الله — الذى افترض وجوده —
تجعلنى أعتقد أن الله لا يريد الا الخير ..

« وان لاضافة العلم الكامل لله أثر على سلوكى ، لأنها تجعلنى
أعتقد أنه يمكنه رؤية أفعالى فى الظلام ! » .. ثم ينهى هذه الافتراضات
للاله المفترض ، وما يترتب عليها من أثر فى سلوك الانسان —
ينهى هذه الافتراضات بقوله : « ان لوجود الله فى نفسك أثر على
سلوكك ، انه سيخلق التفاؤل والخير ، وسيخلق الأمن والسعادة ..
ان اعتقادك بوجود الله يبرر وجوده ، ويحققه ! » .

وندع هذه التصورات الفلسفية التى تجعل الله مجرد فرض
يخلقه العقل ويعتقده ، ثم يتعامل معه ، غير محقق ان كان هذا
الفرض يستند الى حقيقة أم لا .. ان الأمر لا يعدو أن يكون مجرد
ايحاء نفسى يقيم فى النفس تصورا لاله على صفات خاصة .. ومثل
هذه الايحاءات ان لم تكن مستندة .. على يقين، كانت أشبه بالأحلام،
تطير فى لحظة من لحظات اليقظة ..

والاسلام ، لا يقول بتجسيد ولا تجريد لله سبحانه وتعالى ، وانما يؤمن به من خلال هذا الوجود الذى لا تنتهى عوالمه ، والذى هو فى حركة دائبة فى كل الاتجاهات ، يمسك به نظام دقيق محكم ، لا يتحول ، ولا يتبدل .. فعلى هذا الوجود سلطان قائم ، موصوف بكل صفات الكمال التى من آثارها كل ما فى هذا الوجود من عوالم ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى ، « **هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم** » (٣ : الحديد) .

يقول عبد الغنى النابلسى : « **الظاهر ، من حيث صفاته وأسمائه ، فى صورة كل أحد ، من غير أن يحل فى شىء أو يكون بشىء** » .
والباطن ، من حيث ذاته العلية ، عن معرفة أحد من البرية » .

ويقول ابن عربى : « **يريد العارفون أن يفصلوه تعالى بالكلية عن العالم ، من شدة التنزيه ، فلا يقدرّون ، ويريدون أن يجعلوه بعيدا عن العالم من شدة القرب ، فلا يتحقق لهم .. فهم على الدوام متحرون** » ..

وهذا الكلام ، وان اصطبغ بصبغة صوفية الا أنه يصور الواقع فى تفكير المؤمنين فى ذات الله ، أنه سبحانه لا يحتويه فكر ، والفكر ابدأ مشغول به ، ولا يحده تصور ، والتصور دائما منازع فيه .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** » فكل ما خطر فى النفس ، أو جال فى الفكر من تصور لذات الله ، فالله تعالى منزّه عنه ..

وفى هذا يقول أبو بكر الصديق رضى الله ، وقد سئل :

هل عرفت ربك ؟ قال : نعم .. قيل وبم عرفته ؟ قال : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي ..

قيل وكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الإدراك ادراك .

رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولاً .

ثانياً: الإيمان بملائكته

« الحمد لله فاطر السموات
والأرض جاعل الملائكة رسلاً
أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع
يزيد في الخلق ما يشاء . .
ان الله على كل شيء قدير »
(١ : قاطر)

الملائكة خلق من خلق الله غير المرئى ، وهم عبيد الله ، مسخرون بقدرته ، مؤتمرون بأمره : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (٦ : التحريم)

فهم فى ملك الله ، وهم بعض من هذا الملك ، كالنور ، والهواء ، والشمس والقمر ، والنجوم والانسان ، وغير ذلك من عوالم المخلوقات ، لهم دور فى هذا الوجود ، يؤدونه حسب طبيعتهم ، فيما خلقهم الله تعالى له ، شأنهم فى هذا شأن كل ما خلق الله من كائنات . . « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٣٨ - ٣٩ الدخان) .

ولأن الملائكة من العوالم غير المنظورة ، أو المحسوسة ، فان الإيمان بهم هو إيمان بالغيب ، الذى ينكره الماديون ، ولا يعترفون به ، لأنهم لا يعترفون الا بالمحسوسات وحدها ، أما ما وراء الحس

فهو عندهم عالم من الأوهام والمخرافات .. والمؤمنون بالله ، هم الذين يؤمنون بالغيب ، لأن إيمانهم بالله ، يقتضى الإيمان بما يخبرهم الله تعالى به من غيوب ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : **((ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون))** (٢ - ٣ : البقرة) .

والإيمان بالملائكة ليس معناه الإيمان بذواتهم ، وإنما المقصود منه العلم بوجودهم فى هذا الوجود علما مستيقنا ..

ثم انه ليس الإيمان بالملائكة ، والعلم المستيقن بوجودهم ، مردا لذاته ، وإنما هو مقدمة للعلم بأنهم رسل من رسل الله ، الى من يصطفئهم الله سبحانه وتعالى من عباده ليكونوا رسله الى الناس ، بما يدعوهم الله تعالى اليه من الإيمان به ، وما وراء هذا الإيمان من أوامر يأتمرون بها ، ومنهيات ينتهون عنها ..

وذلك أنه لما كان رسل الله بشرا ، لا يستطيعون بحكم طبيعتهم احتمال الاتصال بالله تعالى اتصالا مباشرا ، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يختار من عالم الملائكة ، عالم النور ، سفراء بينه جل شأنه ، وبين من اصطفاهم من الناس رسلا .. **((الحمد لله ، فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى ، وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ، ان الله على كل شىء قدير))** (١ - فاطر)

وعلى هذا ، فان الإيمان بالرسول ، يقتضى أن يسبقه الإيمان بالملائكة الذين هم حملة رسالات الله تعالى اليهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : **((الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس))** (٧٥ : الحج) فيصطفى سبحانه من يحمل رسالته الى من يصطفئهم سبحانه من الناس الى الناس ..

وقد كان العرب فى الجاهلية يؤمنون بالملائكة ، وأنهم من العالم غير المنظور ، ولكنهم يضيفون الملائكة الى الله اضافة نسب لبنوة اليه سبحانه وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا : **((أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟))** (١٠١ : الانعام) .

وفي هذا يقول الله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم أتى اله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » (٢٦ — ٢٩ الأنبياء) .

ثم ان هؤلاء الجاهلين الذين نسبوا الملائكة الى الله ، وجعلوهم أبناءه ، لم يشاءوا أن يتصورهم ذكورا ، أو ذكورا واناثا ، شأن المواليد من الآدميين وغيرهم ، ولكنهم قالوا ان الملائكة جميعا اناث ، ليس فيهم ذكر . . وفي هذا يقول الله تعالى عنهم . « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا . . أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون » . . ويقول تبارك اسمه أيضا : « ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون ، واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب إلا ساء ما يحكمون ، للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المتل الأعلى وهو العزيز الحكيم » (٥٧ — ٦٠ النحل) . . هكذا يزين الضلال السوء لأهله ، فيرون حقائق الأشياء مقطوبة ، فيبدو لهم الأبيض أسود ، والجميل قبيحا ، والحق باطلا . . اذ كيف يساغ عند هؤلاء الذين قالوا — سفها وضلالا — ان لله أبناء هم الملائكة ، ثم يكون هؤلاء الأبناء اناثا ، مع أنهم يكرهون الاناث ؟ « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب . . إلا ساء ما يحكمون » . . ثم لقد أمعنوا في الضلال اذ صوروا هؤلاء الملائكة الاناث في صورة تماثيل ودمى ، وأطلقوا عليها من أسماء الاناث ما يشاءون ، ثم عبدوها لتقريبهم الى الله زلفى : فكان من معبوداتهم : اللات ، والعزى ، ومناة ، كما يقول سبحانه منكر عليهم ما افتروه على الله وعلى الملائكة : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذن قسمة ضيزى ، ان هى الا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (١٩ — ٢٣ : النجم) .

هذا ، ويذكر القرآن الكريم أن الملائكة جند من جند الله ، يمد بهم المؤمنين ، ليكونوا قوة مساندة لهم في قتال أعدائهم ، كما يقول

سبحانه في سورة الأنفال ، وما أمد به سبحانه المسلمين في غزوة بدر من جنده : **((اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين))** (الآية : ٩) .. وهو ممدد روحى ، ثبت الله به الذين آمنوا ، ويربط به على قلوبهم ، فيكون قلوبهم كثيرا ، وضعيفهم قويا .. وذلك ما يشير اليه قوله تعالى في الآية التالية للآية السابقة ، اذ يقول سبحانه : **((وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم))** (الآية : ١٠) .. وكما يشير الى ذلك قوله تعالى : **((اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان))** (الآية : ١٢) .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى يلقى في قلوب الذين كفروا الرعب .. والأمر في قوله تعالى : **((فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان))** هو موجه منه سبحانه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والى المؤمنين معه بضرب المشركين ، وقد ملا الله تعالى قلوبهم رعبا ، على حين ثبتت الملائكة أقدام المؤمنين وربطت على قلوبهم .. أما الملائكة ، فانهم لم يباشروا القتال ، والا فان ملكا واحد كان يقضى بضربة واحدة على أى جيش مهما كان عدده ، وعدده .. أما أن يكونوا ألف ملك ، فان ذلك معناه أن تلك الألف هى قوى معنوية ، دخلت على قلوب المؤمنين ، فكان ميزان الواحد منهم فى القتال بعشرة من المشركين ، وبهذا يصح أن يضاف البلاء ، والنصر الى المؤمنين ، على خلاف مالو قاتل الملائكة معهم ، وكفوهم البلاء ، والجهاد ، والاستشهاد .. ويشهد لهذا المعنى الذى أشرنا اليه شواهد كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى فيما أخذ به المشركين فى غزوة الأحزاب ، نصرنا للمؤمنين ، وتأيدا لهم : **((ياأيها الذين آمنوا انكروا نعمة الله عليكم ، اذ جاءتكم جنود فارسنا عليهم ريحا ، وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا))** (٩ : الأحزاب) فالريح هنا جند من جند الله . وان كانت محسوسة ، والملائكة جند من جند الله ، وان كانوا غير مرئيين ، ولكن كلا من الريح والملائكة لا يظهرون فى صورة جنود مقاتلين ..

ثالثا: الإيمان برسله

« قولوا آمنا بالله ، وما أنزل
اليانا ، وما أنزل الى ابراهيم
واسماعيل واسحق ويعقوب
والأسباط ، وما أوتى موسى ،
وعيسى ، وما أوتى النبيون من
ربهم لا نفرق بين أحد منهم
ونحن له مسلمون »

(١٣٦ : البقرة)

من الإيمان بالله تعالى ، الإيمان برسله ، الذين يصطفيهم من
الناس لحمل رسالته الى الناس ، حيث يمكن التفاهم بين أبناء
الجنس الواحد من مخلوقات الله . . على خلاف ما لو كان الرسول
الى الناس من غير جنسهم ، حيث يتعذر التفاهم الذى تقوم دونه
تلك الوحشة من اختلاف الطباع بين الجنس وغير جنسه . .

ولهذا اقتضت حكمة الله أن يكون رسله سبحانه الى الناس ،
من الناس ، بل ومن بين أقطابهم وعشائريهم ، حيث يولد بينهم ،
ويعرفون آباءه ومكانه فيهم ، وحيث يتحدث باللسان الذى يتحدثون
به ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان
قومه ، ليبين لهم » (٤ : ابراهيم) .

وقد نازع كثير من الناس — قديما وحديثا — فى أمر الرسالة
والنبوة ، وهل هناك ضرورة انسانية تدعو الى أن يقوم فى الناس

انبياء ورسول بالسفارة بين الله والناس ، حاملين اليهم وصايا السماء وشرائعها ؟

والناس في هذا مذاهب وشيع ، بين مؤمن ، وشاك ، ومنكر .

فالمؤمنون بالله ، وبالشرائع السماوية ، يعتقدون أنهم انما اخذوا شريعتهم عن رسول من عند الله اليهم ، وأن هذا الرسول انسان من بينهم يعرفونه كما يعرفون آباءهم وآباءهم ، وأن الله تعالى قد أختاره ليحمل اليهم شريعته ..

وأما غير المؤمنون بشرائع السماء ، فلا يتصورون أبدا أن يكون بين انسان من الناس صلة بالعالم العلوى ، لاختلاف الطبيعة بين العالمين ، الأرضى والعلوى ، هذا اذا صح — عند القائلين بهذا الرأى — وجود للعالم العلوى .. أما الماديون ، فلا يعترفون أصلا بوجود العالم العلوى ، أو عالم الروح ، واذن فالرأى عندهم في رسل الله هو الإنكار الصريح للرسالات السماوية ، وللرسل ، والله أيضا ..

ولا حديث لنا هنا ، مع المؤمنين برسل الله وأنبيائه في هذا الأمر ، فذلك هو ايماننا وعقيدتنا ، كما هو ايمانهم وعقيدتهم .. وانما نقف معهم صفا واحدا في وجه المنكرين للنبوات ، على اختلاف مذاهبهم وتعدد آرائهم .. ثم انه لا حديث لنا كذلك مع الماديين ، الذين ينكرون ما وراء المادة ، ولا يعترفون بالاله الخالق .. اذ أن الحديث في شأن الرسل والأنبياء القائمين بالسفارة بين الله والناس ، لا مساغ له الا في ظل الايمان بالله ، عند من يؤمنون به ، لأن الايمان بالرسل فرع عن هذا الأصل ، الذين هو الايمان بالله ، فاذا لم يتحقق الايمان بالأصل ، فلا جدوى من الحديث عن الايمان بالفرع ..

وحديثنا اذن هو مع الذين يعترفون بوجود الله ، ويؤمنون به ، ولكنهم ينكرون الرسل ، ولا يتصورون قيام سفارة بين أحد من الناس بين الله والناس ، ولا يرون داعية تدعو الى قيام نبى أو رسول يحمل الى الناس وصايا السماء ..

والذين يذهبون هذا المذهب هم طائفة من الفلاسفة والحكماء الذين تلبس عليهم الأمر في شأن الرسل ، وأبت عليهم عقولهم أن تستسيغ هذه المهمة النبيلة العظيمة التي قام عليها أنبياء الله ورسله في هداية الناس ، وكشف ما تغشاهم من فتن وضلالات . .

وهؤلاء الحكماء والفلاسفة ينظرون الى هذا الأمر بنظرتين متباعدتين : نظرة تحقر الانسان ، فلا تراه أكثر من كائن حيواني كسائر الحيوان ، لا يعدو أن يكون فصيلة من فصائل الحيوانات ، أو سلالاتها . . فهو — والأمر كذلك — مقضى عليه أن يحيا حياته في هذا القطيع ، دون أن يكون له سبيل للانعزال عن هذا المجتمع الحيواني ، على هذه الأرض !

تلك هي نظرة الفلاسفة المتشائمين الذين نظروا الى الحياة بمنظار أسود ، فرأوا الوجود كله مجللا بالسواد ، وراوا الانسان دودة غارقة في أكوام من التراب ، أو سباحة في بحار من الأوحال !!

وقد عاشت هذه النظرة المتشائمة ، التي تنظر الى الحياة ، والى الانسان هذه النظرة السوداء القاتمة ، عاشت في أجيال الناس جيلا بعد جيل ، وكان لها دورات عاصفة في عقول كثير من الفلاسفة والمفكرين . . وأقرب مثل لهذا ما يقوله ، الفيلسوف الألماني « نيتشه » : « لا نريد ملكوتا في السموات ، فنحن بشر ، نريد ملكوتا أرضيا » ! ويقول « نيتشه » أيضا : « اذا كان الله قد خلق الانسان ، فانما خلقه قردا ، يلهو به في أبدية الطويلة ! » .

أما النظرة الأخرى ، فهي على عكس تلك النظرة التي تحط من قدر الانسان ، وتمسك به على مربيط الحيوان . . هي نظرة تسمو بالانسان ، وترتفع بقدره ، وتعالى في قيمة عقله ، فتراه مستغنيا بهذا العقل عن أى شيء يعينه على كشف معالم الطريق ، بل ان العقل وحده مطالب بأن يكون دليل الانسان وهاديه ، فان ضل فان ذلك من تفریط صاحبه ، وعدم اعتداده به ، فان غرق صاحبه فالذنب ذنبه ، ولا يلومن الا نفسه . . وعلى هذا التقرير ، فانه لا ضرورة لمبعوث من السماء ، يحمل الى الناس شريعة من السماء

تقييم لهم ديننا ، وتحدد لهم سلوكا ، وحسب الناس في هذا أن يرجعوا الى عقولهم ، أو الى عقول من فيهم من قادة ، ومصلحين ، وفلاسفة . . منهم واليهم ، ومن الأرض ، وفي الأرض !

ومن أصحاب هذه النظرة أبو العلاء المعري ، الذى يقول في لزومياته :

أيها المغرور ان خصصت بعقل
فاسألنه ، فكل عقل نبي

هذا وقد تولد من هاتين النظرتين : المتشائمة والمتفائلة ، أو المتدلية والمنتشامخة ، نظرة أخرى ، ترى أن الانسان في حاجة الى هداية السماء ، والى تلقى ارشاداتها ونصائحها . . ولكن ذلك لا يكون عن طريق أحد من الناس . . لأن الناس على سواء ، ولا يصح أن تميز السماء بعضهم عن بعض ، وتفضل بعضهم على بعض ، فلما أن يكون اتصال السماء بهم جميعا ، واحدا واحدا على حد سواء ، واما أن يكون مبعوثها اليهم من عالم الملائكة . .

وقد كشف القرآن الكريم عن هذا اللون من التفكير الإنسانى في مواجهة الرسل ، وفي انكار الناس عليهم أن يكونوا بشرا مثلهم ، وذلك اما عن حسد للانسان أن يعلو على بنى جنسه ، واما عن استعلاء بالرسالة السماوية أن يحملها انسان . . وفي هذا يقول الله تعالى ، عن قوم صالح : **((ابشرا منا واحدا نتبعه ؟ انا اذا لفي ضلال وسعر ، ألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر))** (٢٤-٢٥ : القمر) . . ويقول سبحانه في قوم شعيب : **((قالوا انما أنت من المسحرين ، وما أنت الا بشر مثلنا ، وان نظنك لمن الكاذبين))** (١٨٥ - ١٨٦ : الشعراء) ويقول جل شأنه في فرعون وملائه : **((أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون))** (٧ : المؤمنون) ويقول سبحانه في كفار قريش : **((أكان للناس عجايبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون ان هذا لساحر مبين))** (٢ : يونس) . . ويقول تبارك اسمه في قوم نوح من قبل : **((ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا**

لخاسرون (٣٤ : المؤمنون) ، ويقول سبحانه عنهم أيضا : « ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لآنزل ملائكة » (٢٤ : المؤمنون)

وهكذا ينكر الناس أن يكون منهم رسول من الله اليهم ، ناظرين الى هذا الرسول بعين الحسد ، أو الاستصغار ، على حين تتطلع أنظارهم الى ملك من عند الله ، فهو الجدير بأن يكون رسوله اليهم ، وفي هذا يقول الله تعالى عن مشركى قريش : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » (٢١ : الفرقان) .

ولو وقع للناس ما يتمنون من أن يكون الرسول اليهم ملكا لما استقام للناس معه أمر ، ولا صلح بينه وبينهم شأن ، ولما وقع بينهم وبينه تفاهم .. انهم سيفتنون به ، ويذهلون عن رسالة ، والله سبحانه وتعالى يقول : « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » (الإسراء : ٩٥) وكيف يطمئن للملائكة مقام بين الناس ؟ ان الملك لا يمكن أن يظهر في الناس في أية صورة غير صورة الانسان ، والا كان مبعث فتنة لهم ، انهم سيتدافعون اليه تدافع الفراش الى ضوء الصباح ، يدور حوله دورة مجنونة الى أن يسقط نضبا واعياء ، أو يلقي بنفسه اليه فيحترق ! كذلك لا يستقيم أمر الناس مع الملك اذا جاءهم في صورة انسان ، انه لا يغير حينئذ من نفوس الناس شيئا مما عندهم من أمر الرسول البشر .. فهذا وذاك على سواء بينهم .. فالملك في حالته تلك ، انسان من الناس ، يرونه رأى العين ، في صورة بشرية لا تختلف عما يرونه من صور الآدميين ، فاذا قال لهم انه ملك رموه بما رموا به الرسول البشرى من انه ساحر ، أو مجنون ، أو مفتر كذاب ، الى غير ذلك من التهم التي يرمون بها الرسل .. وبهذا كان رد القرآن الكريم على هذا المطلب الغبى الأحمق الجهول .. « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، واللبسنا عليهم ما يلبسون » (٨ - ٩ : الانعام) .. أى انه لو جاءت رسل الله الى الناس من الملائكة لما جاءوهم الا في صورة بشرية ، لأن مجيئهم في صورتهم الملكية لا تحتمله

عقول الناس ، ومجيئهم في صورة بشرية لا يغير من الأمر شيئاً ، ولا يجعل لهم عند الناس شأناً غير شأنهم مع الرسل الآدميين ، ولوقع ابليس ، والشك ، والاثام ، الذى يلقون به رسل الله المرسلين اليهم من بينهم .

امكان اتصال الانسان بالعالم العلوى :

في ظل الايمان بالله ، لا يسأل المؤمن هذا السؤال : كيف يمكن أن يتصل انسان بالله ، ويتلقى كلماته الى الناس ؟ . . فذلك شأن من شؤون الله تعالى ، وأثر من آثار رحمته وقدرته ، وقول المؤمن بالله أمام كل خارق من خوارق الطبيعة هو : « ان الله على كل شىء قدير » .

ومع هذا ، فقد رد العقل المؤمن على من ينكرون امکان اتصال الانسان بالملا الأعلى ، وجاء الى هؤلاء المنكرين بالأدلة المادية المحسوسة التى يتعاملون بها فى الحكم على الأشياء .

فمثلاً ، نرى ابن خلدون وهو يريد أن يقيم الدليل على امکان اتصال الانسان بالملا الأعلى ، نراه يعقد فى مقدمته فصلاً ، يرتب فيه عوالم الوجود مراتب بعضها فوق بعض : الجماد ، فالنبات ، فالحيوان ، فالانسان ، فالملائكة . . وهو فى هذا الترتيب يضع على رأس كل عالم كأننا تتمثل فيه خصائص عالمه فى أعلى مقاماتها، حتى لتكاد تمس العالم الذى فوقها . . وهكذا تتصل العوالم بعضها ببعض ، فتكون منها وحدة وجودية ، فيها دليل على وحدة الصانع من جهة ، كما فيها امکان ترقى العوالم السفلى الى العالم الذى فوقها . . وهكذا . .

ان ابن خلدون يقيم هذا صرحاً من الأدلة على امکان الوحي ، واتصال السماء بالأرض ، عن طريق مخلوق أرضى ، هو قمة مخلوقات العالم المادى ، ومن هذه القمة يمكن أن يلبس السماء ، ويلمح أضواءها ، وهذا المخلوق ، هو الانسان ، الذى يضع قدميه على الأرض ، ويلبس برأسه السماء .

ومما يقوله ابن خلدون هنا : « ثم انظر الى عالم التكوين ، كيف ابتداء من المعادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، في هيئة بديعة من التدرج .. فأخر أفق المعادن — أى الجماد — متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش وما بذر له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان ، مثل الحلزون والصدف ، لم يوجد لهما الآن قوة اللمس فقط ، ومعنى هذا الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يكون أول أفق المدى الذى بعده » .. ثم ينتقل ابن خلدون الى عالم الحيوان .. فيقول :

« واتسع عالم الحيوان ، وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدرج التكوين الى الانسان ، صاحب الفكر والروية » .. ثم يعرض ابن خلدون بعد هذا أثر العالم العلوى في الموجودات كلها ، ويجعل لهذه الموجودات تحركا يتدرج بها من حال الى حال ، حتى تصل الى الانسان ، ثم يتدرج الى العالم الانسانى فى أفراده حتى يبلغ به نهاية الأفاق الذى يلامس فيه المأ الأعلى ، ویتھياً للانتقال اليه .. يقول ابن خلدون :

« فوجب من ذلك أن يكون للانسان استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة ، وقتا من الأوقات فى لحظة من اللحات ، وذلك بعد أن تكمل — أى النفس — ذاتها الروحانية » (١) .

وأيا كانت نظرة ابن خلدون هذه ، وأيا كان حظها من الصحة والصدق ، فإنها تنبئ عن حاجة الانسان الى قوة فوقه ، يتعامل معها ، ويفيد منها ، الأمر الذى تحقق من اتصال بعض الناس — وهم رسل الله — بالملائكة ، وتلقى ما ينزل الله تعالى عليهم من كلماته ، المحملة بالفيض العميم من الرحمة ، والاحسان .

فارسال الرسل من الناس بكلمات الله تعالى الى الناس أمر تقتضيه طبيعة الحياة البشرية ، وما يعرض لتلك الطبيعة من

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢ وما بعدها .

فساد ، كما يعرض للجسام من علل وأمراض .. فكان لابد من
 اساءة لتلك النفوس البشرية ، يكشفون عن أدوائها ، ويقدمون
 الدواء الناجع لها ، وذلك بما يتلقون من هدى السماء ، إذ هو
 الدواء لا دواء غيره اذا فسدت تلك النفوس ، بما تداعى عليها
 من علل .. انها نفحة لها من عند الله ، ولا دواء لها الا ما ينزل عليها
 من رحمة الله ، المحملة في آياته وكلماته المنزلة على رسله ..
 وفي هذا يقول الله تعالى عن آياته وكلماته المنزلة في كتابه : **« ونزل
 من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »** (٨٢ : الاسراء)
 ويقول تبارك اسمه : **« قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين
 لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من
 مكان بعيد »** (٤٤ : فصلت) .. فالرسل هم حجة الله على عباده
 كما يقول سبحانه : **« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »**
 (١٥ : الاسراء) وكما يقول تبارك اسمه : **« وان من أمة الا
 خلا فيها نذير »** (٢٤ : فاطر) .



رابعاً: الإيمان بكتبه

((قل يا أهل الكتاب .. هل
تنقمون منا الا أن آمننا بالله وما
أنزل الينا وما أنزل من قبل
وان أكثركم فاسقون)) .
(٥٩ : المائدة)

كانت دعوة رسل الله الى أقوامهم — قبل ابراهيم عليه السلام — دعوة محدودة في مضمونها ، مقصورة في الغالب منها ، على الايمان بالله ، ووصل الانسان بخالقه ، الذى يطلع على ما يعمل او يقول فى سر أو جهر .

ولهذا كانت كلمة الرسول الى قومه هى : ((**اعبدوا الله ،
مالكم من اله غيره**)) .. ولم يكن ذلك بالأمر الذى تقتضى كتابا
يجمع كلمات الله المنزلة على الرسول ، ويكون دستوراً للناس ..
لأن الرسالة كلها كلمة أو كلمات يغادى بها الرسول قومه
ويراوحهم ، فان أخذوا بهذه الدعوة ، وآمنوا بالله ، كان لهم
هذا الايمان زادا طيباً يعيشون به فى أمن وسلام ، فى هذه
المرحلة من الحياة البشرية التى كانت حياة فطرية ، أو أقرب
الى الفطرة ، لم تزدهم فيها مطالب الانسان ، ولم تتسع أمامه
آفاق الحياة ، ولم تتح له تلك التجارب والمعارف التى مكنت — فيما
بعد — من الدخول فى هذا الصراع الرهيب مع الوجود ، ومع كل
وجود ، ثم مع الانسان والانسان .

فلما تقدمت الانسانية في مجال الاحتكاك بالحياة وفي ميدان التنافس بين أفرادها وجماعاتها ، لم تعد الفطرة وحدها قادرة على أن تمسك بالناس على طريق الحق ، والعدل ، ولم تعد القوانين الوضعية التي اهتدى اليها الناس بالتجربة قادرة على تقييم في الناس وازعا يزعهم عن الزيغ والانحراف ، عندئذ تدخلت السماء برسالاتها ، وبشرائعها ، لتقيم فيهم هذا الوازع الذي تعجز القوانين الوضعية عن اقامته . . فكثرت الوصايا ، والأحكام التي حملها رسل الله الى أقوامهم ، وكان لابد أن تكتب في صحف وكتب ، حتى تكون مرجعا للناس يرجعون اليه . . وفي هذا يقول الله تعالى عن تلك الصحف الأولى : « **ان هذا لفي الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى** . . » . . وكان ابراهيم عليه السلام ، ومن بعده من رسل ، يتلقون من عند الله ما يتلقون من هذه الوصايا الى أن كانت شريعة موسى التي جمعت كثيرا من الوصايا التي سبقته ، مضافا اليها ما اقتضته الحياة التي أضاف اليهما الزمن كثيرا من المشكلات التي واجهت الانسان في تلك الفترة . . وحين جاء عيسى عليه السلام ، كانت مهمته هو أن يقيم شريعة موسى في نفوس بنى اسرائيل ، وقد عبثوا بهذه الشريعة ، ومكروا بها ، والقوا عليها ظلالات كثيفة من خبثهم وضلالهم . . فكانت رسالته في القوم أن يذل كبرياءهم ، ويقتل داء الغرور في نفوسهم ، وأنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله هو الههم من دون الناس جميعا . . ولهذا كان عنوان رسالته ، وملاك دعوته الى بنى اسرائيل هو : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومن نازعك قميصك فألق اليه رداك ! » . . وذلك هو الدواء المر اللاذع المرارة ، للاستشفاء من هذا الداء الخبيث القاتل ، المتمكن من بنى اسرائيل . . داء الكبر والغرور والحسد للناس جميعا أن يصيبهم شيء من فضل الله .

وتجىء الرسالة الخاتمة ، رسالة الاسلام ، ويجىء رسولها خاتم المرسلين ، محمد عليه الصلاة والسلام ، فنقول فيها النساء آخر كلماتها الى الناس ، وتتختم آخر وصاياها لهم ، حيث ضمت تلك الكلمات وهذه الوصايا على كل القواعد ، والمبادئ التي يجد فيها الناس كلمة الفصل فيما يختلفون فيه ، وفيما يأخذون

أو يدعون مما تقضى به الحكمة ، ويمليه العدل ، والخير والاحسان . . . في يوم الناس ، وفي غدهم القريب والبعيد الممتد ، الى أن يخلى الناس مكانهم من هذا الكوكب الأرضي .

ومن هنا كان من شريعة الاسلام ، الايمان بكل ما سبقها من شرائع سماوية ، ايماننا قائما على أن ما شرع الله تعالى للامم السابقة هو من شريعة الاسلام ، وأن ما أرسل الله تعالى به رسله هو مما اجتمع في رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا يعنى أن دين الله واحد ، وأن ما يحمل الرسل الى أقوامهم ، هو من هذا الدين ، دين الله ، الذى جاء على تمامه وكماله في رسالة الاسلام : كما يقول الحق تبارك وتعالى : « **أن الدين عند الله الاسلام** » (١٩ : آل عمران) .

والقول بأن رسالة الاسلام ، هى الرسالة الخاتمة الجامعة ، وأن رسولها هو جامعة الرسل وخاتمهم — هذا القول يحتاج الى دليل عقلى ، ما دمنا قد جعلنا العقل هو الحكم فيما نعرض له من قضايا هذا البحث .

ونقول : ان هذا أمر لم نغفل عنه ، واننا اذ نقرر هذا في تلك المرحلة من البحث ، فانما لانجعله حكما قاطعا . ندعو الى التسليم به ، وانما يرضينا ممن ينظر في هذا البحث بعقله ، طالبا الحق راغبا في التعرف عليه ناشدا الافاق التى يطالع منها — يرضينا منه أن يضع هذا القول موضع الفرض ، وأن يخطو بعد هذا الى حيث يجد من الأدلة والبراهين ما يكشف له عن يقين يطمئن اليه ، سواء اكان هذا اليقين ، ايجابا أو نفيا ، تقبولا أو رفضا .

واذا فلنفترض أن رسالة الاسلام هى الرسالة الخاتمة ، وأن كتابها هو المصدق لما سبقته من الكتب السماوية والمهيمن عليها ، ثم ان لك أن تطالبنا بعد هذا بالدليل العقلى على صحة هذا الفرض .

ونقول أن بين أيدينا من الأدلة ما لا نحصيه عدا ، وما لا يتسع له هذا البحث الذى نريده موجزا من جهة ، كما نريده من جهة

أخرى .. مجرد دليل ، يفتح الطريق لطالب الحق ، وينصب له بعض المعالم عليه ، ثم يترك للعقل مجالا للنظر ، والبحث ، والاجتهاد ، وان كنا نود مخلصين ، لو أخلينا بين العقل وبين هذا الفرض ، يقلبه كيف يشاء ، ويقيمه على الوجه الذى يراه ، ولكننا نشفق على كثير من طلاب الحقيقة ، وخاصة الناشئين ، الذين يقفون على شاطئها ، وفي قلوبهم أشواق عارمة الى احتوائها ، وهم بعد لم يتعلموا السباحة ، ولم يحسنوا العوم ، الأمر الذى ان تركوا فيه وشأنهم كانوا بمضيعة لا قدرة لهم على دفعها .. فان تقدموا غرقوا ، وان وقفوا أمضهم الوقوف ، واستبدت بهم الحيرة ، وقتلهم اليأس ، وكانوا فريسة دائية من يد الشيطان ، وأشياع الشيطان ! ..

واذن فلنجمل القول فى عرض الأدلة العقلية على ما ندعى لكتاب الاسلام ، من هيمنة ، وصدق ، وعموم .. هيمنة على الكتب السماوية السابقة ، وصدق بأنه من عند الله ، وعموم بأنه للانسانية كلها منذ نزل من السماء على رسول الله ، الى يوم يقوم الناس لرب العالمين ..

فأولا : ما ثبت ثبوتا قاطعا شهدته الحياة ، وشهد به أعداء هذا الكتاب من اعجازه اعجازا مطلقا ، لأصحاب اللسان الذى نزل به القرآن .. وهم أرباب الفصاحة والبيان ، وأقدر الناس وأقواهم فى هذا الميدان ، ميدان التحدى ، فلم يجروا أحد منهم ، من شاعر أو خطيب أن يقوم لهذا التحدى ، وأن ينازع القرآن سلطانه القاهر ، الذى اذل كبرياءهم ، ومرغ أنوفهم فى الرغام ، وهم أصحاب الأنفة والحمية ، وأيثار الموت على اعطاء الدنية والفرار من المعركة مهما تكن قوة الخصم وكثرة رجاله ، وقوة سلاحه .

وليس هذا التحدى مجرد كلمة عارضة ، أو موقفا محدد الزمان والمكان ، والناس .. وانما هو دعوة مطلقة من كل قيد فى الزمان أو المكان أو الناس .. ولهذا كانت تلك الدعوة بعضا من القرآن الكريم ، لا يتم الا بها ، قائمة بقيامه ، خالدة بخلوده .. وذلك ليقوم منها داع يدعو كل من يتصل بهذا الكتاب أن يقف عند هذا

التحدى ، وان يحاول بكل ما يستطيع أن يختبر نفسه ازاءه ، فان عجز — وهو لا محالة عاجز — فلا عليه من ذلك بأس ، فما هو الا انسان واحد ، يضاف الى اجيال الانسان كلها التى سبقه ، والتى ستجىء بعده ، فى عجزها ، واستخذاؤها امام سلطان هذا الكتاب وسطوته .. ان ذلك حكم سماوى قاهر ، وقدر الهى غالب محيط بالناس جميعا ..

لقد كانت آيات التحدى تفرع أسماع العرب ، وهم يشغبون على القرآن ، ويتصدون لدعوته ، فيولون بين يديه مدبرين مذعورين ، يصيحون صيحات المجانين ، ويهزون هذيان المحمومين ..

فاذا جاءهم القرآن الكريم قائلا : **« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين »** (البقرة : ٢٣) .. لم يكن لهم من عزاء ازاء خزيمهم المفضوح الا ترداد مثل هذه المقولات التى أخذها القرآن من أفواههم : **« ان هذا الا سحر يؤثر »** (المدثر : ٢٤) .. **« لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الأولين »** (الأنفال : ٣١) **« انما يعلمه بشر »** (النحل : ٣) .. **« أساطير الأولين اكتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »** (الفرقان : ٥) .

ولقد وقف الرسول الكريم أكثر من عشر سنين بمكة ينتظر من المشركين أن يقوم منهم مدع يدعى أنه أتى بالسورة التى يتحدى بها دعوى القرآن ، فلم يقم منهم أحد ، حتى ولو كان على سبيل المكابرة والمدارة لهذه الكبرياء الجريحة .. فلما أوشكت الدعوة أن تتحول برسولها من مكة الى المدينة ، نزل هذا الاعلان العام ، يحمل التحدى المطلق ، لا للناس وحدهم بل ولعالم الجن معهم ، فقال تعالى : **« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »** (الاسراء : ٨٨) .

وهنا يقوم مع اعجاز القرآن شاهد منه على صدقه ، وأنه من عند الله ، اذ ما زال هذا التحدى قائما على الناس جميعا ،

مع ما لبسوا في الحياة من ألوان العلوم والمعارف ، ومع ما حصلوا من علم ومعرفة ، ومع ما دخل على اللغة العربية من مختلف الثقافات ، وما أثمرت العقول العربية من ثمرات ، في الأدب والفن والعلم ، والفلسفة ، وما أخرج العلماء من موسوعات الكتب في مختلف العلوم والفنون . . فان كل هذا الحصاد الذي تحويه المكتبة العربية ، قديما وحديثا ، مخطوطا ومطبوعا ، ليقف بين يدي القرآن الكريم ، موقف الحصاد الملقى تحت سفح جبل شامخ يطاول السماء !

وثانيا : مع ايماننا بأن القرآن الكريم ، لم يكن كتابا علميا يحمل بين يديه مقررات في قضايا العلم ، يكشف بها عن أسرار الطبيعة للناس ، ويضع بين أيديهم حلول كل مشكلة في هذا الصراع القائم بينهم وبين ما خبأت الطبيعة في صدرها من كنوز ، فذلك أمر لم يكن من تدبير هذا الدين ولا من شرعه الحكيم أن يفعله . . إذ أنه لو فعله لكان مما يترتب عليه ، أن تعطل وظيفة العقل ، وأن تقتل فيه نوازع حب الاستطلاع ، والكشف عن المجهول ، والبحث الدائب بمجهوده الذاتي وراء أسرار الطبيعة ، وقهرها ، والتسلط عليها ، ولفقد الإنسان بهذا وجوده الكريم الذي استحق به أن يكون أهلا لخلافة الله على هذا الكوكب الأرضي ، ولأصبح شيئا من أشياء هذه الأرض ، الساكنة أو المتحركة فيها . . ثم من جهة أخرى يصبح هذا الكتاب مجمدا ، لا يستطيع التحرك وراء الحقائق العلمية التي ضم عليها ، شأنه في هذا شأن كل كتاب علمي ، يمتص الناس الذين يستقبلونه لأول مرة كل عصارة فيه ، ثم يطرحونه وراءهم ، لا يكادون يلتفتون اليه ، ولا يكاد من بعدهم ينظر فيه ، وهو مشغول بالعلم الجديد الذي ولد بعد هذا العلم . . وليس هذا شأن كتاب أرادته الله تعالى ليكون مبعث هدى ونور ، ومائدة غذاء دائم للعقول والقلوب ، على امتداد الحياة الانسانية . . ولهذا كانت آيات هذه الكتاب محملة بهذا الانشعاع الرباني الذي لا يخبو أبدا ، والذي كلما ورد عليه الانسان وجد خيرا جديدا ، وزادا عتيدا ، لمدركاته ، ومشاعره .

نقول مع ايماننا بأن القرآن الكريم لم يكن كتابا علميا ، فانه قد تحدث كثيرا عن الطبيعة ، ومظاهر الكون ، في الأرض وفي

السماء لتوجيه الأنظار إليها ، ولتفت العقول نحوها ، ليشهد الإنسان في هذا الوجود عظمة خالقه وقدرته ، ويرى في عوالم الكون آيات من علم الله وقدرته ، وذلك لا يكون إلا اذا وقف الإنسان ازاء هذا الكون وقفة الباحث الدارس المتأمل ، حيث تؤدي به هذه الوقفة الى كشف أسرار تغريه بمتابعة السير في هذا الطريق المليء بالعجائب والفرائب ، وفي هذا يقول الله تعالى : **« ان في ذلك لآية للمتوسمين »** (٧٥ : فاطر) .. والقرآن الكريم اذ يلفت الأنظار الى بعض مظاهر الوجود معروضة في هذا الاطار الفنى ، وفي ذلك الأسلوب الذى يهز المشاعر ، ويثير الوجدان ، البعيد عن التقرير والتلقين — فانه في هذا العرض يمسك بالحقيقة من جوهر الشيء المعروض ومن صميمه ، بحيث اذا استطاع الانسان في يوم ما أن يصل الى معرفة هذا الشيء والى الكشف عن المجهول منه ، وجد مصداق ذلك فيما جاء به القرآن الكريم في عرضه له .. ولا نستكثر من ضرب الأمثال لهذا ، وحسبنا أن نشير الى قوله تعالى : **« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل »** (٥ : الزمر) .. ففى هذا توجيه للنظر الى قدرة الله تعالى ، في تناسخ الليل والنهار ، وفي اقتسامهما الزمن بينهما ، فلم يكن الزمن على هذه الأرض نهارا سرمدا ، أو ليلا أبدا .. **وذلك تقدير العزيز العليم ، حتى تصلح حياتنا على هذه الأرض .. « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون .. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »** (٧١ — ٧٣ : القصص) .

هذا ما يبدو في ظاهر الآية الكريمة : **« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل »** وهو المقصد الأول لمواقع العبرة والعظة منها .. ثم اذا كشف العلم — وذلك بعد نزول هذه الآية بعدة قرون — أن الأرض كروية الشكل ، وليست مسطحة كما كان ذلك واقعا في مدارك الناس يومئذ ، ثم اذا أعيدت تلاوة الآية الكريمة ، مضاحبة لهذا العلم الجديد من كروية الأرض ، وجد أن للفظ

القرآنى : « يكور » معنى مقصودا يراد به أن الليل يأخذ شكل نصف الكرة حين يغطى النهار ، وأن النهار يأخذ شكل نصف الكرة أيضا حين ينسخ الليل . . وليس معنى هذا أن القرآن الكريم أراد أن يكشف للناس عن هذا العلم ، الذى ترك للناس أنفسهم أن يكشفوه ان استطاعوا ، ليكون ثمرة سعيهم وعملهم ، وإنما الذى كان من القرآن هو أنه نطق بالحق ، وصور الواقع ، وجمع فيه بين الظاهر الجلى ، والباطن الخفى ، بحيث اذا انكشف هذا الباطن لم يقع بينه وبين الظاهر تناقض . . وهذا لا شك وجه مشرق من وجوه اعجاز القرآن الكريم .

وثالثا : هذا السلطان القائم بين يدى كل آية من آيات القرآن الكلم ، ومع كل كلمة من كلماته ، بحيث لا يستطيع أحد أن يبدل كلمة من كلماته ، أو يغير وجه آية من آياته . . لا لأنه حفظ فى الصدور ، أو كتب فى المصاحف ، فذلك مهما يبلغ من الحرص ، والحيطة ، لا يعطى أى كلام هذه الحصانة المطلقة ، ولا يدفع عنه مكابرة المكابرين ، وادعاء المدعين ، وخاصة فى مقام الخصومة واللجاج ، وفى طلب الغلب بكل سلاح من أسلحة الزور والبهتان .

ولقد اختلف المسلمون منذ اليوم الأول لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحاقه بالرفيق الأعلى ، ابتداء من ردة المرتدين ، وتنبؤ المنتبئين ، أول خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، الى مقتل عثمان ، الى حرب على كرم الله وجهه لأصحاب الجمل ، الى حربه معاوية ، والخوارج ، ثم الى فرق الخوارج ، والمعتزلة ، والشيعية .

وكل فرقة من هذه الفرق ، وكل جماعة من تلك الجماعات تدعى لها فى الاسلام دعوى ، وأنها هى المسلمة ، وما عداها خارج عن الاسلام ، وعلمائها وخطبائها يأتون على ذلك بالحجج والبراهين المؤيدة لدعواهم بالحق وبالباطل ، وكلهم يرجع الى كتاب الله ، ويستشهد بآياته ، ويتأولها تأويلا فاسدا أو صحيحا . . ومع هذا فما جرؤ أحد حتى من تلك الفرق المارقة أن يتلو آية على غير وجهها ، أو أن يبدل حرفا أو كلمة فيها ، حتى لكأن قوة قاهرة تأخذ عليه لسانه ان هو تحرك بكلمة مفتراة يدخلها

على كلام الله ، لينتذ بها موقفا حرجا يقفه مع خصومه ، أو ليسند بها حجة واهية بين يديه .

ومع كثرة ما افترى المفترون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولوا عليه ما لم يقله لينصروا قضيتهم الخاسرة ، وليكسبوا دعواهم الباطلة — فان القرآن الكريم ظل بمنأى عن الافتراء ، والكذب ، وعن الكيد والدس .. وذلك لأن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما علا وسما هو كلام بشر ، يمكن ان يدخل عليه من الكذب ، ما ينخدع به كثير من الناس الذين لا يميزون معادن الكلام ، ولا يفرقون بين الذهب ، وما موه بالذهب! .. أما القرآن الكريم ، فهو كلام الله ، الذى لا يمكن أن يطاوله كلام ، أو أن يدخل الى ساحته ما ليس منه ، اذ سرعان ما يفضح كما يفضح الحما بين أكرم الجواهر .. ولهذا حذر النبى صلى الله عليه وسلم من الكذب عليه ، وتوعد الكاذبين عليه بالعذاب الاليم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار » .. على حين لم ينبه الرسول الكريم من الكذب على كتاب الله ، ولم يتوعد عليه ، لعلمه صلى الله عليه وسلم أن الكتاب الكريم فى حراسة ذاتية من أن يدخل عليه كذب ، أو يندس فيه افتراء .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى فى وصفه لكتابه الكريم : « **وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد** » (٤١ — ٤٢ فصلت) .. وقد صدق الله تعالى وعده ، وحفظ كتابه ، فلم يأت به باطل فى زمن نزوله ، ولا فيما جاء بعد ذلك أو يجيء من أزمان ..

ذلك هو كتاب الله ، الذى بين أيدينا ، لم يتبدل منه حرفا ، ولم تتغير منه كلمة .. وذلك هو اليقين الذى يجده كل منصف طالب للحق .. فمن وقع فى نفسه شك — أى شك — من هذا — فدونه كتاب الله ، ينظر فيه آية آية ، وكلمة كلمة ، وحرفا حرفا ، فان عثر على ما يقيم هذا الشك فى نفسه ، فخير له أن يعتزل كتاب الله ، وأن يولى وجهه الى حيث يشاء .. « **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** » (٤٠ : النور) .



خامسًا: الإيمان باليوم الآخر وما يتصل به من بعث وحساب وجنة ونار

« ذلك الكتاب لا ريب فيه
هدى للمتقين • الذين يؤمنون
بالغيب ويقيمون الصلاة ومما
رزقناهم ينفقون ، والذين
يؤمنون بما أنزل اليك وما
أنزل من قبلك وبالأخرة هم
يوقنون • أولئك على هدى
من ربهم وأولئك هم المفلحون»

(٢ — ٥ : البقرة)

قليل من الناس أولئك الذين يرحلون عن هذه الحياة الدنيا ،
دون أن تنازعهم أنفسهم الى التعلق بها والحنين اليها ، مهما
كان سوء حظهم فيها ، وشقاؤهم بها ••

الناس جميعهم — الا هذه القلة القليلة — يتعلقون بالحياة
راغبون في المزيد من البقاء فيها ، ولو أخذت منهم الأيام ، وألحت
عليهم العلل ، وحطمتهم السنون ••

فحب البقاء طبيعة كل حي ، وهو في الانسان طبيعة و ارادة معا .. طبيعة تدفعه الى حفظ نفسه ، بالابقاء على ذاته أطول عمر ممكن ، و ارادة تخلقت في الانسان من اتصاله بالحياة ، واختلاطه بالاحياء ، وانفساح آماله بينهم ، وامتداد آثاره فيهم .

والموت هو الذى يقطع على الانسان حبل هذا الرجاء ، ويقتل في نفسه كل دواعى هذا الأمل في امتداد الحياة الى غاية لا نهاية لها .

ومع هذا ، فقد رفض العقل الانسانى منذ أول مرحلة من مراحل تفكيره أن يجعل الموت خاتمة نهائية لحياة الانسان .. وقد اتخذ لذلك عدة أساليب ، يخفف بها من سطوة العدم الذى يخيل اليه أنه سيحتويه بعد الموت .. فأقام المقابر لموتاه ، وسعى اليهم في أوقات مختلفة ، يناجيهم ، ويبيثهم ما بصدده من حنين وأشواق ، حتى لكأنهم في سفر قد طال وهو ينتظر عودتهم ، ولقاءهم بعده .. ثم حول المقابر وعليها ، أقيمت التماثيل للموتى وتليت الأدعية ، وقدمت القرابين ، ليجد الميت في ذلك ما يهنأ به ويستريح اليه .

وهكذا ، أقام العقل الانسانى حياة — على أية صورة — في عالم الموتى .. ولم يؤمن العقل أبدا بأن وراء الموت هذا العالم الذى يلفه العدم المطلق ، كما يتوهمه الماديون الذين عرفهم الناس جيلا بعد جيل .

ولقد كان أهم ما ميز دين المصريين القدماء ، هو فكرة الخلود ، ووصل الانسان بعد الموت بحياة جديدة ، وتلك الفكرة هى جرثومة التفكير التى تخلقت منها الديانة الفرعونية ، والتى قامت في ظلها حضارة الفراعنة .

وقد تنقلت هذه الفكرة في الانسانية ، وصحبت أطوار طفولتها وصباهها ، وشبابها ، وكهولتها ، وتخلق من كل أولئك صور وأشكال للخلود ، بعضها ساذج يثير الضحك المشوب بالعطف والألم معا ، على أولئك الذين قدموا أنفسهم قربانا وثمنا للخلود ،

وبعضها ذكى عبقرى يكشف عن عظمة الانسان ، واستئهاه للخلود .

ثم جاء دور الديانات السماوية ، فالتقت مع ذكاء الانسان وعبقريته ، وكشفت له عن حقيقة هذا الخلود الذى وقع فى تفكيره ، واستقر فى ضميره ، ولكنه لا يجد له الدليل الذى يقيمه مقام اليقين فى كيانه ، فجاءته كلمات السماء بالبيان المبين عن الحياة الآخرة ، وما فيها من حساب ، وثواب ، وعقاب ، وجنة ونار .

فانديانات السماوية كلها تحمل الى الناس عقيدة البعث والحساب والجزاء ، وتجعل الايمان بهذه العقيدة مقرونا بالايمان بالله ، ومكملا لهذا الايمان .

واتباع الديانات السماوية الثلاث اليوم ، الموسوية ، والعيسوية والاسلامية ، يؤمنون بالحياة الآخرة ، وبالحساب ، والجنة والنار ، ولكن مع اختلاف فى المفاهيم والتصورات .. كما سنرى بعد .

فى الديانة الموسوية :

يشك المؤرخ والعالم الموسوعى الكبير — ول ديورانت — فى صحة التوراة ، ويرى أن أهواء اليهود قد لعبت بها ، فجعلت من أسفارها سجلا للأحداث التى مرت بهم ، فكان كل سفر ، يحمل طابع العهد الذى دون فيه ، مصطبغا بما فى نفوس أبناء هذا العهد من بؤس ونعيم ، أو هزيمة وانتصار .

يقول « ول ديورانت » : وكان سبب كتابة التوراة ، أن الشعب شرع يرتد عن عبادة « يهوه » الى عبادة الالهة الأجنبية .. فأخذ الكهنة يتساءلون : ألم يأن لهم أن يتفوا وقفه قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القديمة ؟

« ورأوا الأنبياء (١) يعزون الى «يهوه» ما يجيش في صدورهم من عواطف يؤمنون بها ، ويعتقدونها .. فاعتزموا — أى الكهنة — أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه ، في صورة سنن الهيئة تبعث النشاط والقوة في حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معاونة الأنبياء .. وسرعان ما ضموا الى جانبهم الملك « يوشيا » .

« فلما كانت السنة الثامنة من حكم يوشيا أبلغه الكاهن « حلقيا » أنه وجد في سجلات الهيكل ملفا عجيبا قضى فيه موسى نفسه على جميع المشكلات التاريخية والخلقية التي كانت مثار جدل عنيف بين الكهنة والأنبياء ! ..

« وكان لهذا الكشف أثر عظيم في نفوس القوم ، فدعا «يوشيا» كبارهم الى الهيكل ، وتلا عليهم سفر الشريعة في حضرة آلاف من الشعب ، ثم أقسموا ليطيعن من ذلك الوقت ما جاء في هذا السفر ! » (٢) .

ثم يقول « ول ديورانت » :

« وكما ظهر حلقيا في الحركة الأولى ، ظهر « عزرا » في عام ٤٤٤ ق . م ، ودعا اليهود الى اجتماع عام وخطير ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار الى منتصفه « سفر شريعة موسى » وظل هو وزملاؤه سبعة أيام كاملة يقرعون ما تحويه ملفات هذا السفر ، ولما فرغوا من قراءتها ، أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يعظموا هذه الشرائع .

« وظلت تلك الشرائع من تلك الأيام النكدة الى يومنا هذا المحور الذى تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تقيدهم بها طوال

(١) يجب الاتفهم كلمة الانبياء هنا على المعنى الاصطلاحى لها ، فلقد كثر في بنى اسرائيل ظهور المنتبين ، من أصحاب الحماس الدينى الذين ذهب بهم هذا الحماس الى ادعاء النبوة ، ليكون لهم سلطان مؤثر في الناس .

(٢) قصة الحضارة جزء ٢ / ص ٢٥٦ .

تجوالهم ومحتهم ، من أهم الظواهر في تاريخ العالم (قصة الحضارة : جزء : ٢ ص ١٩٦) .

ثم يسأل ولي ديورانت :

« كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتب ؟ »

ويجيب على هذا فيقول :

« وذلك سؤال برىء ، لا ضير منه ، ولكنه سؤال كتب في الإجابة عليه خمسون ألف مجلد . . ويجب أن نفرغ منه في فقرة واحدة ، نتركه بعدها من غير جواب » .

يشير بذلك الى أن هذه الخمسين ألف مجلد لم تعط جوابا على هذا السؤال : كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتبت ؟

وسؤالنا هو : ماذا في هذه الشريعة التي بين يدي اليهود عن الحياة الآخرة ؟

ويجيب ول ديورانت على هذا السؤال بقوله :

« لم يكن في هذا الدين — أى شريعة موسى — جحيم يخصص لعقاب المذنبين ، ولكن « شيول » أو أرض الظلام ، التي تحت أرض لم تقل هولا عن الجحيم ، وكان يلقي فيها الموتى جميعهم ، الطيب منهم والخبيث . .

ثم يقول « ول ديورانت »

« على أن اليهود قلما كانوا يشيرون الى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود ، وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا . . ولم تدر فكرة البعث في خلد اليهود الا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض » (قصة الحضارة : جزء : ٢ ٢٤٥) .

واذن فكل ما عند اليهود عن الحياة الأخرى لم يكن الا وليد
يأسهم من مكان كريم في هذه الدنيا .. ولو وجدوا هذا المكان
لكان لهم في الحياة الأخرى نظر آخر !! ..

في المسيحية :

لم يواجه المسيح — عليه السلام — قضية البعث والحساب
والجزاء مواجهة صريحة ، ولم يحاول أن يجعل منها مجالا
للبحث والتقرير ، لأنه لم يكن من همه أن يقرر عقيدة أو يشرح
شريعة .. فالمسيح انما أرسل الى بنى اسرائيل أو خرائف اسرائيل
الضالة ، كما كان يقول ، وقد جاء الى بنى اسرائيل ، ليتمم
الناموس ، أو الشريعة ، وليقيم القوم على الطريق المستقيم
الذى تنكبوه ، ولينزع تلك القسوة التى تمكنت من قلوبهم ،
فاغتالت منها عواطف الرحمة والحب ، وملاها ضغينة وحقدا ،
وعداوة للانسانية كلها ..

كانت مهمة المسيح عليه السلام ، حيال هذا القطيع المعربد ،
— كما كان يقول عنهم — أن يبعث الى هذه القلوب الصلدة المتحجرة
قطرات من عواطف الحب والرحمة والاخاء .. أما الاله فانهم
يعرفونه ، ولكن لا يتعاملون معه ، وأما البعث والجزاء والجنة
والنار ، فانهم على علم بها ، ولكن بلا عمل لها ولا احساس
بها .. ومن أجل هذا كان ما يذكره المسيح عن الله ، وعن البعث ،
وعن الحساب والجزاء ، تذكيرا ، وتخويفا من المصير البئيس
للذين لا يؤقرون الله ، ولا يعملون له حسابا ..

يقول السيد المسيح في بعض عظاته : « لا تخافوا من الذين
يقتلون الجسد ، ولكن النفس لا يقدر أن يقتلوا ، بل خافوا
بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم »
(انجيل متى : الاصحاح العاشر) .

ويقول : « يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون فى ملكوته
جميع المعثر ، وفاعلى الاثم ، ويطرحونهم فى أتون النار .. »

هناك يكون البكاء ، وصرير الأسنان .. حينئذ يضحى الأبرار
بالشمس في ملكوت أبيهم .. من كانت له أذنان للسمع فليسمع ،
(انجيل متى : الاصحاح الثالث عشر) .

البعث في الاسلام :

أولى الاسلام قضية البعث اهتماما خاصا ، اذ كان البعث
مضلة للكثير من الضالين ، لما وقع في تصورهم من استحالة
أن يعود الانسان الى الحياة مرة أخرى بعد أن تذهب معاله في
الارض ، ويصبح ترابا من ترابها .. بل ان كثيرا من المشركين
كانوا على استعداد لأن يؤمنوا بالله وحده ، وأن يطرحوا هؤلاء
الشركاء الذين اتخذوهم معبودين مع الله ، ليكونوا شفعاء لهم
عنده ، على حين أنهم لم يكونوا مستعدين بحال الى الايمان
بالبعث بعد الموت ، ومن ثم كان تكذيبهم للنبي اذ جمع في دعوته
اياهم الى الايمان ، بين الايمان بالله ، والايمان باليوم الآخر .

ولهذا ، لم يذكر القرآن الكريم عن المشركين ما كان من
اعتراضهم على الايمان به واحد ، ما ذكره عنهم في كثير من
المواضع من انكارهم للبعث .

فاذا ذكر القرآن عنهم في انكارهم لوحداية الله قولهم : « اجعل
الالهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب » (٥ : ص) .

وقولهم : « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن . قالوا وما الرحمن؟
انسجد لما تأمرنا .. وزادهم نفورا » (٦٠ : الفرقان) .

— اذا ذكر القرآن عنهم وجها واحدا لاعتراضهم على وحدانية
الله ، ذكر عنهم ألوانا من الجدل ، وصورا من الاحتجاج على
استحالة البعث ، وذلك كما في قوله تعالى على لسانهم : « وقالوا
انذا ضللنا في الأرض اننا لفي خلق جديد » (١٠ : السجدة) .

وقولهم : « **أَذَا مِنَّا وَكَمَا تَرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** » (٤٩ : الإسراء) .. وقولهم : « **هَلْ نَدَلِكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْبَغُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مِمزَقِ أَنْكُمْ لَفَى خَلْقٍ جَدِيدٍ** » (٧ : سبأ) .. الى كثير من مئات الآيات التي تعرض أقوال المشركين في البعث ، وترد على هذه الأقوال ، وتنقضها ، وتسفه أحلام الذين يرددونها .

ولهذا لم يقبل الاسلام ايمان من لا يؤمن بالله ، ثم لا يؤمن باليوم الآخر ، ولا بقاء الله ، ولا بالوقوف بين يديه ليحاسب عما عمل في الدنيا ، وليلقى جزاء ما عمل من خير أو شر .
وليس البعث ل مجرد البعث ، وانما هو للحساب والجزاء ، والجنة أو النار .

ما الحياة الدنيا في شريعة الاسلام الا معبر الى الآخرة ، والا امتحان للانسان ، يكشف فيه عن جوهره ، ويخرج الثمر الطيب أو الخبيث منه .. وهذا الثمر هو زاده الى الحياة الآخرة ، فان تزود في دنياه بالأعمال الطيبة الصالحة ، وجد في الآخرة الحياة الطيبة الصالحة ، وأن تزود بالخبيث الكريه ، وجد هناك الحياة الخبيثة الكريهة .

الجنة في الاسلام :

وهذا أمر نحب أن نقف قليلا عنده ، وهو أن كثيرا من المظلمين ، قد عابوا الجنة التي وعد الله المتقين من عباده على الوصف الذي وصفها القرآن الكريم به ، واتخذوا من هذا ذريعة للطعن في القرآن ، وفي شريعة القرآن ، وأنه لو كان من عند الله ، لما جاء بالجنة على تلك الصورة ، التي تداعب خيال سكان البادية ، وتترضى نفوسهم المحرومة ، وبطونهم الجائعة ، بهذه الوعود ، أو بتلك الأحلام ، التي تمد لهم فيها موائد الطعام ، عليهمايشتهون من فاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ومن لحم طير ، وكنوس خمر ، فاذا ما أكلوا هنيئا وشربوا مريئا ، أنتقلوا من هذا الى سرر

مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، « يطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا » .. ثم مالوا الى حور مقصورات في الخيام ، متكئين على فرش بطائنها من استبرق .. أما لباسهم فمن سندس واستبرق ، وأما حلبيهم فأساور من ذهب ..

وفي تلك الجنة أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين .. وفي الجنة جنات تجري من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ! ..

هذا ، وكثير غيره مما ذكر القرآن الكريم من نعم أهل الجنة ، قد كان عند أهل الزيغ والضلال مادة استهزاء وسخرية « الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

فالشريعة الاسلامية عند هؤلاء الضالين المضلين ، شريعة ، تتملق الجانب « الحيوانى » فى الانسان ، وتقوده الى الاسلام من مقود شهوة الجسد ، وغريزة الحيوان ، وهى من أجل هذا أباحت تعدد الزوجات ، كما أباحت الطلاق .. ثم انها اذا لم يكن فى يدها ما تقدمه لأهلها فى هذا المكان الجديب من الأرض ، مما هم محرومون منه من طيب الطعام ، ولبن الكساء ، وبارد الماء ، ووارف الظل — أحالتهم الى عالم آخر ، يجدون فيه كل ما يشتهون ، وفوق ما يشتهون .. والمحروم أشبه بالفريق ، يتعلق ولو بخيط العنكبوت !

ولا نتحدث هنا عن تعدد الزوجات ، وضوابطه وحكمة ، ولا نتحدث عن الطلاق ، ودواعيه وحدوده .. فذلك له موضعه من هذا البحث .

أما هذا النعيم المسمى ، الذى يجده المؤمنون فى الجنة ، فانه ان لم يكن كل مطلوب الانسان ، أو ان لم يكن مطلوب كل الناس — فانه ليس كل ما فى الجنة ، بل ان هذا هو قليل قليل مما فيها ، مما كانت تطلبه بعض النفوس فى الدنيا ، ولا تجد

سبيلا اليه ، فماتت على هذا الحرمان منه ، فكان من تمام نعيمها أن تنال ما كانت تشتت فيه ، وترغب فيه .. ثم ان لها بعد ذلك من ألوان النعيم « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .. وهذه صورة نجدها في ساكن الريف والقفار ، يسمع عن أطعمة ينال منها سكان المدن ، فاذا جاء الى المدينة كان أول ما يتمنى الحصول عليه أن يشبع من جوع ، وأن يرتوى من ظمأ ، فاذا شبع وروى تطلع الى قطعة لحم ، أو رغيف نظيف من بلباب « القمح » .. ثم لا يزال يتنقل شيئا شيئا ، ويتبدل طعاما بطعام ، ولباسا بلباس ، ومنزلا بمنزل حتى يتمنى أن يكون من أصحاب القصور العامرة ، والمركبات الفاخرة ، والخدم من الجوارى والغلمان ..

ثم الى من نتحدث بهذا الحديث دفاعا عن جنة الاسلام ؟ أالى الماديين ، وحياتهم كلها مشكلة من مادة غليظة ، دونها مادية الحيوان ، وحتى ليأكل أحدهم ما يشتهي ، ثم يقىء ما أكل ليأكل .. ثم يأكل ويقىء مرات ، وهو لا يريد أن يرفع رأسه عن الطعام والشراب ؟

ومن عجب أن يكون في اتباع المسيح — عليه السلام — من يلقى على الاسلام هذا البهتان ، ويروج له ، ويتخذ منه مقولة باطلة على الاسلام بأنه دين مادي دنيوى ، ينقل أتباعه من الدنيا الى صورة أخرى منها ..

فالديانة المسيحية على الرغم من أنها تلبس لباس الروحية ، نجدها تعرض صورا حسية من نعيم الجنة مثل تلك الصور التي جاء بها القرآن ، سواء بسواء .

فلقد ذكر السيد المسيح ، لتلاميذه أنهم سيشرّبون معه من خمرة ابنة العنب في ملكوت السموات ، فيقول لهم : « انى لست شرابا من ابنة هذه الكرمة ، حتى أشربها معكم تارة أخرى في ملكوت السموات » (انجيل متى : الاصحاح : ٢١) .. فأخبر السيد المسيح أن في الملكوت الأعلى شرابا وشرابين ، وحيث يكون شراب ، يكون أكل ، وفي هذا يقول : « ستأكلون وتشرّبون على مائدة أبى »

(أنجيل متى : ٢٢) وهناك الى جانب المأكل والمشرب غرفات
لأهل الجنة على نحو ما ذكر القرآن .. يقول السيد المسيح :
« ما اكثر الغرفات والمسكن عند ابي ! » (أنجيل متى ١٤٠) .

فالقرآن الكريم اذن لم يكن بدعا بين الكتب السماوية ، فيما
جاء فيه من اوصاف واصناف هذا النعيم لأهل الجنة !

فلم اذن تتهم الشريعة الاسلامية بأنها شريعة الجسد ؟ وبأنها
الشريعة التي تغرى أتباعها بهذه الألوان من الطعام والشراب
واللباس ، التي يسيل لعابهم لها ؟

انها تهمة ظالمة ، باطلة ..

ظالمة ، لأنها تتجه الى الاسلام وحده ، دون الشرائع والديانات
التي تقول بما يقول به الاسلام من نعيم الجنة ..

وباطلة ، لأنها تقوم على فهم خاطيء للانسان ، وللوحدة الذاتية
له ، التي ينبغي أن يحتفظ له بها في الحياة الآخرة ، تلك الوحدة
التي تجمع الروح والجسد معا ، فلا يكون الانسان انسانا الا بتلك
الذات ، ولا يعرف الانسان النعيم والشقاء ، ولا يحس بأى منهما
الا بذاته كاملة .. أما الصورة التي يكون عليها الانسان في الآخرة ،
وهل يكون جسده هذا من لحم ، ودم ، وعظم ، فذلك علمه
عند الله .. ولكن الذي نستيقنه ونؤمن به هو أن الانسان
لن ينسلخ من ذاتيته ، ولن يخرج عما يتلبس به من شعور بهذا
الوجود الذاتي الذي له ، حيث أن الذي ينعم بنعيم الجنة هو
انسان هذه الدنيا ، وأن الذي يعذب بعذاب جهنم هو انسان هذه
الدنيا أيضا .. والا كان الجزاء — من النعيم أو العذاب — واقعا
على غير أهله ، ممن أحسنوا أو أساءوا على السواء .. وهذا
ما لم يقل به شرع ، وما لم يتصوره عقل .

هذه هي أصول العقيدة الاسلامية : الإيمان بالله ايماننا بفرد
الله تعالى بالوحدانية ، وينزهه عن الشريك ، والصاحبة والولد ،
ويصفه بكل كمال مطلق .

والايمان بالملائكة ، وانهم خلق من خلق الله ، وعباد من عباده
المكرمين ، وقد اصطفى الله تعالى منهم من يكون حامل رسالته
الى رسله ، وهو جبريل عليه السلام .

والايمان بكتب الله ، المنزلة على جميع رسله ، ايمانا مجملا ،
قد جاء القرآن الكريم بتفصيله وبيانه ..

والايمان برسلى الله وانبيائه وانهم صفوة اقوامهم ، قد اصطفاهم
الله تعالى لتبليغ رسالاته الى الناس ، وان محمدا هو خاتمهم ،
فلا نبى بعده ، ولا كتاب بعد كتابه .

والايمان باليوم الآخر ، وبال حساب ، والجزاء ، والجنة للمؤمنين
المتقين ، والنار للكافرين ، والضالين .

والديانات السماوية كلها تدعو الى الايمان بهذه الأصول
الخمسة ، التى يلتقى عندها جميع المؤمنين ..

وكل دعوة سماوية انما ملاكها وصل الناس بخالقهم ، وتوجيه
وجوهم وقلوبهم اليه ، واقامتهم على طريق الحق ، الذى تجتمع
عليه قلوبهم ، وتتآخى به نفوسهم ، وتتوحد به مشاعرهم ، اذ كانت
وجهتهم جميعا الى آله واحد ، ومعبود واحد ، هو الله رب
العالمين .. فتلك هى وصاة الله تعالى الى رسله ، وتلك هى دعوة
رسلى الله الى اقوامهم ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : ((شرع
لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى اوحينا اليك ، وما وصينا
به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه))
(١٣ : الشورى) .

ان اى تصور لحقيقة اية دعوة سماوية يقوم على غير هذا
المفهوم ، هو تصور خاطىء ، وانحراف مغرض مضلل ، يخرج
به صاحب الدين عن دينه ، ويعمى به السبل الى هذا الدين ، ويصد
الناس عنه ، ويقطعهم عن النظر فيه ..

ومن هنا نستطيع ان نقرر بان اكثر ما وقع بين اصحاب الديانات
السماوية من شقاق ، وما قام بينهم من خلاف ، وما نشب من

قتال ، وما ذهب من نفوس وأريق من دماء — انما مرده في الأغلب الأعم الى فساد في الفهم السليم للدين ، والى خلط بين الحقائق الدينية والنوازع الذاتية ، والأهواء المريضة ، والعصبية العمياء .

ونود هنا أيضا أن نذكر أنه اذا كانت العصور الوسطى قد سجلت كثيرا من المخازي الانسانية في مختلف صور الحياة ، وفي جميع مستوياتها ، وأن الضلال والجهل قد أصابا — فيما أصابا — الفطرة ، فتحولت بالدين من دعوة الى المحبة والأخوة والرحمة ، الى عداوة ، وقطيعة ، وجفاء ، حتى لقد وقع بين الديانتين ، المسيحية والاسلام ما وقع من حروب صليبية ، دامت عدة قرون ، وتحولت بسببها كثير من المناطق المأنوسة بالناس ، والمعصورة بالخصب والخير ، الى خرائب موحشة ، وأطلال بالية — نقول اذا كانت القرون الوسطى قد شهدت هذا الضلال ، وسجلت على الانسانية هذه الصحف السود باسم الدين ، وتحت رأيته ، فانه قد صار حقا لازما على هذا العصر — عصر العلم والحضارة والنضج العقلي — أن يمحو هذه الصفحات السوداء المخزية من تاريخ البشرية ، وأن يطمس عليها ، بما يسجل من صحف انسانية مشرقة ، تحدث عن الأخوة والحب والمودة التي تعمر قلوب الناس وتؤلف بينهم ، بما عمرها من ايمان بالله ، وبما أشرق في قلوبها وعقولها من أضواء آياته وكلماته . . . فذلك هو الذي يرد للانسانية اعتبارها ، ويغفر لها ما سلف من جهلها وضلالها .

هذا ، ويحمل الينا هذا العصر الذي نعيشه ، بوادر طيبة . تبشر بأن روح التعصب الأعمى للدين ، قد أخذت تجلو عن كثير من العقول ، وتزائل كثيرا من النفوس ، التي حررها العلم من الانتقادات لغير العقل ، والاستجابة لغير ما يقضى به منطقه ، وبهذا خرج كثير من الناس عن سلطان المضللين والمخادعين ، الذين يسوقون الناس باسم الدين الى كل مجهل ومناهة ، كما يساق القطيع بعصا الراعي الاحمق الجهول !

وفوق هذا ، فانه قد كان للعلم أثره في تنقية الدين من كثير من الضلالات والباطيل التي أضيفت اليه ، وتلبست به ، فحجبت

الناس عن مواقع الخير والهدى فيه ، وحرمتهم الانتفاع بما يحمل من معالم الحق والخير ، ومن هنا كان هذا الذى وقع بين الناس وبين معتقدتهم الدينى من الجفاء والنفرة ، حتى لقد خيل لكثير من الناس أن عصر العلم يجافى الدين ويعاديه ، وأنه كلما حصل الانسان علما ازداد تفلتا من الدين ، وتحللا منه ، ومجانبة له ، والا لما كان هذا الالحاد الذى غطى قارات بأسرها ، واستولى على عقول أمم تبليغ مئات الملايين عدا ، فى أوربا ، وأمريكا وآسيا ..

والحق أن العقل والدين ، اذا سلم كل منهما من الآفات التى دخلت عليه ، وخلص من الشوائب التى علقت به ، فانهما يلتقيان على الاخاء ، والألفة ، ويكون من لقاءهما خير لهما معا ، فيزداد العقل هدى واستبصارا بالدين ، ويزداد الدين ألقا واثرا بالعقل ! .

أما اذا سلم العقل ، وانطمست معالم الدين ، أو سلم الدين ، وعمى العقل ، فان القطيعة بينهما أمر لا معدى عنه . اذا لا يجتمع الضدان ، ولا يتأخى المتناقضان .

وانه يوم ينفصل العقل عن الدين ، أو يبعد الدين عن العقل ، فلينظر المرء : من أية جهة كان هذا ؟ ومن أى مدخل دخل عليه؟ ثم ليقتض بما شاء ، وليعلم قبل هذا أو بعده أن العقل السليم لا يصادم الدين ، وأن الدين الحق لا يجافى العقل ، ولا يأخذ طريقا غير طريقه .

واذ كان الأمر كذلك . فانه مطلوب من كل ذى دين أن ينظر فى دينه نظرا باحثا متحصصا ، وأن يرد موارده الصافية بعيدا عما دخل عليه من غرائب المقولات ، وما تحمل من طلاسّم وملغزات ، ويومها يجد أصحاب الأديان السماوية أنهم على طريق واحد ، وعلى وجهة واحدة ، فلا تتشعب بهم السبل ، ولا تتفرق بهم المذاهب وأن وقع بينهم ثم خلاف فهو فى الصور والأشكال ، لا فى المقاصد والغايات : **« والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »** (١١٥ : البقرة) .

ومن هذا الهدى السماوى الكريم الذى نزل به القرآن الكريم فى الدعوة والاخاء بين الناس ، وبهذا الأسلوب التربوى الحكيم ، بهتف القرآن بأهل الكتاب أن يلتقوا بالمسلمين فى رحاب الله ، وأن يسلموا جميعا وجوههم له : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا أشهدوا باننا مسلمون » (٦٤ : آل عمران) .

فأهل الكتاب جميعا — قبل غيرهم — مدعوون الى الايمان بالله ايمانا لا يخالطه شرك ، ايمانا بالله كبير متعال ، ليس كمثله شئ ، فى ذاته ، أو صفاته .. فاذا صح هذا الايمان ، واستقام مع هذا الوجه لم يكن ثمة ما يعزل المؤمن بالله بعضهم عن بعض ، إذ كلهم عبيد الله ، ومؤمنون بالله .

وإذا كان اليهود قد عزلوا أنفسهم عن المجتمع الانسانى منذ كان لهم وجود ، وكان لهم دين ، وأذ زين لهم الشيطان أنهم أبناء الله ، وأنهم شعبه المختار ، وأن الناس ما عداهم همل لا ينظر الله تعالى اليهم ولا ينالهم برحمته التى أخص اليهود بها وحدهم ، حتى أنهم ليأبون على الناس أن يدينوا بدينهم الذى لا يتسع لغيرهم — إذا كان هذا شأن اليهود من المجتمع الانسانى — فان الذى بين المسلمين والمسيحيين ليختلف عن هذا اختلافا بينا ، إذ ليس فى النصرانية ولا فى الاسلام تعصب للجنس، حيث كان اتباع الديانتين من كل جنس وقبيل . ولهذا لم تقم بين الاسلام والنصرانية تلك الحواجز الصفيقة التى تحول بين أى منهما وبين أن ينظر فى دين صاحبه ، ويتعرف عليه .

وقد تكشف هذا اللقاء المستمر بين المسيحية والاسلام عن وجوه كثيرة من الاتفاق ، وكان لذلك أثره فى أن تقوم بينهما روابط المودة والاخاء والتواصل ، على خلاف ما كان من اليهود من بغضة وعداوة للمسلمين والمسيحيين ، هى بعض بغضتهم وعداوتهم للانسانية كلها .. وفى هذا يقول القرآن الكريم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا أنا نصارى ، ذلك بأن منهم

قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق،يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين)) (٨٢ — ٨٥ : المائدة) .

والخلافة الوحيد الحاد بين الاسلام والمسيحية ، انما هو في تصور ذات الاله . فهم جميعا — المسلمين والمسيحيين — يؤمنون بأن لهذا الوجود الها عظيما قائما على تدبيره .. ولكن تصور هذا الاله في ذاته وصفاته هو مركز الخلافة بينهم ..

وهذا الخلافة مع عظم شأنه ، وجلال خطره ، يمكن أن يلتقى فيه الفريقان على الحق ، اذا خلصت القلوب من دواعى الهوى ، وسلمت النفوس من دخائل السوء ، ونزعات التعصب ، وقصدت وجه الحق ، دون التفات الى شىء آخر سواه ..

والفرصة مواتية في هذا الموقف بالذات للتعرف على الله ، والى تصويره على الوجه الذى يليق بكماله ، وعظمته وجلاله ، حيث كشف العلم عن كثير من الافاق التى يمكن أن ينظر منها العقل الى الله ، والى تصويره على الوجه الذى ينبغى أن يكون له ، من عظمة وجلال .

الباب الثاني

الشريعة

أولاً: العبادات

ويندرج تحت الشريعة — كما اشرنا من قبل — ثلاثة أصول عامة ، تنظم العلاقة بين الناس وخالقهم ، ثم بين الناس والناس . وهذه الأصول هي : العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق .

ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل هذه الأصول ، وبيان أحكامها ، وأركانها ، وإنما الذى يعنينا هنا هو بيان لأصولها العامة ، وما لهذه الأصول من أثر في حياة الأفراد والجماعات ...

فالعبادات هي ماتعبد الله تعالى به عياده ، من صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج . . . هي جميعا مقدورة بطاقة الانسان ، وباحتماله ، فليس فيها شيء يشق على الانسان ، ويجاوز حدود قدرة أوساط الناس ..

والله سبحانه وتعالى يقول : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (٢٨٦ : البقرة) ويقول تبارك اسمه : « وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » (٧٨ : الحج) .

ثم ان هذه العبادات جميعها مشفوعة برخص ، تعفى الانسان من أدائها ، اعفاء موقوتا ، أو دائما ، اذا لم تتحقق الشروط الموجبة لها .

ثم هي أيضا ليست أعمالا آلية ، تؤدي لمجرد القيام بها في أوقاتها على الصورة المرسومة لها ، وإنما هي رياضة تربوية ، تطهر الانسان وتزكيه ، وتقيمه على الطريق المستقيم ، وذلك لا يكون الا اذا خالطت العبادة مشاعر المؤمن ، ومست شفاف قلبه ، وألبسته لباس الخشوع والاخباب بين يدي الله . . فان لم يكن منها هذا الثمر الطيب الذى يصبغ الانسان بمكارم الأخلاق ،

وحميد الصفات — كانت ردا على صاحبها ، غير واقعة بموقع القبول من الله تعالى .

وملاك الأمر في هذه العبادات ، هو الاقبال عليها بعزم وثيق ، ونية خالصة ، ورغبة صادقة ، حيث تلقاها النفس حفية بها ، مشوقة اليها . . وهذا ما يجعل للعبادات ثمرها الطيب ، وأثرها الحمود .

أما اذا خلت العبادة — أى عبادة ، بل أى عمل — من هذه المشاعر ، فانها لن تترك في كيان الانسان شيئا ينتفع به ، حيث مرت به دون أن يلتفت اليها ، أو ينفعل بها .

فاذا بلغ الأمر الى أن تهمل هذه العبادات ، أو تؤدي في تركه واستئثار ، فان ذلك هو الخسران المبين ، والضلال البعيد ، حيث يقوم منه شاهد على الجراة على الله تعالى ، وأعلان المحادة له ، والتحدى لأوامره . . ولهذا توعده الله تعالى المستخفين بالعبادات وعدهم من الكافرين ، كما يقول سبحانه : « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يتوبون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون » (هـ : التوبة) كما توعده سبحانه وتعالى بالويل ، أولئك الذين لا يشغلهم أمر الصلاة ، ولا يرصدون أنفسهم لأوقاتها ، فيغفلون عنها ، ويؤدون منها ما يقع لهم ، يقول سبحانه : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون » .

* * *

ونود أن نقف وقفة قصيرة بين يدي كل عبادة من تلك العبادات ، التي جاءت بها شريعة الاسلام للمؤمنين بهذا الدين .

* * *

الصلاة : ومعناها في اللغة الدعاء ، وهى في لسان الشرع تلك الصلوات الخمس المفروضة على المؤمن في اليوم والليلة . . ولكل صلاة وقتها ، وعدد ركعاتها ، كما هو معروف عند المسلمين جميعا .

وقبل أن يدخل المصلى في الصلاة يجب أن يكون طاهر البدن والثوب ، وأن يكون على وضوء ، متحقتا من طهارة المكان الذي يصلى فيه ، مستقبلا القبلة ، مستجمعا نفسه ومشاعره ،

مستحضرا جلال الله ، وعظمته . فيخشع لهذا الجلال وتلك العظمة ، وبهذا يخرج من صلاته بزاد طيب يزداد به رصيده من الخير والاحسان .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « **قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون** » (١ - : المؤمنون) .

فالصلاة ليست في حركاتها وسكناتها ، وفي قيامها ، وركوعها ، وسجودها، وانما في الآثار التي تتركها في المصلى ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، كما يقول سبحانه : « **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** » (٥٥ : العنكبوت) .. والصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، هي تلك الصلاة التي استوفت شروطها الحسية والمعنوية . ومن هنا كانت الصلاة عماد الدين ، فمن أتمها أقام دينه ، ومن هدمها هدم دينه .

الزكاة : والزكاة ، معناها النماء والزيادة ، ومعناها أيضا الطيب ، يقال رائحة زكية أى طيبة .. وهذه المعانى كلها في الزكاة الشرعية ، وهى ما يخرجها المؤمن من ماله لينفقه في الوجوه التي بينها الله تعالى في قوله : « **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل** ، فريضة من الله والله عليم حكيم » (٦٠ : التوبة)

وهى واجبة على من ملك نصابا معيناً من المال ، وحال عليه الحول ، كما هى واجبة في الزرع عند حصاده ، وفي الأنعام ، بشروط معروفة ، وحدود مبينة ..

والذى يعنينا من الزكاة هنا ، هو أنها دعوة الى التكافل بين المسلمين ، وبعث لمشاعر الأخوة بينهم ، واقامة المسلم على مراقبة دائمة لأحوال المجتمع الإسلامى الذى يعيش فيه ، وتنفذ أحواله ، ومعالجة عوامل الضعف التي تنجم فيه ، وبهذا يسلم المجتمع من العوارض التي تتهدده بالهدم والانحلال ..

والزكاة ، معاملة بين الله ، والمزكى .. لأنها تتعلق بصلته بربه ، وبطاعته له ، فهى لهذا عبادة من العبادات ، لا يقبلها الله تعالى

من مؤديها الا اذا خلصت لها نيته ، ورضيت بها نفسه ، وابتغى بها وجه الله تعالى ، وادأها على وجهها كما يؤدي الصلاة والصيام .

ومن هنا كان أثرها الاجتماعى عظيما ، حيث يخرج المال من يد أصحابه فى غير تكره منهم ، وفى غير من أو أذى لمن يمدون اليهم أيديهم بهذا المال . . وذلك بما أقام الله تعالى من حراسة على هذه العبادة ، أن يطوف بها ما يفسدها على أصحابها ، وعلى من هم أهلها ، فيقول سبحانه : **((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْأَذَى))** (البقرة : ١٦٤) ، ويقول تبارك اسمه : **((قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ))** (البقرة : ٢٦٣)

لقد كانت الزكاة ذات شأن عظيم، فى الصدر الأول للإسلام، والأموال فى دنيا الناس أقل بكثير مما هى عليه اليوم ، وذوو الحاجة أكثر بكثير منهم اليوم — ومع هذا فقد كانت الحصلة التى تجتمع منها فى بيت مال المسلمين تسد حاجة الفقراء والمساكين وغيرهما من أصحاب الفروض فيها ، حتى لقد تولى منها النبى صلوات الله وسلامه عليه ، قضاء دين من مات وليس له مال يدفع منه ما عليه لغرمائه . . فقد روى عن أبى هريرة أنه قال : **((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤتى بالميت عليه دين ، فيقول : هل ترك لدينه وفاء ؟ فان حدث أنه ترك لدينه وفاء ، صلى عليه ، والا قال : صلوا على صاحبكم . . قال أبو هريرة : فلما فتح الله عليه الفتوح قال صلوات الله وسلامه عليه : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين ، فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته » .**

ويذكر التاريخ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما حمل اليه أبو موسى الأشعري أموال الخراج والصدقات وكانت ألف ألف ، فقال عمر له : بكم قدمت ؟ قال : بألف ألف ، فاستعظم عمر ذلك ، وقال : هل تدري ما تقول ؟ قال : نعم . . قدمت بمائة ألف ومائة ألف ، حتى عد عشر مرات ، فقال عمر : ان كنت صادقا فليأتين الراعى نصيبه من هذا المال ، وهو باليمن ، ودمه فى وجهه ، (أى من غير أن يريق ماء وجهه بالسؤال ، ومد يده الى غيره) .

هكذا كان شأن الزكاة وأثرها في المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام ، وقد أسقط أبو بكر رضي الله عنه حجة من امتنعوا عن الزكاة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربهم محاربة المرتدين ، وعاملهم معاملة الكافرين المحاربين .. لأنها حق لله أولا ، وحق لعباد الله ثانيا .. يحاسب عليها من لم يؤدها حسابين ، حسابا من الله تعالى ، وحسابا من المجتمع الذي يعيش فيه ..

هذا ، وليست الزكاة بالأمر الشاق على النفس ، الجائر على المال .. انها جزء من أربعين جزءا من رأس المال الفائض عن الحاجة ، اذا حال عليه الحول ، وبلغ نحو اثني عشر جنيها أو أكثر ، وهذا قدر قليل تقبله النفوس الطيبة عن رضى ، وتسمح به في سخاء ، اذا علم المسلم أن وراء هذا تزكية لنفسه ، وتطهيرا لها ، ونماء لماله وبركة عليه فيه ، وفي ولده من بعده .. يقول الرسول الكريم : « ما أحسن عبد الصدقة الا أحسن الله الخلافة على تركته » ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « ان الصدقة لتمنع ميتة السوء .. وانها لتقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل » ..

واذا كانت الزكاة قد حددت بقدر معين من مال الزكى ، فان ذلك لا يكفي من يطلب المزيد من رحمة الله واحسانه أن يتجاوز هذا الحد ، الذى هو فرض ، الى ما وراءه من صدقات هي نوافل ، يقبل الله تعالى قليلا وكثيرها ، ويضاعف الجزاء على القليل والكثير منها يقول سبحانه : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من انفسهم كمثل حنة بربوة أصابها وابل فانت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » (البقرة : ٢٦٥) .. ويقول جل شأنه : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حنة أنبتت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » (البقرة : ٢٦١)

هذه عبادة من عبادات الإسلام ، لو أحسن المسلمون أداءها لكانت بابا واسعا من أبواب الخير للمجتمع الإسلامي ، حيث تدعو الراغبين في ثواب الله ورضوانه الى السعى الجاد ، والعمل المثمر ، حتى يجتمع في أيديهم المال الذى يسد حاجتهم ، ويفضل منه ما يقدمونه زكاة وصدقة .. كما تحفز الزكاة القاعدين والمقصرين

الى أن يلحقوا بهؤلاء المتصدقين ، حتى يستغنوا عن الصدقات ،
ويصبحوا من المتصدقين .. وهكذا تدور الزكاة دورتها في المجتمع
الاسلامى ، تأخذ بيد العاجزين ، والمستضعفين ، وتقل عثرات
العائرين ، وتفك رقاب العائين والمدنين .. وبهذا تنطلق قوى
المجتمع كلها للعمل والبناء ، فلا يكون فيه أحد كلا على أحد ، وبهذا
أيضا تتحرر انسانية الانسان ، فلا يذل لغير الله ، ولا يحنى الرأس
الا بين يدي الله ..

الصوم :

والصوم عبادة تعبد الله بها الانسان ، في صور متعددة ، تناسب
زمان الانسان ومكانه ، وذلك بالحرمان من بعض مطالب الجسد ،
وشهوات النفس ، كالصوم عن بعض الأطعمة دون بعض زمننا
معينا ، أو الصوم عن الكلام وقتا محددا .. ففى هذا وذاك درية
ومران على كسر شهوات النفس ، التي أن تمكنت من الانسان
ساقته سوقا عنيفا ، وقادته الى مواقع التهلكة ..

وفي الاسلام جاء الصوم محدد الزمان بشهر رمضان ، مبين
الصفات ، بترك شهوات الجسد من الطعام والشراب والاتصال بين
الزوجين ، من الفجر حتى غروب الشمس ..

هذه هى صورة الصوم فى الاسلام .. ولكن هذه الصورة ليست
هى المقصودة من هذه الفريضة ، بل لا بد أن تدب فيها الحياة ،
وتسرى فيها الروح ، حتى تؤثر فى الصائم ، كما يؤثر الكائن الحى
فى الحياة ..

فليس الصوم مجرد جوع ، وعطش ، وحرمان ، وانما هو
رياضة نفسية على قهر شهوات كثيرة متحكمة فى الانسان ، وقتل
آفات فتاكة متمشية فى كيانه .. وذلك عن طريق هذه التجربة
العملية التى يقف فيها الانسان كل يوم ، يلح عليه الجوع أو العطش ،
وبين يديه الطعام أو الماء ، ثم هو مع هذا يعرض مختارا عن أن
يذوق طعاما ، أو شرابا ، ولو فعل لما كان لأحد عليه من سلطان ،

وانما السلطان القائم عليه في تلك الحال ، هو سلطان ضميره ،
ووازع دينه ، وشعوره بمراقبة الله تعالى له .

هذه التجربة اليومية التي يعيش فيها الصائم أيام صومه ، جدير
بها أن تربى فيه مع الصبر ، الضمير الحى اليقظ ، الذى يحاسب
صاحبه ، ويمسك به عند ما يدعو داعى الهوى الى أمر منكر ،
يتعدى به حدود الله . . .

فمن صام ولم يجعل حساب الصوم عنده قائما على هذا الحساب
الذى يمهده بزيادة عتيد من الصبر وقوة الاحتمال ، ويقيم فيه الضمير
الحى اليقظ الذى يرد عنه عادية الأهواء والشهوات — من صام
ولم يجعل حساب الصوم عنده هذا الحساب ، فقد بخس الصوم
حقه ، وفوت على نفسه الخير الكثير المرتقب من ورائه . . يقول
الرسول الكريم : « من لم يدع قول الزور ، والعمل به ، فليس
لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه . . » ..

هذه عبادة من عبادات الشريعة الاسلامية ، غايتها أن
تمد الانسان بأسباب القوة والمنعة ، وأن تقدره مع احتمال ما يلقيه
من شدائد الحياة وتبعاتها . . انها تقضى على آفات الوهن والضعف
الكامنة فى كيان الانسان ، تلك الآفات التى تصرف المصابين بها
عن التصدى لعظائم الأمور ، والتمرس بجلائل الأعمال . . فاذا
سلم المجتمع الاسلامى من تلك الآفات ، وذلك حين يؤدى فريضة الصوم
على الوجه الذى رسمته الشريعة له ، كان مجتمعا جديرا بأن
يقود ركب الحياة ، ويخوض غمارها ، فى قوة لا تضعف ، وبعزيمة
لا تلين ، فيبلغ بذلك منازل العزة والكمال . .

الحج :

وهو الفريضة الرابعة من العبادات . . وقد جعله الله تعالى
مرة فى العمر لمن استطاع اليه سبيلا . .

وفى الحج تشهد الحياة اكبر ظاهرة للمجتمع الاسلامى ، حيث
يجتمع حجاج بيت الله من اقطار الارض جميعها ، فى هذا المكان

المقدس ، مجردين من كل مظاهر الحياة ، التى تفرق سماتها بين الناس ، وتشير الى المكان الاجتماعى لكل منهم .. انهم هنا فى زى واحد ، هو زى الاحرام ، لا يعرف فيه ملك من سوقة ، أو عالم من جاهل ، أو غنى من فقير .. ومن هذه الصورة التى تمحى فيها شخصية المرء وذاتيته ، يغرب من كيان الانسان ، ويختفى من مشاعره كل ما كان يعيش فيه بين قومه وعشيرته ، من مظاهر الاكبار والاجلال التى وضعه ماله أو جاهه ، أو سلطانه فيها ..

هنا فى موقف الحج تزول الفوارق التى تفصل بين الطبقات ، وتفرق بين الأجناس والألوان .. وإذا كان المسلمون أمة واحدة ، يحكمهم حكم الهى واحد، هو أنه لأفضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، وإذا كان المسلمون يحققون هذا فى وقوفهم بين يدى الله فى الصلاة خمس مرات كل يوم ، حيث يقفون صفوفًا على قدم المساواة بينهم ، لا يتقدم غنى لغناه ، ولا يتأخر فقير لفقره ، بل يأخذ كل مكانه حيث يكون من المسجد ، ومن صفوف المسلمين فيه — إذا كان ذلك هو شأن المسلمين أو ما ينبغى أن يكون شأنهم — فان الحياة كثيرا ما تغلب على هذا الشعور ، وتذهب بتلك الصورة التى جمعتهم فى الصلاة ، حين تتفرق بهم السبل ، ويأخذ كل مكانه فى مسيرة الحياة ..

وهنا يأتى دور الحج ليعيد صياغة وحدة الأمة صياغة تنصهر فيها المشاعر ، فإذا هى شعور واحد ، لأمة واحدة .. وهكذا يعيش الحجاج المثلون للأمة الإسلامية فى جميع آفاق الأرض — يعيشون فترة الحج وهم فى هذا القالب الذى توحدت فيه مشاعرهم ، والذى جعلهم أمة واحدة ، كالجسد الواحد ، ثم يعودون الى أوطانهم يحملون مشاعر هذه الوحدة ، ويعيشونها فى أقوامهم ، فإذا كان العام التالى جاء غيرهم ، فأدى هذا الدور الذى أدوه .. وهكذا سنة بعد سنة الى يوم الدين .. يتزود المؤمنون كل عام من فريضة الحج بهذا الزاد الذى يوحد جماعاتهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويجمعهم جميعا على الأخوة المتوازة المتواصلة ، تواصل الأعضاء فى الجسد !

هذه هى العبادات فى الإسلام : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج .. وكل منها دواء لأكثر من داء ، مما يعرض للناس فى

مسيرة الحياة ، وكل منها زاد طيب يتزود منه الناس لمسيرة الحياة ، فلا يصيبهم فيها ظمأ ولا نصب ، ولا يطلع عليهم منها ما يعوق مسيرتهم ، أو يعدل بها عن الطريق القاصد الى مواقع الخير والفلاح ..

ان كل ما تعبدنا الله تعالى به من عبادات ، لا بد ان تظهر آثاره في حياتنا ، وأن نجنى من ثماره الطيبة في يومنا وفي غدنا .. فان لم نجد ذلك ، كانت العبادة شيئاً ثقيلاً لا تخف النفس الى أدائه ، ولا تنشط الى الاستجابة له .. وهذا من شأنه أن يميت كل شعور متجه نحوها ، فتحول الى أعمال لا ارادية ، لا يشعر بها صاحبها ، ولا يتأثر بها منه عقل أو قلب ..

فمن صلى ولم ينته عن الفحشاء والمنكر ، فليس مصلياً ..

ومن زكى ، ولم يطب طعامه ، ولم يكن من الحلال كسبه .. فليس مزكياً ..

ومن صام ، ولم يدع قول الزور والعمل به ، فليس صائماً ..

ومن حج ، ولم يخرج من ذاتية نفسه ، ولم يغتسل من آفاته التمايز ، والتعالى ، والتفاخر ، التي ألقها الحياة عليه — فليس حاجاً ..

ويوم يؤدي المسلمون صلاتهم ، وزكاتهم ، وصومهم ، وحجهم على الوجه الذي أمر الله تعالى ، يومئذ تختفى من المجتمع الإسلامى تلك الآفات التي عوقت مسيرته في الحياة ، وقعت به عن أن يكون قائد تلك المسيرة ، ويومئذ يبلغ المسلمون بأخلاقهم المصبوغة بصبغة الإسلام ما وعدهم الله تعالى به من تمكين في الأرض ، ومن حياة طيبة في الدنيا ، والآخرة جميعاً .



ثانياً: المعاملات

المراد بالمعاملات هنا ، هو ما يقع بين الناس والناس من ضروب المعاملات المسالية لتبادل المنافع في مجالات الحياة ، من أخذ ، وعطاء ، وبيع وشراء ، ورهن وقرض ، وتأجير ، وأعارة ، وتوريث ، وغير ذلك مما تنتقل به الأشياء والمنافع من يد الى يد ..

والعمل هو المصدر الطبيعي لحصول الانسان على ما يصلح ان يكون شيئاً يتعامل به ، ويجرى في الحياة مجرى النفع والتبادل .. فمن لم يعمل لم يجد ما يسد به حاجته ، ومن ثم لم يجد ما يكون مادة تبادل لمنفعة بينه وبين غيره .. أما ان يعتمد الانسان على عمل غيره ، في حين انه قادر على العمل ، فذلك عدوان على هذا الغير ، وأكل لماله بغير حق ، سواء اكان هذا الأكل عن رضى من صاحب المال ، أو عن طريق السرقة منه ، أو الاحتيال عليه ، أو نحو هذا مما يعيش عليه بعض الأفراد في المجتمعات ، فيكونون أشبه بالديدان المعوية التي تسكن أحشاء الانسان ، وتشاركه طعامه وشرابه ، وانه كلما كثرت أعداد هؤلاء الطفيليين في المجتمع ضعفت قوته ، وذهبت ريحه ، ولبسه الفقر ، وركبته الذلة والمسكنة ..

ولهذا ، فان الاسلام قد رسم السياسة الحكيمة ، وأقام الحدود المحكمة لهذا المجال الحيوى الذى لا حياة للأحياء الا به ..

فاولاً : لم يكتف الاسلام بالدوافع الطبيعية التى تدفع الانسان الى العمل ، حيث تستحثه غريزة الحياة وحب البقاء الى التماس ما يحفظ هذه الحياة ، ويمد لها في أسباب البقاء ، بالتماس الكسب من وجوه الحياة ، وجلب ما يحتاج اليه الجسد من غذاء ، وكساء ، وسكن وغطاء .. لم يكتف الاسلام بهذه الدوافع الطبيعية ، بل عمل على ايقاظها ، وحمائتها من آفات التواكل التى تتسلط على بعض النفوس الضعيفة ، فتمسك بها عن السعى الجاد ، والعمل

الدائب ، لتقييمها في ظل الدعة والسكون ، فدعا الإسلام الى العمل ، وأهاب باتباعه أن يعملوا ، ثم لم يكف بهذا ، بل رفع مكانة العمل والعاملين الى مقام العبادة والعبادين ، وبهذا لا يجد المسلم فرصة يتحلل فيها من هذا الأمر الملزم ، الذى ان لم يكن دعوة من دعوات الحياة ، فهو دعوة من دعوات الدين ..

فالصلاة وهى رأس العبادات ، والركن الثانى من أركان الإسلام — هذه الصلاة أظهر ما فيها العمل والحركة .. من وضوء تتكرر فيه عمليات الغسل للوجه واليدين والقدمين مرات كل يوم .. ومن قيام ، وركوع ، وسجود يتكرر عشرات المرات في اليوم واللييلة ..

ان هذه الحركات دلالة على ما ينبغى أن يأخذ به الانسان نفسه من الحركة والعمل حتى في مقام العبادة .. ولهذا ربط الإسلام بين الصلاة وبين السعى والعمل ، فقال تعالى : « **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » (١٠ : الجمعة) .. ففى الصلاة عمل ، وفى العمل صلاة ، وعبادة وذكر لله ، وابتغاء من فضله !

وأكثر من هذا ، فان الإسلام جعل العمل ضربا من ضروب الجهاد في سبيل الله ، بل وقدمه على الجهاد في سبيل الله ، اذ لا جهاد الا من رجال أقوياء تمرسوا بالعمل ، وراضوا أعضاءهم عليه ، كما أنه لا جهاد بغير رصيد من المال ، والزاد ، والسلاح ، وذلك كله لا يحصل الا بالعمل .. واستمع الى قوله تعالى : « **فاقرعوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الأرض ، يبنفون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرعوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ، أن الله غفور رحيم** » (٢٠ : المزمل) .. فالضرب في الأرض ، معناه السعى ، والسعى بقوة ، تنزل الأرض ، وتوقظ نيامها ، وهذا السعى القوى هو الذى يتيح للانسان أن يقوم بالركن الثانى بعد الصلاة وهو الزكاة ،

وان يكون من المقرضين لله مما رزقهم الله . . ثم أنظر كيف أقام الله تعالى الضرب في الأرض بين مقامات تلاوة القرآن بدءا وختاماً ، حتى يكون العمل قائماً على هدى ونور من آيات الله وكلماته ، فلا يدخل عليه جور أو عدوان ، أو انحراف عن الحق والعدل والاحسان . .

عن رفاعة بن رافع ، رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، وقد سئل : أى الكسب أطيب ؟ فقال : « عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور » . .

ثم لأن العمل فطرة مركوزة في الإنسان ، فإن الاسلام لم يشأ أن يغير من هذه الفطرة ، أو يحجز عليها ، بل ترك أبواب العمل ومجالاته كلها مفتوحة للإنسان ، يدخل اليها من كل باب ، ويسلك اليها كل مسلك ، حسب قدرته وحوله . . فكل عمل يبلغ بالإنسان غاية ويحقق له نفعاً من غير أن يؤذيه ، أو يجور على مرعوته وخلقه ، أو يعتدى على حقوق الناس ، هو عمل مبرور يزيه الاسلام ، ويجزى عليه الجزاء الحسن . .

يقول ابن تيمية : « وأما العادات ، فهي ما اعتاده الناس ، والأصل فيها عدم الحظر . . . والأصل فيها العفو ، فلا يحظر منها إلا ما حرمه الله ، والا دخلنا في معنى قوله تعالى : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ، فجعلتم منه حراماً وحلالاً » (٥٩ : يونس) ولهذا ذم الله المشركين الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به . . وفي صحيح مسلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، قال الله تعالى — في الحديث القدسي — : « انى خلقت عبادى حنفاء ، فأجنتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم . . . »

« ومعنى هذا ، أن ما يجرى في حياة الناس من قانون عاداتهم هو موضع احترام من الاسلام ، يقر الناس عليه ، ولا يحرم عليهم من هذا شيئاً إلا ما خفيت عليهم أضراره ، أو اشتبه عليهم أمره ، كالخمر ، والخنزير ، والربا . .

ثم يقول ابن تيمية :

« البيع ، والهبة ، والاجارة ، وغيرها ، من العادات التي يحتاج إليها الناس في معاشهم ، كالأكل والشرب ، واللباس .. وان الشريعة قد جاءت في هذه العادات ، بالآداب الحسنة ، فحرمت منها ما فيه ضرر ، واستحبت ما فيه مصلحة راجحة في هذه العادات ومقاديرها وصفاتها » (١)

وثانيا ، من سياسة الاسلام الحكيمة ، وحدوده المحكمة التي اقامها على السعى ، والعمل هي حماية ثمرات هذا السعى والعمل ، من أن يقع ليد غير يد من سعى وعمل ، فحرم أكل أموال الناس بالباطل ، فقال تعالى : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم ، وأنتم تعلمون** » (١٨٨ : البقرة) وذلك بالرشا التي يقدمها بعض الناس لمن يفصلون في الخصومات المسالية بين الناس ، ليميلوا عن سبيل العدل في الفصل ، ويعطوا من لا حق له .. وقال سبحانه : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذكروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأنذروا بحرب من الله ورسوله** » (٢٨٨ — ٢٨٩ : البقرة) فهذه حرب يعلنها الله ، ورسول الله ، والمؤمنون بالله ورسوله ، على الربا ، وأكل الربا .. لأنه أكل لأموال الناس بغير الحق ، واغتيا لثمرات العاملين بهذه المعاملة المدمرة ، التي تبدو في سورة تبادل منفعة ، على حين تنطوي على سرقة خفية ، لا تظهر للمتعامل بالربا وهو واقع تحت قسوة الحاجة ، التي يغيب معها رشده ، ويذهب صوابه ..

ثم من جهة أخرى رصد الاسلام عقوبة رادعة ، لمن يعتدى على مال غيره بالسرقة ، فأوجب قطع هذه اليد الآثمة المعتدية ، متى ثبتت عليه تلك الجريمة ، واستوفت أركانها ..

(١) القواعد النورانية الفقهية ، لابن تيمية ، ص : ١١٢ — ١١٣ .

وأكثر من هذا ، فان الاسلام نبه الى أمر ربما غفل عنه بعض أصحاب المال ، اذا كان عندهم من المال ما فيه سعة لقرض غيرهم قرضا حسنا .. وذلك بتوثيق هذا القرض ، وكتابته ، والأشهاد عليه ، حتى لا يضيع حق الدائن (المقرض) اذا تسلط الهوى على المدين (المقرض) — فانكر الدين — كله أو بعضه .. فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينهم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبئس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، ان تضل احدهما فتنكر احدهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تساموا أن تكتبوه صفيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، واقوم للشهادة ، وادنى الأرتابوا » (٢٨٢ : البقرة)

ففى هذه الآية الكريمة وثيقة من احكم ما عرفت الحياة من وثائق حفظ الحقوق ، قد جاء بها الاسلام فى وضوح كوضوح الشمس ، مفصلا كل خطوة من خطواتها ، سادا كل ثغرة يمكن أن ينفذ منها شىء من الخيانة والغدر .. وهذا كله انما هو دليل على ما للمال فى الاسلام من مكانة فى نظام الحياة ، وحفظ قوة المجتمع ، الأمر الذى اذا دخل عليه أى خلل أو فساد ، اختل نظام المجتمع ، وفسدت حياته ، وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام ما يدخل على الدول القوية المتمكنة من الحياة حين يهتز نظامها الاقتصادى ، بسبب ما ، انه سرعان ما ينهار بناؤها الشامخ ، ويذهب سلطانها المتمكن .

ثالثاً: الأخلاق

تنظم الشرائع السماوية صوراً متعددة من الأحكام ، والتعاليم ، هي في جملتها منهج حكيم متكامل ، للتربية العقلية والخلقية ، وضعته يد الحكيم العليم في أحكام وتقدير ، بحيث يؤدي بالمستقيم عليه ، والعامل به ، والسائر على هداه ، الى غايات الخير ، والى حياة طيبة ، تتوازن فيها مطالب الانسان المادية ، والمعنوية ، الجسدية والروحية جميعاً .

وإذا كانت تلك هي رسالة الرسالات السماوية في الناس ، وغايتها التي تتغياها من وراء بعث الرسل بها ، ودعوة الناس اليها ، والى الأخذ بأحكامها وتعاليمها ، وآدابها — إذا كان كذلك — فان حساب الدين في المتدينين لا يقف عند الصور والأشكال والرسوم التي يأخذها بعض المتدينين من الدين ، وإنما حساب الدين ، هو فيما يترك في أصحابه من آثار تتصل بمنزاع تفكيرهم ، واتجاهات سلوكهم في الحياة ، مع انفسهم ومع الناس ..

وقد أشار النبي الكريم إشارة بليغة جامعة لحقيقة الدين ، وما يراد بالتعاليم والأحكام التي يحملها الى الناس ، فيقول — صلوات الله وسلامه عليه — : « ان الله لا ينظر الى أجسامكم ، ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » .

والجانب الخلقى في الشريعة الاسلامية ، هو الجانب الايجابي منها ، وهو غاية أحكامها ، ومرمى تعاليمها ، التي تدور حول تهذيب النفوس ، وتقويمها ، وتوجيه الناس بها الى مقاصد الخير ، ومسالك النفع .

بهذا كانت دعوة الرسول الكريم ، وكانت أوامر الشريعة ونواهيها ، وهذا ما يتحقق به قوله تعالى في نبيه الكريم : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .. فانه لا شك أن أهم مظاهر الرحمة الالهية ، وأبرز آثارها في الانسان ، هو أن يحمّد خلقه ، وتحسن سيرته ، ويستقيم مع الناس على طريق الحق والعدل

والاحسان خطوه ، وهذا بعض ما يشير اليه قوله تعالى :
« ان رحمة الله قريب من المحسنين » والمحسنون حقا هم الذين
فتح الله قلوبهم للخير ، وسلك بهم مسالك الهدى ، فحسن قولهم ،
وصلح عملهم ، وطاب في الناس ذكرهم .

تلك هى غاية الرسالة الاسلامية ، خلق الانسان الصالح ،
في المجتمع الصالح ، ولن يكون الانسان صالحا الا اذا توازنت
قواه المادية والمعنوية جميعا ، وتلاقى بعضها مع بعض على
دواعى الخير ، وغايات الاحسان ، ولن يكون الانسان انسانا
صالحا ، الا اذا كانت له شخصيته ومكنته وآثاره المحمودة في
المجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك لا يتحقق الا بخلق كريم ، وسيرة
محمودة ، وعمل نافع ، وآثار بارزة في ماديات الحياة ومعنوياتها
جميعا ..

والعادات ، والمعاملات ، والآداب والأخلاق ، التى رسمتها
الشريعة الاسلامية ، انما غايتها تخريج نماذج طيبة للانسانية ،
في صورة السلم الذى تظهر عليه آثار الاسلام ، فتكسوه رواء
يبهر العيون جمالا ، ويملأ القلوب جلالا ، ويثير عواطف الحب
والاكبار التى يجدها الانسان فى نفسه حين يلتقى بمثل هذا النموذج
الكريم من الناس .. وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « انما بعثت
لأتمم مكارم الاخلاق » ومن تمام مكارم الاخلاق فى الانسان أن يشف
ويصفو ، وأن ترتفع انسانيته الى المدى الذى تنتهى اليه الانسانية
فى أسمى مدارجها ، وفى أعلى مواطن كمالها .. هناك تجد ذلك
الانسان الذى تهفو اليه مشاعر الانسانية ، وتتمثله فى الانسان
الكامل ، الذى يطلق عليه عند الأوربيين لفظ « الجنتلمان » !

وليس « الجنتلمان » الا هذا الانسان الذكى القلب ، الوضىء
النفس ، المتين الخلق ، النظيف فى هيئته ، المتجمل فى زيهِ ، المحوظ
بتقدير الناس واحترامهم أين يلتقون به .

والذى لا شك فيه أن هذه الصورة الانسانية قد امتلأ بها العصر
الاسلامى الأول ، وعرف التاريخ فى ذلك العصر نماذج كثيرة منها ،
لا فى « الجنتلمان » بل فى « السوبر مان » الذى هو حلم الفلاسفة

الذى ينتظرون ميلاده يوما ما ، حين تبلغ الانسانية رشدها ، وتعطى
أطيب ثمرة فيها ..

بهذه التربية الحكيمة التى أخذ بها الاسلام المسلمين ، والتى
استجابت لها منهم العقول والقلوب ، استطاع المسلمون أن يدخلوا
الحياة من أوسع ، وأحكم ، وأكرم أبوابها ، وأن يقيموا دولة ملكت
أطراف العالم ، وزخرت بألوان المجد والعظمة ، وأرست قواعدھا
على أكرم المبادئ ، وأسمى الفضائل .

نعم ، قام المسلمون الأولون على ركب الحياة يوجهونها ،
ويدفعون بها الى الغايات النبيلة ، والمثل الفاضلة ، ويقيمون
فى الناس موازين الحق والعدل ، بما ملأ به الاسلام قلوبهم من
مشاعر الخير ، وعواطف المودة والأخاء ، وهذا شرح عملى ،
وشهادة قائمة لقول الرسول الكريم : « ان المرء ليدرك بحسن
خلقه ما لا يدركه الصائم القائم » .

وقد يدخل فى وهم وأهم ، أن حسن الخلق يجىء بغير تربية
وتوجيه .. وكلا ، فان الخلق الكريم نتاج رياضة نفسية ، وتربية
روحية ، أساسها العبادات الخالصة لله ، والاتجاه بها الى الله
تعالى اتجاها يفتح القلب ، ويجمع أشنات النفس ، ويصل الكيان
الانسانى كله بالملأ الأعلى .. وتلك هى العبادة التى تقوم المعوج ،
وتصلح الفاسد ، وتستأصل أدواء النفوس ، وتغسل أدران القلوب ،
وتنقى الانسان من شوائب الضعف والصفار ، فلا يأتى الدنيا ،
ولا يشغل باللغو .. « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا
لنا أعمالنا ولكم أعمالكم .. سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »
(٥٥ : القصص) « وإذا مروا باللغو مروا كراما » (٧٢ : الفرقان) .

فليست هذه العبادات التى تعبد الله تعالى بها المؤمنين ، الا

منها ربانيا للتربية الاخلاقية العالية التى من شأنها أن تخرج
النماذج العالية ، والقمم الشامخة من الناس ، فان هى لم تثمر
ثمرتها تلك فى تهذيب النفوس وتقويم الاخلاق وتعديل السلوك ،
فهى جهد ضائع ، وعمل بلا ثمر ، وعناء بلا غاية ، وتعالق حكمة
الله عن ذلك علوا كبيرا .

ونحن المسلمين قد أصبنا فى القرون الأخيرة بعلل وأوجاع أفسدت
حياتنا ، وقلبت الصورة الكريمة التى كانت لنا ، فكان هذا
الاستخفاف بنا ، والاتهام لديننا ..

ولسنا ننكر أن يرانا الناس على تلك الصورة الهزيلة ، وفيها
من الأدواء مالا يبقى على شىء من انسانية الانسان وكرامته ..
فالكذب فى القول ، والخلف فى الوعد ، والنقض للعهد ، والغش فى
البيع ، والاستخفاف بالعمل ، والاسراف فى قتل الوقت .. كل هذا
من بعض ما يعيش فينا ونعيش فيه من آفات ..

ولسنا أيضا ننكر على الناس أن ينظروا الى ديننا تلك النظرة
المستخفة المتهمه ، لأنهم ينظرون اليه من خلالنا ، فلا يرون الا
أشباحا شائمه ، وصورا مشوهة ، أشبه بمن ينظر الى الأشياء
فى مرآة مهشمة ، أو مقعرة ، أو محدبة ، فلا عليه اذا هو وصف
هذه الأشياء كما تقع عليها عينه فى تلك المرايا ..

وانه لن يصحح انسانيتنا ، ولن يسلم وجودنا من تلك الأدواء
القاتلة ، الا اذا رجعنا الى ديننا فى هجرة جادة الى كتاب الله ، والى
سنة رسول الله ، فنضيف قلوبنا وعقولنا ومشاعرنا اليهما ، ونجعل
طعامنا المادى والمعنوى مما نقطف من ثمارهما ، ونقبس من
أنوارهما ، والافانه خير لنا ، ولديننا ، أن نعزل أنفسنا عن هذا
الدين ، والأ نردد آدابه وأحكامه فى كلمات ميتة منافقة على أفواهنا ،

من غير أن تصدر عن وعى ، أو تتبع من قلب ، أو تتلبس بشعور . .
أن الذى يمشى فى ضوء النهار مغمضاً عينيه ، خير منه هذا الأعمى
الذى يعرف أنه أعمى ، وأنه لكى يستقيم خطوه على الطريق لأبد
أن يتحرك بحساب ويحذر ، مستعيناً فى ذلك بوسائل أخرى غير
عينيه اللذين صفى حسابه معهما . .

ومسيرة المرء فى الحياة بغير دين ، معتمداً على وجوده الذاتى ،
مستخدماً كل وسيلة متاحة له ، خير ممن يعيش بدين لا يلتفت
إليه ، ولا يحفل به ، موهماً نفسه أنه فى هدى من هذا الدين الذى
أطفاً مصابيحته ، وفى أنس من مبادئه وأحكامه ، التى أخمداً أنفاسها
وطمس معالمها . . والله الأمر من قبل ومن بعد ، ولا حول ولا قوة
إلا بالله .

الباب الثالث

مفاهيم خاطئة عن الإسلام

« يريدون أن يطفئوا نور الله
بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم
نوره ولو كره الكافرون »

(٣٢ : التوبة)

نحاول في هذا المبحث من الكتاب ان نعرض بعض القضايا
الاسلامية التى كثر حولها لفظ اللاغطين وهذر الهاذرين ، وكيد
الكائدين ، فى مجال الاستخفاف بالاسلام ، والتشويش عليه ،
يريدون بهذا أن يضعوا على أعين الناس غشاوة يحجبونهم بها عن
ضوء الشمس ، نيقودوهم الى كل مهلكة ، وليدمعوا بهم الى كل
هاوية ، فكانوا بهذا أئمة ضلال ، يحملون أوزارهم كاملة ، وأوزار
الذين يضلونهم : « فويل الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون
هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم
وويل لهم مما يكسبون » (٧٩ : البقرة) « ليحملوا أوزارهم كاملة
يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون »
(٢٥ : النحل) .

ولأصحاب هذه النظرات الزائفة المنحرفة عن الاسلام ، مقولات
كثيرة ، يبررون بها لأنفسهم أو لمن يدعوهم الى تصحيح معتقدهم
على ضوء دين الله ، وذلك بالنظر السليم الجانب للهوى ، وبالنية
الصادقة ، الطالبة للحق .

وتكاد هذه المقولات المنحرفة جميعها تنحصر فى دعوى واحدة ،
وهى أن الاسلام أن يكن دينا — فهو دين نبت فى بيئة خاصة ،
طابعها البداوة الجافية ، والجذب المسك بكل شىء فيها .. وهذا
يعنى — عند أصحاب هذه الدعوى — أن أية دعوة اصلاحية تظهر
فى مثل هذه البيئة ، لا تجيء الا محسوبة بحساب مكانها وزمانها ،
والا انتقطع بينها وبين الدعوين اليها كل سبب من شأنه أن يصلهم
بها ، أو يجمعهم عليها ..

وعلى هذا الفهم الخاطيء ، بنوا قولهم بأن النجاح الذى صادفته الدعوة الاسلامية فى اول امرها انما كان لسبب ملامتها للحياة التى التقت بها فى الجزيرة العربية ، وتجاوبها معها ، ووقوفها عند حدودها ، ثم كان السيف بعد هذا على رقاب من لا يدخلون فى هذا الدين .. هكذا ، وبكلمات محفوظة مرددة يقياس القوم بين تعليم الاسلام وحياة البادية فى جفافها ، وجفافها ، وجدبها ، وخشونتها . وجهلها ، وبدائيتها التى لاتبعد الانسانية فيها كثيرا عن عالم الحيوان الذى يعيش معها فى تلك البيئة ، حسب تصورهم هذا الفاسد الغبى .. !

فالقرآن — عندهم — فى أساليبه ، وأخيلته ، وأخباره ، وقصصه — هو صورة لحياة البادية ، وما يدور فى أخيلة القوم ، وما يجرى فى تفكيرهم ، وما يداعب أحلامهم ..

والتعاليم ، والأحكام ، والاداب والأخلاق ، التى حملها القرآن الى العرب ، هى مما دعت اليه ضرورات الحياة هناك ، واقتضته ظروفها .. هكذا يتخرص المتخرصون ، ويفترى المفترون !!

وقد كان للمشرقين دور كبير فى اذاعة هذه المقولات ، والترويج لها بين المسلمين وغير المسلمين ، والتسلط بها على عقول كثير من الشبان الذين تلقوا دراساتهم فى الجامعات الأوربية ، وكان هؤلاء المستشرقون يمثلون وجهها بارزا من وجوه العلماء الذين اطمأن اليهم هؤلاء الشبان وفتنوا بما رأوا فيهم من رهبانية ظاهرة للعلم ، ومن دأب وجد فى البحث والدرس ، وبما شهدوا من آثار جدهم ودأبهم فى تحقيق المخطوطات العربية ، وفى اطلاعهم على ذخائر لم يطلع عليها المتخصصون فى الشريعة الاسلامية أو فى اللغة العربية — كل هذا مما جعل الشبان العرب الذى درسوا فى جامعات الغرب ومعهاهدا يعطون ولاءهم المطلق لهؤلاء المستشرقين ، خاصة وأن الكثير من هؤلاء الشبان لم يكن على حظ يذكر من علوم الشريعة أو اللغة ..

وإذا كنا نحمد لبعض المستشرقين ما قدموا للدراسات العربية من أيداء كريمة ، وما بذلوا من جهود مخلصه ، فان بعضا منهم لم يخلص من الهوى ، ولم يستقم على طريق الحق ، فخلط حقا بباطل

واخلاصا بهوى ، فلبس ثوب الاستشراق ظاهرا ، و ثوب التبشير باطنا ..

فاذا سمعنا كلمة الحق من مستشرق ، كالفيلسوف « حب » . اذ يتحدث عن الاسلام ، فيقول : « الحق أن الاسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ، انه أعظم من ذلك كثيرا .. هو مدينة كاملة ..

« ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا : « العالم المسيحى » ، ولم نقل المسيحية .. ولقلنا «الصين» بدل أن نقول : «ديانة كنفوشيويس(١)» وهذا يعنى — كما يقول « جب » ان الاسلام نظام انسانى متكامل ، يجمع بين العقيدة والعمل ، والدين والدنيا .. فليس الاسلام — عقيدة وشريعة — مجرد كلمات سماوية مقدسة ، يتمثلها الانسان فى خاطره ، ويلم بها كما يلم الوثنى بقطع الأحجار التى يتخذ منها آلهة يعبدها ، ويرجو الخير منها ، وهو يراها رأى العين جائمة ، تخفق فوقها الرياح ، ويسفى عليها التراب . وتبول عليها الكلاب ! انه يعدها ويزدرىها فى وقت معا . ألم يعبد الأعرابى الصنم ، وهو يرى ثعلبا يبول عليه .. ثم ينقلب من مجئمه عنده ، وقد غلبته حرفة الأدب ، فلم يقدر على امسك لسانه عما جرى فى خاطره ، فيقول :

أرب يببول الثعلبان بوجهه

لقد ذل من بالت عليه الثعالب

هكذا كل المعتقدات التى لا تتجاوب مع الحياة ولا تملك المقدرة على التحرك فيها ، ومعايشة الناس معايشة تفتح لهم مغالق الخير ، وتسرلهم معالم الطريق اليه .. انها تظل فى واد ، والناس فى واد ، أشبه بمخلفات القرون الغابرة ، تحفظ فى المتاحف ، ولا يلتقى بها الناس الا فى صناديقها وتوابيتها ..

(١) وجهة الاسلام ، للفيلسوف « جب » ترجمة أبو ريدة .

وليس كذلك الاسلام .. انه حياة تملأ قلوب المسلمين وعقولهم ،
وتقيم معالم وجودهم ، وتنسج خيوط ديناهم ، وتضبط خطوات
مسيرتهم في كل متجه يتجهون اليه .. فما بلغه المسلمون من مجد
وعزة ، وما أقاموه من حضارة ومدنية ، هو مما أصابوه من آثار
الاسلام فيهم ، وما أستطاعت همهم أن تصل اليه من ثمراته ..

— تقول اذا كان في المستشرقين من ينتصف للحق ، كالفيلسوف
« جب » فان منهم من يتخفف كثيرا من الالتزام بما يفرضه الحق
عليه ، ويخون امانة العلم في جراءة ، غير متحرج ولا متأثم ..
فهذا المستشرق « جولدتسيهر » ، في حديثه عن القرآن ،
وفي معرض التعريض به ، كدستور كامل يحكم المجتمع الذى يدين
به — يقول : « ومن الخطأ الخطير أن ينسب الى القرآن أكبر القيم
في بيان طابع الاسلام بوجه عام .. كما أننا من باب أولى لا نستطيع
أن نؤسس حكما على الاسلام مستندين الى هذا الكتاب وحده ،
لدى الأمة الاسلامية (١) » .

والذى يريد أن يقوله « جولدتسيهر » هنا ، هو أن القرآن
ليس هو الذى حكم المسلمين ، وأقام دولة الاسلام ، وأنه لم يستطع
بأحكامه وآدابه أن يواجه الحياة الاسلامية كلها ، وأن يسد
الحاجات التى جدت في المجتمع ، بعد أن خرج العرب من الصحراء ،
وأن المسلمين قد اضطروا الى أن يخرجوا عن أحكام القرآن ، أو
أن يخرجوا نصوصه على ما يتسع لحياتهم الجديدة .. وهذا
ما يقوله « جولدتسيهر » صراحة تعقيا على مقولته السابقة ،
اذ يقول : « وهكذا يظهر غير صحيح ما يقال من أن الاسلام ، في
كل العلاقات جاء الى العالم طريقة كاملة ، بل مع العكس ، فان
الاسلام والقرآن لم يتمما كل شيء ، وكان الاكمال نتيجة
لعمل الاجيال اللاحقة ! » .

ويزيد هذا القول وضوحا فيقول :

(١) العقيدة والشريعة ، لجولدتسيهر ص ٤٤ .

« والقرآن نفسه لم يعط من الأحكام الا القليل ، ولا يمكن أن تكون أحكام شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلها ، مما جد بعد الفتوح .. فقد كان القرآن مقصورا على حالات العرب الساذجة ، ومعناها !! بحيث لا يكفى لهذا الموضع الجديد !! » .

ونقول دحضا لهذا الافتراء : ان القرآن حين التقى بالعرب فقد التقى فيهم بالانسانية كلها ، الانسانية السليمة التى حفظت البداوة عليها أكثر ما فى الانسان من خير .. فاذا شرع لهم القرآن حكما ، فانما يشرع للانسانية فى كل عصورها ، وفى أحسن وأعدل أحوالها ..

وخلق واحد من أخلاق العرب فى جزيرتهم ، يمكن أن تعيش به الانسانية فى أرقى المجتمعات ، وتبلغ به كل ما تنشد فى الحياة من عزة وقوة ، ونعنى بهذا الخلق الحرية ، التى هى ملاك أمر العربى كله ، حيث يرى العربى الموت دون أن يقبل ضيما ، أو ينزل على حكم أحد .. وإذا كان الاسلام قد خفف من غلواء هذه النزعة ، فانه أبقى على أصولها ، وجعل الناس جميعا على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات ، يستوى فى هذا الحاكم والمحكوم ، كما جعل الناس جميعا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم أمة واحدة ، تنسب الى أب واحد ، وأنه لا فضل لأحد على أحد بلون أو جنس ، أو مال ، أو جاه ، أو سلطان ، وانما الفضل بالتقوى والأعمال الصالحة ، التى تعود على الناس بالخير ، والنفع ..

والمجتمع الذى تحرر فيه ارادة الأفراد من كل قيد طبقى ، ومن أى تسلط من طبقة ، هو المجتمع الذى يبني الأمجاد ، ويقيم أعلى صروح المدنية والحضارة على قواعد ثابتة من الحق والعدل ، والاحسان ..

وندع هذا ، لنقف وقفه قصيرة مع أمور محددة ، يلهج بها كثيرا أولئك الذين يتربصون بالاسلام ، ويكيدون لأهله ، فيتحذون من هذه الأمور مادة للتغريب بالشبان ، والتشويش عليهم ، واستقبالهم بهذا الضلال ، وهم فى مرحلة لم يعرفوا فيها بعد حقائق دينهم ، ولم

يكن لهم من تجارب الحياة ما يفرقون به بين السليم والسقيم من الآراء ..

وأهم ما يشنع به هؤلاء المظلون على الإسلام :

أولا : الحدود التي فرضها الإسلام عقوبة لبعض الجرائم ..
كقتل القاتل ، وقطع يد السارق ، ورجم الزاني المحسن ، وجلد غير المحسن .

ثانيا : المرأة وموقف الإسلام منها فيما يتعلق بتعدد الزوجات والطلاق .

ونتكلم على هذه الحدود أولا ، ثم نعرض بعد ذلك للمرأة وموقف الإسلام منها .

أولا : الحدود في الإسلام

الإسلام نظام حياة ، قبل أن يكون مجموعة من الأحكام ،
والموصايا ، والأوامر ، والزواجر ..

فما غاية الإسلام من رسالته في الناس إلا ليقمهم على طريق
الحق والعدل ، والألا ليجمعهم على الرحمة والمودة والأخاء ، وأن
يصل بهم إلى مواطن الأمن والسلامة .

وقد كان من تدبير الإسلام في هذا أن بدأ بالإنسانية في أفرادها
إذ كان الأفراد هم البناء لكل مجتمع ، فربى الفرد هذه التربية التي
تجعل منه عضوا سليما صالحا ، في نفسه ، قابلا للاجتماع مع
غيره ، والاندماج بالجماعة ، دون أن يفقد شيئا من وجوده ، بل
أن هذا الاجتماع يمنحه قوى تزيد من قوته ، وتضاعف من ثمرات
جهده ، وتنتمى من مداركه ومعارفه .. « والضمير » هو الإنسان
مصغرا ، أنه تلخيص أمين للإنسان كله ، بخيره وشره ، فإذا صلح
الضمير صلح الإنسان ، وإذا فسد لم يكن للإنسان صلاح أبدا .

ولهذا عنى الاسلام العناية كلها بتربيته هذا « الضمير » والتمكين له في كيان الانسان ، واقامته على الصحة والسلامة ، حتى يكون في يقظة دائمة ، وفي قدرة على حراسة الانسان من أهواء نفسه ، ووساوس شيطانه .

والضمير أشبه بحاسة من حواس الانسان ، كالسمع ، والبصر والذوق ، والشم ، والمس .. ووظيفته الاحساس بما يقع في محيطه الانسان ، وتمييز الخير والشر منه ، ثم الاطمان الى الخير والرضا به ، والاتجاه اليه ، والتوجس من الشر ، والتأذى به ، والنفور منه ، والتجنب له .

ولقد كشف الرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — عن هذا الجهاز العجيب في الانسان ، وعن قدرته على ضبط ميزان كل من الخير والشر ، وذلك في قوله صلى الله عليه وسله : « البر ما اطمانت اليه النفس واطمان اليه القلب ، والاثم ما حاك في الصدر وتردد في النفس .. استفت قلبك ، وان افتاك الناس وافتوك » ..

وغاية الاسلام شريعة وعقيدة — هي أن يقوم هذا الضمير بمكانه الصحيح من الانسان وأن يظل على السلامة والقدرة على أداء وظيفته في كيان الانسان ، والتنبه لكل شر يرد عليه ، والتصدي لاغارته قبل أن ينفذ الى صميم الانسان ويتمكن منه .. ولأن هذا الضمير لا يمكن أن يكون دائماً على الصحة والسلامة في كل الناس ، ولا في جميع أحوال الانسان .. فكثير من الناس قد أصيبت ضمائرهم بأفة قاتلة ، فلم يعد له مكان في كيانهم ، أو أثر في حياتهم ، كما أنه مع وجود هذا الضمير ، ومع صحته وسلامته ، فإن أحوالاً كثيرة تلم بالانسان ، وتوسوس له بالسوء ، وتدعوه الى الاثم . ثم لا يقوى هذا الضمير على أن يحول بين الانسان وبين اقتراف الاثم ، والوقوع في الشر ..

ومن هنا كان من تدبير الاسلام — مع تقديره للضمير ، وللسلطان الوازع الذي يقوم فيه على الانسان — أن أقام مع وازع الضمير ، وازعاً آخر ، هو وازع السلطان الذي يساند وازع الضمير ، أو يقوم مقامه عند ضعفه ، أو فقدانه ..

فالناس هم الناس ، ان استقام بعضهم بوازع من ضميره .
فان كثيرا منهم لا يستقيم به ، وان استقام الانسان في حال ، فانه
قد ينحرف في حال ، او في كثير من الأحوال ..

ولهذا ، كان لابد من قيام وازع عام خارجي ، يمسك بتلابيب من
يفلت من رقابة الضمير ، وأخذه بالعقاب المناسب الرادع ، وبهذا
تكمل الرقابة على الانسان ، وتقتل الدائرة التي يمكن أن ينفذ منها
الى البغى ، والعدوان ، ومقارفة الآثام .. لهذا يقول عثمان بن
عفان رضى الله عنه : « ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن »
ذلك ان سلطان السلطان قائم في مواجهة الناس ، اذا أمسك
بمن يخرج على سلطانه أوقع العقاب الرادع في الحال .. أما
سلطان الضمير ، فهو سلطان غيبي ، لا يراه الا الذين يؤمنون
بالله ، وبالحساب والجزاء في الآخرة ، وعقابه مؤجل لا يخشاه
الا من كمل ايمانهم بالله ، وأيقنوا بالجزاء الأخرى حتى يكون غائبا
حاضرا بين أيديهم ...

والوازع المادى ، بالحدود التي فرضها الاسلام ، وازع حكيم ،
ورحيم معا يقوم سلطانه على هاتفين الدعامتين معا : الحكمة
والرحمة .. فبالحكمة ضبط ميزان العقاب ، فجعل لكل جرم
القدر الذى يناسبه من العقاب ، بلا مبالغة ، ولا تقصير ، وذلك
ليكون للعقوبة أثرها في ردع المذنب ، وزجر من تحدثه نفسه بالذنب ،
وفي ذلك حماية للمذنب نفسه من أن يعاود الذنب ، ويصبح داء
متمكنا منه ، كما أنه حماية للمجتمع من اشاعة الجرائم وتكاثرها
وتوالدها اذا لم تغلق أبوابها بهذا الزجر الرادع ..

وبالحكمة وبالرحمة درأ الاسلام الحدود بالشبهات ، فحيث
لاحت لولى الأمر شبهة تدخل على أى ركن من أركان الجريمة ،
دفع الحد عن المتهم بها ، وأخذه بالعتو أو التعزير ، حسب ما تدل
عليه دلالاته الحال من أمر هذا المتهم ..

والاسلام بهذا قد سبق أحدث قوانين العالم الوضعية التي
تفسر الشك لصالح المتهم .. يقول النبى صلوات الله وسلامه عليه

« ادعوا الحدود بالشبهات » .. ويعلق ابن تيمية على الحديث الشريف بقوله « أن إقامة الحدود من رحمة الله بعباده .. فيكون الوالى شديدا في إقامة الحد ، لا تأخذه رحمة في دين الله ، فيعطله . ويكون قصده رحمة الخلق ، بكف الناس عن المنكرات ، لاشفاء غيظه ، واردة العلو على الخلق .. فهو بمنزلة الوالد اذا أدب ولده .. فانه ان كف عن تأديب ولده يفسد الولد ، وانما يؤدبه رحمة به واصلاحا لحاله (١) » .

ومما يجب أن يذكر هنا ، هو أن الاسلام انما نصب هذه الحدود التي نصبها رعاية للشعور العام ، وحفظا لناموس الجماعة من أن ينتك أو يمتن بالخروج السافر عليه ، وبارتكاب الآثام جهرة في تحد واستخفاف بشعور المجتمع !

ومن أجل هذا ، فقد جعل الاسلام ، لهذه المنكرات عقوبتين : عقوبة دنيوية ، هي حق الجماعة على من اعتدى عليها ، وهتك مسترها ، واستباح حياءها ، وخرق ناموسها .. وعقوبة دينية يتولاها الله سبحانه وتعالى ، فان شاء عاقب ، وان شاء عفا . يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه « اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها ، فمن ألم بها فليستتر بستر الله ، وليتب الى الله ، فان من بين لنا صفحته ، نقم عليه كتاب الله » .

هذا ، وقداتهم المظلون ، أعداء الاسلام ، بأنه دين بداءة ووحشية ، لا يصلح أن يكون نظاما تعيش عليه الجماعات الانسانية المتحضرة ، ومن حججهم على هذا تلك الحدود التي فرضها الاسلام لجرائم القتل ، والسرقه ، والزنا ، وشرب الخمر ، وهم يشنعون على هذه العقوبات ، من حيث مقدارها ، ونوعها ، وأسلوب تنفيذها ..

وها نحن أولاء نعرض — في ايجاز — هذه الحدود ، واحدا،واحدا.

(١) السياسة الشرعية ، لابن تيمية ص ٤٦ .

١ - القتل :

فقتل القاتل عمدا ، هو عند أعداء الاسلام عمل فيه قسوة شنيعة على الانسان ، وانك لتراهم يحيلون الأمر هنا الى عملية حسابية ، في مجال الانتاج المادى ، وفي باب الربح والخسارة ! لا يحوجهم هذا الى أكثر من النظر الى قطعان الحيوان التى تعيش معهم .. فاذا نطح حيوان حيوانا فقتله ، لم يكن من الحكمة عندهم ، ولا من الخير لهم أن يضاعفوا الخسارة بقتل الحيوان الذى قتل غيره ، وان أقسى ما يفرض عليه هو أن يعزل عن بقية الحيوانات حماية لها من بطشه وشراسته .. انهم يسوسون القطيع الحيوانى بهذه السياسة ، فلم لا يساسس بها الانسان ؟ انه وما جدوى قتل انسان بانسان ، وقد مات الميت فليحي الحى !

ولكن حساب الاسلام غير هذا الحساب . انه حساب يقوم على الحكمة ، والحق ، والعدل ، والاحسان . وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : **« ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون »** (١٧٩ : البقرة) فالقصاص فى الاسلام ، وقتل القاتل حياة للانسانية وابقاء عليها ، وحراسة قائمة على رعوس البغاة والمعتدين ، ومن تحدثهم أنفسهم بالبغي والعدوان !

ان سلطان القانون ، لو تمكن بسلطانه أن يترصد كل قاتل ، وأن يمسك به ، دون أن يدخل عليه شعور بأنه قد يفلت ، وأن ينجو بفعلته فلا يراه أحد ، أو انه اذا أخذ لم ينج من القتل — انه لو أمكن ذلك لما أقدم قاتل على القتل ، ولعمل ألف حساب وحساب قبل أن يفعل فعلته ، ولكن القانون الوضعى مهما يكن من الاحكام والضبط لا يمكن أن يقضى على جريمة القتل ، حيث تنزع بعض النفوس الى البغى والعدوان ، وحيث يوسوس لها الهوى الغالب أنها تستطيع أن تفلت من رقابة هذا القانون ، وأن تخلص من يده اذا هى أمسكت بصاحبها ، بسبب أو بآخر .

فماذا ينكر المنكرون من أمر هذا الحكم الاسلامى فى قتل القاتل ؟ أن كثيرا من دول الغرب التى كانت قد حرمت الاعدام ، وقتل القاتل قد عادت اليوم لتأخذ به ، بعد أن تقشمت فيها جرائم

القتل ، وأصبح ازهاق الأرواح عملية يمارسها الناس باستخفاف ،
ولاوهى الأسباب ! والله سبحانه وتعالى يقول : « ولولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل
على العالمين » (البقرة : ٢٥١) .

٢ - السرقة :

وفي السرقة يرى أعداء الاسلام أن قطع يد السارق عقوبة
بربرية ، وحشية ، تصم الاسلام ، وتدينه ، وتضعه في قفص
الاتهام أمام محكمة المدنية والحضارة !!

وقدر هؤلاء فيما قدروا أن الحياة ستشهد المجتمع الذي تمضى
فيه هذه العقوبة ، وقد تحولت فيه الإنسانية الى مخلوقات شائهة ،
بهذه الأيدي المقطعة ، التي زابت أماكنها من الناس . كما وقع في
حسابهم أنه لو قطع من تضمهم السجون من السارقين لكانوا
أعدادا كثيرة من المشوهين الذين تتأذى بهم العيون ، وتآلم لهم
الضائر ، وتقل بهم الأيدي العاملة في المجتمع !!

ولا شك أن هذا حساب خاطيء ، قائم على نظرة غافلة أو
جاهلة ، أو مغرضة . . فلو أنه أقيم حد السرقة على الوجه الذي
شرعه الاسلام ، لما كان في الناس هذا العدد الذي يحترف
السرقة ، مستخفا بعقوبة السجن اذا هو ضبط متلبسا بما
سرق ، وما أكثر الذين سرقوا وحبسوا ، ثم سرقوا وحبسوا مرات
كثيرة ، دون أن يكون في السجن مزدجر لهم !

ولا نذهب بعيدا ، فنروى عن التاريخ ، وننقل ما سجلت صحف
الاسلام الأولى عن أثر هذه العقوبة التي فرضها الاسلام على
السارق ، وحسبنا أن نشير الى الجزيرة العربية الآن ، وهى تقيم
حد الشريعة على السارق وتقطع يده ، وكيف قضت هذه العقوبة
على جرائم السرقة قضاء تاما ، وأقامت أعراب البادية - وهم
أجراً من العقبان ، وأثرس من النسور - أقامتهم على سواء
السبيل ، فلا تمتد يد أحدهم الى ما ليس له ، ولو مات جوعا ،
ولو كان ما بين يديه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ملقاة
في العراء ، لا حارس لها ، ولا رقيب عليها !

هذا ، وليس ذلك التغليظ في عقوبة السرقة قسوة من الاسلام ، ولا استخفافا بالانسان ، أو استرخا صا لوجوده ، بل هو في حقيقته تكريم للانسان ، لل سارق والمسروق معا . . ففى هذه العقوبة الراصدة ، دعوة لمن تحدثه نفسه بالسرقة أن يصرف نفسه عن هذا المورد الذى لا يليق بكرامة الانسان ، ولا يرضاه مروءة الحر الأبى . وأن عليه أن يلتمس أسباب الرزق بالعمل ، وأن يأكل من سعيه وعمل يده ، وأن يكون أسدا يقتنص فريسته ، وألا يكون كلبا ، أو نبابا يسقط على فضلات الطعام ، ويقع على الجيف ! كما أن في هذه العقوبة تكريما للعامل ، وحماية لثمره عمله من أن تكون لقمة سائفة لأيدى الذين لا يعملون ، من ساقطى الهمم ، وخائرى العزائم . . فالسرقة اعتداء خفى على حرمة الانسان ، واستباحة لماله الذى هو بمنزلة النفس عند صاحبه . . وأنه إذا كانت المدنية الغربية قد استخفت بهذه الجريمة حتى مارست سرقة الأمم والشعوب — فان الاسلام الذى يحترم الانسان من حيث هو انسان ، ويرعى حرماته فى دمه ، وماله ، وعرضه ، كما يقول بنى الاسلام : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » — فان الاسلام لا يستخف بهذه الجريمة ، بل يضعها بموضعها بين الجرائم الغليظة ، ولا تأخذ رحمة فيمن لا يرحم أخاه الانسان ، فيأخذ ثمره عمله ويحرمه نتاج كده وجهده .

ثم ان السرقة لا تعتبر فى الاسلام سرقة توجب اقامة الحد وقطع اليد ، الا اذا كان المسروق شيئا ذا قيمة معتبرة فى حياة الناس ، وإذا أثر فى موقع النفع عندهم . . وقد كان يقدر ذلك فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بربع دينار . .

وهذا النصاب يقدر فى كل عصر بحسب قوته الشرائية . فربع دينار فى عهد النبوة قد يعدل دينارا ، أو أكثر ، أو أقل فى عصر آخر . . كذلك لا تعتبر السرقة سرقة موجبة للقطع الا اذا كان المسروق مالا محروزا ، كأن يكون فى جيب صاحبه ، أو فى مكان غير مطروق للناس فى بيته ، أو فى محل تجارته أو صناعته . فالثمر الذى يكون فى الشجر ، وفى العراء بلا حائط ، والمائشية التى لا راعى لها ، والمال الذى يضعه صاحبه على الطريق من غير حارس يحرسه ، كل هذا ونحوه لا يقام على سارقه حد ، ولكن يعزر ، ويضاعف عليه الغرم .

كذلك ما أخذ بالفم من ثمر على شجر ، وأكل ولم يحمل منه شيء ، فإنه لا قطع فيه ولا تعزير ، ومثله السرقة في أوقات المجاعات ، ليس فيها قطع ، وإنما فيها التعزير .

فهل بعد هذا ، يسمح عاقل لعقله أن يهذى ويهتر ، ويلقى التهم على الإسلام جزافا فيما فرض من عقوبة على السرقة ، بعد أن أقامها على هذا الميزان الحكيم ، الذى لا تأتى الأيام أبدا بما هو أعدل منه وأحكم ؟ .

٣ - الزنا :

وهذه الجريمة ينكرها الناس جميعا ، وتنكرها كذلك المدنية الغربية جهرا ، وترضى عنها سرا !!

وقد أنكرها الإسلام سرا وجهرا . وجعل سرها عنده كالجهر بها ، فى اعتبارها عدوانا على حدود الله ، واستباحة لحرماته . . ولكنه جعل الحد الذى أوجب أقامته على الزناة عقوبة دنيوية ، وذلك للتشنيع على هذه الفاحشة،ونكالا بالذين يخرجون على المجتمع هذا الخروج السافر بلاحياء،واستحياء حياته . . أما العقاب لمن يأتى هذه الجريمة سرا ، فهو الى الله تعالى يوم القيامة . . ان شاء عفا رحمة وفضلا ، وان شاء عاقب حقا وعدلا . . ومن جهة أخرى فان اباحة الزنا فى مجتمع أو تفشيه بين أفراده ، دون أن ينكره ضمير المجتمع أو يتأذى به شعوره - كان معنى ذلك ضياع الانساب ، وانقطاع صلة الأبناء بأبائهم ، وحل روابط الأسرة التى يقوم بناؤها على صلة الدم بين أفرادها. وكان من نتائج ذلك تصدع المجتمع ، وانهيار بنيانه ، حيث تموت فيه دواعى العمل للحاضر والمستقبل من خلال تلك العاطفة الأبوية ، التى تلح على الكائن الحى أن يعمل من أجل صفاره ، الذين يرى فيهم وجوده . . فكيف بالانسان وما خلق الله تعالى فيه من عقل وارادة ؟

من أجل هذا كان ذلك التشريع الإسلامى ، الذى يحمى به مجتمع المسلمين من الانهيار،والانحدار الى عالم دون عالم الحيوان

حيث أن كثيرا من الحيوانات يقوم اتصال الذكر فيها بالأنثى على حماية أنثاه من أن يتصل بها غيره من جنسه !

- وقد فرق الاسلام في حد الزنا بين المحصن ، وغير المحصن ..
- فالمحصن — أى المتزوج من الرجال والنساء — حده الرجم .
- أما غير المحصن ، ذكرا كان أو أنثى ، فحده الجلد مائة جلدة .

فاذا توافرت أركان الجريمة ، وثبتت ثبوتها قاطعا بشهادة أربعة شهود على أنهم رأوا من الزانيين ما يكون من الاتصال بين الزوج وزوجه ، أو كان ذلك باقرار الزانى على نفسه ، طائعا مختارا ، يريد أن يطهر بالرجم ، أو الجلد من هذا الاثم ، على أن يراجع في هذا الاقرار حتى يتكرر منه الاقرار أربع مرات — اذا توافرت أركان الجريمة ، وثبتت هذا الثبوت البين القاطع دون شسبهة وجب اقامة الحد ، رجما أو جلدا ، كما أنه لا يقام الحد على المقر اذا هو عدل عن اقراره ..

فاذا أقيم الحد رجما أو جلدا — وجب أن يكون علنا ، وأن يشهده طائفة من المؤمنين ، حتى تقع العبرة والعظة ، بما تحدث هذه العقوبة ، وهذا الفضح العلنى على رعوس الأشهاد ، من آثار نفسية زاجرة من تحدثه نفسه أن يقارف هذا المنكر ، وأن يعرض نفسه لمثل هذا الموقف ! وفى هذا يقول الله تعالى : « **الزانية والزانى ، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** » (٢ : النور) .

وهذه الآية خاصة بغير المحصنين ، أما المحصنون فقد جاء الحكم برجمهم بقول الرسول الكريم ، ويعمله .. اذ أن غير المحصن اكثر تعرضا للوقوع فى هذه الفاحشة ، وأكثر جراءة عليها ، واتيانها على هذا الأسلوب العلنى الذى يراه الناس فيه رأى العين !! .

أما المحصن ، وهو المتزوج ، فانه لا تتحكم فيه الشهوة تحكمها فى غير المحصن، كما أنه يجد من الحياء ما يردده عن المعالنة بهذا المنكر على رعوس الاشهاد ..

وقد اتخذ المفترون على الاسلام ما قرره شريعته من الجلد ، والرجم ، مع الفضح والتشهير ، لمرتكبي هذه الجريمة — اتخذوا من ذلك بابا واسعا يدخلون منه للطعن على الاسلام ، وعلى فقدان الجانب الانسانى فيه . . اذ كيف يبلغ به أن يجلد الانسان كما يجلد الحيوان ، ثم لا يكتفى بهذا بل يمثل به هذا التمثيل ، فيدعو الناس الى مشاهدته وهو يتلوى تحت سياط العذاب ؟ أما عملية الـرجم ، فهي عملية أشد بشاعة ، وأنكر نكرا من كل ألوان العقاب والعذاب . . فهذا رجل ، وتلك امرأة يرمى بهما أحياء في حفرة ، ثم تأخذهما الأيدي من كل جانب، رجمًا بالحجارة، حتى الموت !!

هكذا يقول المفترون على الاسلام ، دون أن ينظروا الى ذلك الانسان الذى وقع تحت هذه العقوبة ، والى أى مستوى حيوانى — لا انسانى — نزل اليه .

حقا ان العقوبة قاسية ، فيها اهدار لآدمية الانسان ، واستخفاف بانسانيته . .

ولكن أى انسان هذا الذى أهدر الاسلام آدميته ، واستخف بانسانيته ؟

انه لم يعد انسانا باقدامه على هذا الفعل على تلك الصورة ، التى يأبى كثير من الحيوان أن يفعلها علنا ، بل كثير من الحيوانات اذا اتصلت بانثائها حرصت على أن تذهب بعيدا بحيث لا تراها عين ، من انسان أو حيوان ! .

أما هذا الحيوان الآدمى . فقد تعرى من كل معانى الانسانية ، فلا حياء ، ولا عفة ، ولا مروءة ، بل فجور ، وتجرد من الحياء ، واستخفاف بالجماعة التى يعيش بينها ، فلا يكتفى بالعدوان على حرمة أحد أفرادها ، فى ستر وخفاء ، بل يأتى جريمته علنا على أعين الناس ، وكأنه فى حجرة مغلقة عليه ، وعلى زوجه !

ان الناس حين يرون كلبا علق بكلبة فى الطريق العام يرمونهمما بكل ما يقع لأيديهم من حجارة ، أو نحوها . هكذا بدون حساب

أو تقدير .. وهكذا ينبغي أن يفعل بالرجل والمرأة إذا رآهما الناس على تلك الحال . وغاية ما هناك هو أن يقادا الى ولى الأمر . وتقام عليهما الشهادة من أربعة شهود عدول ، ثم يقضى ولى الأمر بالحد الذى قضت به الشريعة فيهما ، ولا نحسب أن مجتمعاً من المجتمعات يقبل أن يرى هذا الفعل المنكر ، ثم لا ينكره بالعمل ، ويعجل بانفاذ العقوبة في مرتكبيه قبل أن يسوقهما الى ساحة القضاء !

ثانياً — المرأة في الاسلام

اننا لو أنصفنا الحقيقة — في جانب الاسلام — لما جعلنا للمرأة مكاناً في هذا البحث ، الذى ينتظم بعض قضايا الشريعة الاسلامية . اذ لم يجعل الاسلام للمرأة وضعاً خاصاً تنعزل به عن الكيان الانسانى ، ويكون لها بذلك وضع خاص ، وأحكام خاصة تصلح أن تكون قضية من القضايا .

والحق أن الاسلام لم ينظر الى المرأة نظرة تفرق بينها وبين الرجل الا في اضييق الحدود ، والا فيما يتصل بها كأنتى ، وبالرجل كرجل ..

فالمرأة في الاسلام انسان تحمل كل خصائص الانسانية كالرجل سواء بسواء ، وكما يخالفها الرجل في بعض الصفات التى تجعل منه رجلاً ، تخالفه هى أيضاً في بعض الصفات التى تجعل منها أنثى ، تماماً كما هو الحال فيما بين الذكر والأنثى فى عالم الأحياء .

ان الرجل والمرأة هما أصل شجرة الانسانية ، وما تفرع منها من فروع ، فهذا المجتمع الانسانى كله ، هو قسمة مشتركة بين الرجل والمرأة معا .. « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » (١٢ : الحجرات) .

فكيف مع هذا — يمايز الاسلام بين هذين الأصلين على حين سوى بين كل ما تفرع منهما من شعوب وأمم ؟

ان حكمة الخالق قد جمعت بين الرجل والمرأة جمعا لازما ، يكاد يكون اضطراريا يعلو فوق ارادة الانسان ، ليكون منها النسل الذى فيه حفظ النوع الانسانى وبقاؤه ! .

ولهذا الاجتماع الضرورى ، بل والاضطرارى بين الرجل والمرأة ، كان لابد أن يكون لأحدهما قيادة الجماعة التى يضمها الرجل والمرأة تحت جناحيهما ، من بنين وحفدة . . أنه لابد من قائد يقود تلك الجماعة ، حتى تجرى أمورها على اتجاه سليم ، فلا تتنازعها الآراء ، ولا تتشعب بها المسالك . . وإذا كانت الشريعة الاسلامية قد جعلت هذه القيادة للرجل ، فليس ذلك بالذى ينزل من قدر المرأة . وانما لأن الذكر أقدر على احتمال تبعات القيادة من الأنثى ، كما نشهد ذلك فى عالم الحيوان والطيور ، بصورة تكاد تكون عامة . .

ولا نقف طويلا عند موقف الشريعة الاسلامية من المرأة ووضعها الكريم فيها . . ويكفى أن تسوى الشريعة بينها وبين الرجل فى التكاليف الشرعية ، وفى الحساب والجزاء ، حيث يقول سبحانه: **«من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»** (٩٧ : النحل) .

ونحب أن ننبه هنا الى أن الوضع السيئ الذى صارت اليه المرأة فى المجتمع الاسلامى فى القرون الأخيرة — لم يكن وضعها خاصا بالمرأة وحدها ، بل هو الوضع الذى انحدر اليه المجتمع كله ، وما أصابه من ضعف ، وجهل . . فاذا كانت المرأة قد أخذت نصيبها من هذا البلاء ، فان الرجل قد أخذ نصيبا مضاعفا منه ! .

وانه يوم يعود للمجتمع الاسلامى وضعه الذى ينبغى أن يكون له فى ظل الاسلام ، فان هذه الصورة المعتمة المضطربة التى يراها الناس للمرأة ستتغير كثيرا ، حيث تنزع المرأة المسلمة كل هذه الاثواب المستعارة ، وتلبس ثوب الاسلام ظاهرا وباطنا ، ويومها يستر باطنها ما انكشف من ظاهرها . .

ونقف هنا من قضية المرأة فى الاسلام ، عند أمور ثلاثة :
تعدد الزوجات — الطلاق — الحجاب المضروب عليها .

١ - تعدد الزوجات :

من أبرز الأمور التي يشنع بها المفترون على الإسلام ، أن شريعتهم قد أباحت تعدد الزوجات ، بمعنى أن للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة الى أربع ، يمسك بهن في عصمته عدا ما يملك من إماء ، وإن بلغن المئات عدا !! .

وهذه لاشك صورة إذا أخذت على إطلاقها كانت امتهانا للمرأة ، وعدها سلعة من السلع أو متاعا من الأمتعة ، يغيره الرجل كما يغير ثوبه ! .

ولكن الذي ينظر في الشريعة الإسلامية ، متجاوزا عن تلك الانحرافات التي وقعت في تطبيقها ، يرى أن التعدد لم يكن أمرا تعبديا يتعبد به المسلم ، فيوجب على نفسه التزوج بأكثر من واحدة ليحقق بذلك شعيرة من شعائر دينه . . وإنما كان هذا التعدد رخصة يلجأ إليها الإنسان عند الضرورة ، أشبه برخصة التيمم عند المرض أو فقدان الماء ، وكرخصة الإفطار في رمضان في المرض أو السفر .

وإذن فالتعدد ليس أمرا محبوبا ، ولا مطلوبا لذاته . بل إن الاكتفاء بواحدة - لغير ضرورة - فيه السلامة والعافية للمرء في دينه . . وفي هذا يقول الله تعالى : « **وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ، وثلاث ، ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا** » (٣ : النساء) . . ويقول سبحانه : « **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وأن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفورا رحيفا ، وإن يفرقا يفن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما** » (١٢٩ - ١٣٠ : النساء) .

وهذا يعني أن إباحت التعدد ، لا تكون إلا مراعاة لظروف خاصة اقتضتها الظروف الاجتماعية ، أو الاقتصادية للمجتمع . .

فهذه الحروب التي هي سنة من سنن الحياة البشرية كثيرا ما تأتي على كثير من الرجال ، كما أن من سنة الحياة في الأحياء أن مواليدها

من الاناث أكثر من مواليدها للذكور كما هو مشاهد في عالم الطير والدواب ، والحشرات وغيرها حتى في النباتات .. وهذا وذلك شأنهما أن تتعدد الزوجات، فيكون للزوج أكثر من زوجة ، وفي ذلك حماية للنساء أن يقعن في حرج لا مخلص لهن منه إلا بأن يقضين العمر عانسات ، أو يقطعن الحياة عابثات لاهيات ..

ان التعدد هنا هو باب من ابواب الرحمة للمرأة قبل أن يكون وسيلة من وسائل المتعة للرجل ..

ثم نسأل :

اهناك في هذه الاباحة ما يرغب المرأة على أن تتزوج بمتزوج بامرأة أو بأكثر ؟ ان المرأة التي تقبل هذا ، هى في وضع اجتماعى أو اقتصادى ترى فيه أن زواجها من رجل متزوج بواحدة أو أكثر، خير لها من أن تظل بغير زواج .. !

كذلك المرأة المتزوجة ، ليس هناك ما يرغبها على الحياة مع رجل تزوج عليها بأخرى ، أو بأكثر ، بل ان لها أن تطلب الطلاق اذا تضررت بهذا الزواج ، عملا بالقاعدة الشرعية في الاسلام : « لا ضرر ولا ضرار » .

ثم نسأل مرة أخرى .. كم من الرجال تزوج بأكثر من امرأة مع اباحة التعدد ؟ انها نسبة قليلة جدا لا تكاد تذكر في المجتمع ، والتي تعد في حكم الشاذ الخارج على القاعدة العامة السارية في المجتمع كله ، وهى الزواج بواحدة ..

وننظر في الأثر النفسى الذى لهذه الاباحة في كل من الرجل والمرأة ..

فلقد تكون المرأة عقيما لا تلد ، أو قد تصاب بمرض لا تصلح معه للمعاشرة الزوجية ، ثم مع هذا تتحرك في الرجل دوافع الايثار ، والرحمة والمودة ، فيمسك بهذه المرأة ، ولا يطلقها من يده ، ولا يتزوج عليها ، وهو مع هذا راض سعيد بتلك المشاعر الانسانية التى استعلى بها على غريزته الحيوانية .. ولو أن هذا

الوضع كان امرا ملزما له ، بحيث لا يجد سبيلا للخلاص من تلك المرأة بالطلاق ، أو بالتزوج عليها ، لوجد أنه لم يعط شيئا من ذات نفسه ، ولم يكن منه ايتار أو تضحية . انه عبد لسultan هذا الحكم المزم له بالحياة مع امرأة واحدة ، لا يملك طلاقها ، ولا التزوج بغيرها .. ولا يقوم أبدا مثل هذا الشعور الخانق للانسان الذى يملك الطلاق ، وهو يمسك بامرأة عاقر أو مريضة ، ويؤثرها بحبه ورعايته ، ويذل لها من نفسه أكثر مما يبذل لها وهى فى حال اعتدالها وصحتها .. انه هنا انسان حر ، يملك التضحية والفداء حتى بروحه على مذبج الواجب والمبدأ ، وهو سعيد النفس ، قدير العين .. وكم ضحى المضحون بأنفسهم فى سبيل الواجب والمبدأ ؟ .

وقد يقول قائل هنا : اذا كان ذلك كذلك ، فما بال نبي الاسلام ، وكثير من صحابته قد تزوجوا مثنى وثلاث ، ورباع ، بل ان النبي قد تزوج عشر نسوة ، ومات عن تسع فى بيته ؟

وندع الان ما يقال فى زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذلك له حديث خاص ، بعد هذا .. أما ما يقال فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان ظاهرة تزوج أكثر من واحدة لم يكن أبدا عن نزعة المتعة الجسدية وقضاء الشهوة كما يثرثر بذلك الثرثارون ، وانما كان يقوم على أكثر من عاطفة انسانية ، ودينية معا :

فأولا : كثير من هذه الزوجات ، كان قد استشهد أزواجهن فى سبيل الله ، فكان الزواج بهن نوعا من العزاء الجميل لهن ، وقد شارك فى هذا العزاء زوجات هؤلاء الصحابة ، فلم يضقن بالزواج عليهن من مثل هؤلاء الزوجات ، بل أفسحن لهن مكانا كريما من قلوبهن ، وبيوتهن ، وآثرنهن بالمكان الأول عندهن . والشواهد على هذا كثيرة ، تملأ صحف التاريخ الصادق الموثق ! .

ثانيا : كان أكثر ما وقع من التزويج بأكثر من واحدة توثيقا لروابط المودة والاخاء بين صحابة رسول الله ، حتى يكون بيت كل منهم بيتا لصاحبة ، حيث يجد فيه ابنته ، أو أخته التى أصبحت زوجا لأخيه .. وكما آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين ،

ثم بين المهاجرين والأنصار ، كذلك وثق المهاجرون والأنصار هذا الأذى بالمصاهرات ، التي جعلت منهم جميعا أسرة واحدة ، وجعلت من بيوتهم بيتا واحدا لهم ..

وثالثا : كان من دواعى هذا التعدد أيضا الاستئثار من نسل المسلمين ، وتعويض ما فقدوه في الحروب وهم بعد أعداد قليلة في عالم الشرك والكفر . وهذا ما قصد اليه الرسول الكريم في قوله : « تناكحوا تناسلوا ، فانى مباح بكم الأمم يوم القيامة » .

هذا وليس التعدد شريعة الاسلام وحده ، بل هو شريعة الرسالات السماوية التي سبقت الاسلام وان كثيرا من أنبياء الله — صلوات الله عليهم — قد تزوجوا بأكثر من امرأة .. وهذا ابراهيم أبو الأنبياء قد تزوج بأمر اسحق ، وبأمر اسماعيل .. وهذا سليمان ، قد كان له — كما تقول التوراة في الاصحاح الحادى عشر من سفر الملوك — سبعمائة من النساء ، وثلاثمائة من السرارى !!

ب - الطلاق ..

بقيت مسألة الطلاق ، واباحة الشريعة الاسلامية له ..

ونقول ان اباحة الطلاق ، كإباحة التعدد ، كلاهما ليس على اطلاقه ، وانما هو محكوم بحكم الظروف والأحوال ، مقدر بقدر الحاجة ..

فالطلاق في الشريعة الاسلامية ، هو عملية جراحية حكيمة ، يجريها الاسلام حين تعتل الحياة الزوجية ، وحين لا تكون السلامة للأسرة مرجوة الا بهذه العملية التي تفصل بين الزوجين ، كما يفصل بين المريض بمرض معد وبين الجماعة التي يعيش فيها ، حتى لا تنتقل عداوه الى الجماعة كلها ، ويقضى عليها ..

ان الزواج شركة بين الزوجين ، رأس مالها هو حصيلة مايقدمه كل من الزوجين من عواطف الحب ، والمودة ، والحنان ، والرحمة ، المتبادلة بينهما ، وانه بغير هذا لا تقوم الشركة ، ولا تؤتى الثمر المرجو منها ..

فاذا وقع بين الشريكين خلاف ، ثم استحكمت هذه الخلاف — وهذا أمر مفروض وقوعه — ثم نتج عن هذا أن تحولت عواطف الحب والمودة والحنان والرحمة الى كراهية وجفاء ، وعداوة ، من أحد الزوجين أو كليهما — أفىكون من الحكمة مع هذا أن يلزم الزوجان الزما على الابقاء على هذه الشركة بينهما ؟

ان هذه الحال ، أمر يعرض للحياة الزوجية ، كما يعرض بين الاخوة والأصدقاء ..

والاسلام لا يخرج بالناس عن طبيعتهم ، ولا يحملهم على مالا تعطيه هذه الطباع ، فالتناس — وان كانوا أزواجا — هم بشر ، قد تطيب حياتهم على العشرة ، وترغرف عليها أعلام السعادة ، وهذا هو الغالب الأعم ، وقد تتعرض هذه العشرة لعارض ، يجعل منها ناراً يكتوى بها كل من الزوجين ، وهذا وان كان على غير العام المألوف ، فانه أمر واقع ، ينبغى أن يحسب حسابه ، وأن يلتمس الدواء المناسب له .

وليس الطلاق هو الدواء الوحيد الذى تقدمه الشريعة الاسلامية عند أى خلاف يقوم بين الزوجين ، بل ان هناك أدوية كثيرة مسكنة وملطفة ، وكثيرا ما يكون منها الشفاء والقضاء على هذا الخلاف .. فذا استنفد المرء كل هذه الأدوية ، ولم يكن فيها ما يسد هذا الخرق الذى اتسع على الرائق ، ولم يكن من الانفصال مفرر أباح الاسلام استعمال هذه الرخصة ، وتناول هذا الدواء وان كان برا ..

فأولا : جعل الاسلام الزواج نعمة من النعم الجليلة التى انعم بها على الانسان ، وجعل فى الزوجة السكن النفسى الذى لا يجده الانسان الا بالحياة معها ، فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢١ : الروم) .

وثانيا : نبه الاسلام الى ما فى الانسان من طبيعة ، لا تجد وجودها ، وكمالها ، الا مع اجتماع كل من الزوج والزوجة ، فقال تعالى : « وخلقناكم أزواجا » .. (٨ : النبأ) .. فكل من الرجل والمرأة ، لا حياة له ، الا اذا زواج بين حياته وحياة الآخر ..

وثالثا : لفت الاسلام ايضا الى نعمة الولد ، وما يجد كل من الرجل والمرأة من مشاعر الغبطة والرضا ، التي يضيفها الأولاد على حياة كل منهما ، وأن ذلك لا يكون الا اذا التقيا على الحب ، والمودة ، والرحمة والاحسان ، حتى يطيب هذا الثمر بما يتغذى به من المشاعر الطيبة المتبادلة بين الأبوين .. قال تعالى : « **والله جعل لكم من انفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين ، وحفدة ، ورزقكم من الطيبات** » (٧٢ : النحل) ..

ورابعا : تنهت الشريعة الاسلامية الى ما قد يقع بين الزوجين خلاف ، ولم تدع رخصة الطلاق لتحسم هذا الخلاف لأول بادرة تظهر منه بين الزوجين .. فدعا أهل الخير ، والاصلاح من أهل الزوجين أن يعملوا على تسويته ، بعد أن يجاوز هذا الخلاف محيط الزوجين ، وتردد أصداؤه في محيط أهلها .. وفي هذا يقول الله تعالى : « **وان خفتن شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، ان يريدوا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله عليما خيرا** » (٢٥ : النساء) ..

وخامسا : وبعد أن تستنفذ هذه الوسائل ، وقبل أن يصير الأمر الى الطلاق والحسم ، يشهر الاسلام في وجه الرجل هذا التحذير ، ويرفع لعينيه هذا النذير من الحظر الذي هو مقدم عليه ، والذي ينبغى أن يتردد طويلا قبل أن يخطو اليه .. وهذا ما يشير اليه الرسول الكريم — صلوات الله عليه — في قوله : « **أبغض الحلال الى الله الطلاق** » ..

وسادسا : واذا كان الاسلام قد أعطى الرجل رخصة الانفصال عن زوجته عندما تقسد الحياة بينه وبينها — فانه أعطى المرأة جواز الانفصال عن زوجها اذا ضاقت بها الحياة معه ، ومسها الضرر من معاشرته .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « **وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو أعراسا ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير** » (١٢٨ : النساء) .

والمراد بالصلح هنا ، هو ما تقدمه المرأة للرجل من تنازل عن صداقتها الذي أصدقه أيها ، أو عن نفقة عدتها ، أو حضانتها

مولودها .. وذلك حتى يخف على الرجل مصابه فيها ، وفي ماله
معا .. !

روى أن « جميلة » امرأة الصحابي الجليل « قيس بن ثابت »
جاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يارسول الله :
لا أجد في قيس بن ثابت عيبا من خلق أو إيمان ، ولكنى لا أجد في
طوقى مجاراته (١) فسألها النبي صلى الله عليه وسلم : هل تعيدين
اليه حائطه (٢) ؟ « فقالت : نعم ، فأمر النبي برد الحائط الى قيس
وتطبيقها » ..

هكذا الاسلام ، انه ينظر في شريعته الى الناس نظرة واقعية ،
بما فيهم من خير وشر ، وبما تتقلب فيه حياتهم من رضى وسخط ،
ومن حب وكره ، ومن صحة ومرض ..

فالطلاق رخصة قد جعلها الاسلام دواء من داء ، أو داء يستشفى
به من داء ..

وبعض السم — تـرياق لبعض

وقد يشفى العضال من العضال

وسوء استعمال هذه الرخصة ، لا يحسب على الاسلام ، وانما
هى أمانة دينية يحملها الانسان فيما حمل من أمانات دينه . ومطلوب
منه — دينا — الوفاء بهذا الأمانات وأدائها على الوجه الأكمل ،
فان فرط في الأمانة ، عد خائنا ، يلقي جزاء الخائنين عند الله .

ثم ماذا يفعل الاسلام غير هذا لعلاج ما قد يقع بين الزوجين من
عداوة وبغضاء ، تذهب بها الى حد الكيد ، وتدبير السوء ، للخلاص
من هذا العذاب الاليم دخل الحياة الزوجية ؟

(١) كان قيس بن ثابت رضى الله عنه يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يكاد
يحد وقتا يقضى فيه حاجة أهله معه .

(٢) أى بستانه الذى قدمه صداقا لها ، وسمى حائطا لأنه مما يحاط عليه
بسور ، فهو من تسمية الشيء باسم الظرف الحاوى له .

ثم انظر هذا في تدبير الاسلام لعملية الطلاق ذاتها .. انه لم يجعل الطلاق عملية تنتهي بضربة واحدة .. لم يفعل الاسلام هذا لانه يعلم خبايا النفوس ، وتقلبات القلوب ، فجعل عملية الطلاق تتم على ثلاث مراحل .. فيطلق الرجل امرأته طليقة أولى تظل بعدها زوجا له ، الى أن تنتهي عدتها ، فان كانت حاملا كانت عدتها الى وقت وضع الحمل ، وان كانت من ذوات الحيض كانت عدتها ثلاثة أشهر . ثلاثة قروء ، وان كانت من غير ذوات الحيض كانت عدتها ثلاثة أشهر . وهذه المدة كافية لان يراجع فيها كل من الزوجين نفسه ، وقد هدأت حدة الأمور التي كانت سبب الخلاف بينهما ، وهنا تسنح فرص كثيرة ، لاعادة الحياة الزوجية الى حالها الأولى من المودة والرضا ، ويرجع كل من الزوجين الى صاحبه ، وكان شيئا لم يكن ، الا انه قد حسب على الرجل طليقة من طلاقات ثلاث . فان جد خلاف بعد هذا ، وانتهى بالطلاق ، أصبحت المرأة بانئة بينونة صغرى ، أى أنه يجوز للرجل أن يعيدها زوجة له ، اذا قبلت هي ذلك ، على أن يكون هذا بمرحاضة جديدة برضاها ، وعقد جديد ، كأنه يتزوجها لأول مرة .. وفي هذا انذار للزوج ، وتحذير له من أن يخطو الخطوة الأخيرة ، التي ستكون أشد وقعا عليه من الخطوة السابقة ، وذلك انه اذا طلق امرأته هذه الطليقة الثالثة ، بانت عنه بينونة كبرى ، بمعنى أنها لم تعد أجنبية عنه وحسب ، بل أجنبية ومحرمة عليه أيضا ، حتى تتزوج زوجا غيره ، ويدخل بها ، ثم يموت عنها ذلك الزوج أو يطلقها ، وعندئذ يجوز له أن يتقدم لخطبتها ، فتقبل أو ترفض ..

وفي هذا يقول الله تعالى : **« الطلاق مرتان ، فامسك بمعروف أو تسريح باحسان »** (البقرة : ٢٢٩) .. وفي قوله تعالى : **« أو تسريح باحسان »** أدب اسلامى رفيع يتجه به الاسلام الى الرجل ليقيم على هذا الأدب الكريم ، بعد أن عاش في تجربة الطلاق مرتين مع امرأته .. فاما أن يمسكها بعد هذا على الاحسان والمودة ، واما أن يتركها تضى لسبيلها من غير كيد ، أو انتقام .. والله سبحانه وتعالى يقول في هذا الموقف الذى تضيق فيه النفوس ، وتبطل الخواطر : **« ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير »** (البقرة : ٢٣٧) .. ويقول سبحانه في هذا المقام الذى فسدت فيه علائق الزوجية ، ولم يعد ثمة سبيل الى اصلاحها :

« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة ،
واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن ياتين
بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم
نفسه ، لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فإذا بلغن أجلهن
فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف » (١ - ٢ : الطلاق)

ان للحياة الزوجية حرمتها ، وقداستها .. وانها في الإسلام
لشئ عظيم ، ينبغي أن يقوم على أساس متين من المودة والرحمة ،
والحب ، والحنان ، فان تصدع هذا البناء وجب أن يبادر الى
اصلاحه ، وتثبيت قواعده ، والتماس كل الوسائل التي تمسك به
راسخا ثابتا ، فان ازداد هذا التصدع اتساعا ، وأوشك هذا البناء
أن ينهار على من فيه ، كان من الحكمة الخروج منه ، ولو الى
العراء والطل .

روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه — رأى رجلا يهيم بطلاق
امراته ، فقال له : « لم تطلقها ؟ » فقال : لا أحبها ! فقال عمر :
أو كل البيوت بنيت على الحب ؟ فأين الرعاية والتزهم (١) .

من أجل هذا ، كان ما دعت اليه الشريعة الإسلامية من الإبقاء على
روح المودة والاحسان بين الزوجين ، وهما في موقف الفراق ، حيث
يأخذ كل منهما طريقته : « ولا تنسوا الفضل بينكم » .. وفي هذا
ما يقضى على ما في النفوس من موجدة ، أو حقد ، أو انتقام ،
مما انطلق من شرارات الخصام والخلاف الذي دب بين الزوجين
وانتهى بهما الا الانفصال ، فتفيء النفوس الى الرضا ، وتجد في
هذا شيئا من العزاء في هذا المصاب !

ومن هذا ما شرعه الإسلام من فرض نفقة للمطلقة ، وامساكها
في بيت الزوجية التي يعتبر بيتها الى أن تنتهي عقدة الزواج ، فهذا
لون من ألوان البر الرحيم ، وضرب من ضروب الصلة الكريمة ،
يصل بها الزوج وزوجه ، ويطيب بها خاطرها ، وكأنه اعتراف منه
بسابق مودتها وحبها .. « ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا

(١) التزهم ما يوجبه الانسان على نفسه ، من احسان تقضى به الروعة .

أن يأتين بفاحشة مبينة» (١ : الطلاق) .. فانظر كيف جعلت الشريعة الاسلامية العظيمة الحكيمة ، بيت الزوجية الذى توشك المرأة أن تتركه ، ولا تعود اليه — بينها هي دون الزوج ، فأضافه اليها ، وهى ضيفة فيه الى أجل محدود : « لا تخرجوهن من بيوتهن » فبيت الزوجية فى الشريعة الفراء ، هو أساسا بيت المرأة ، يضاف اليها وهى زوجة ، كما يضاف اليها وفى حال استعدادها للرحيل منه ..

ولا تنتظر فى هذا الذى يقوم بين الزوجين فى ساحات القضاء من مشاحنات ، ومكايد وتلفيفات فى مجال النفقة .. فذلك كله ليس من الاسلام ، ولا من شريعة الاسلام فى شئ ، وانما هو من آفات الانسانية ومن شرورها الكامنه فيها ..

ان « النفقة » التى شرعها الاسلام للمطلقات تكشف عن انسانية هذا الدين ، وعن شفافية روحية مشرقة فى احكامه .. فهى فى مضمونها تعبير عن أرق المشاعر الانسانية وأصفاها فى هذا الموقف الذى تظلم فيه النفوس ، وتضطرب الخواطر ، وتحقد الصدور .. وانها لو جاءت على الوجه الذى شرعه الاسلام ، لكانت بلسما شافيا ، ونسمة ندية علية فى سموم هذا الجو اللائح المحرق !

ج - المرأة والحجاب :

الحجاب فى اللغة من الحجب ، وهو ستر الشئ وحجبه عن الأنظار ، أو هو الحاجز بين شيئين . بحيث يحول بين اتصال احدهما بالآخر . كما يقول سبحانه فى أصحاب الجنة وأصحاب النار : « وبينهما حجاب » (٤٦ : الأعراف) .

وقد فهم الحجاب الذى شرعه الاسلام للمرأة فهما خاطئا فى عصور التخلف والضعف التى مرت بالمسلمين ، حتى لقد كادت المرأة — فى ظل هذا الفهم — تكون من عالم آخر غير عالم الرجل ، لا تجمعها جامعة الانسانية ، ولا تؤلف بينهما وحدة الطبيعة !!

وهذا فوق أنه ظلم للمرأة ، وعدوان عليها — هو ظلم للرجل ، الذى عطل تلك القوة التى أودعها الله فى المرأة ، لتشارك بها

الرجل في حمل أعباء الحياة ، وفي اقامة معالم العمران على هذه الأرض ، لتحقيق خلافة الانسان عليها ..

والذى ينظر الى الشريعة الاسلامية يجد المرأة فيها قسمة الرجل في كل شيء . مما تتقلب فيه الإنسانية ، وما يصيبها في تقلبها من خير أو شر ..

فحين خلق الله آدم واسكنه جنته ، وجد آدم المرأة تقاسمه الحياة في تلك الجنة ، وتبدأ معه الخطوات الأولى في الحياة .. وهذا أول أمر تكلفى من الله تعالى لآدم ، لا يوجه اليه وحده ، بل تشاركه زوجه تلقى هذا التكليف ، وتحمل منه مثل ما حمل .. يقول الله تعالى : **« ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »** (١٩ الاعراف) .

ثم اذ يكيد ابليس لآدم . واذ يوسوس له بعصيان ربه ، والاكل من الشجرة التى نهى عن الاقتراب منها . والاكل من ثمرها — فان ابليس — لعنه الله — لا يرى لكيد ائرا اذا هو اتجه به الى آدم وحده ، فقد يكيد لآدم كيدا فتنفسه زوجه ، وتواجه كيد الشيطان بكيد .. ولهذا كان من كيد ابليس أن يكيد لآدم وزوجه معا .. يقول الله تعالى عن ابليس وكيدته : **« فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما . وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفاً عليهما من ورق الجنة »** (٢٠ — ٢٢ : الاعراف)

ثم اذ يفرر ابليس بآدم وزوجه هذا التفرير ، فيأكلان من الشجرة ، ويقعان في المعصية فانهما يتلقيان معا من ربهما هذا اللوم المعاتب الزاجر ، الذى يقابلانه بالندم ، والاعتراف بالذنب ، وطلب المغفرة من رب غفور رحيم : **« وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلك الشجرة ، وأتل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين .. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »** (٢٢ — ٢٣ الاعراف) .

ثم اذ يجنى الزوجان ثمرة هذه المعصية ، واذ يخرجهما الله تعالى من تلك الجنة ، التي أسكنهما الله تعالى اياها — يحملان أمر الله سبحانه اليهما الذى يقول فيه لهما جل شأنه : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ، قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » (٢٤ — ٢٥ : الاعراف) .

واذ يخرج آدم وزوجه من جنتهما تلك ، التي كانا فيها فى عافية من حمل الأمانة ، أمانة التكليف ، وما يتبعها من حساب وجزاء — فانهما يبدعان مسيرة الحياة معا ، ويتقدمان موكب مواليدهما من الانسانية ، من بنين وبنات ، جيلا بعد جيل .. يتزاوجون ، ويتوالدون ، ذكرانا واناثا ، واذا الانسانية كلها آدم ، ممثلا فى الرجال ، وزوجة ممثلة فى النساء .. واذا الرجال والنساء على الأرض ، هما آدم وزوجه فى الجنة ، مع فارق واحد ، هو حمل التكليف ، ومعاناة الأعباء ، ومقاساة العيش فى هذه الدنيا .. الأمر الذى تصبح فيه المرأة اشد لزوما للرجل ، حيث لا تعمّر دنياه ، الا بها ، ولا تسير قافلته الا بيدها التي تدفع مع يده عجلة الحياة !

فكيف يساغ اذن — مع هذا — أن يختفى وجه المرأة من هذه الحياة ، وأن يقوم بينها وبين الرجل هذا الحائط السميك من « الحجاب » الذى يفصل بينهما ، ويجعل منهما عالمين ، يعيش كل منهما فى عالمه ، معزولا عن الآخر ؟

وكلا ، فان حكمة الحكيم العليم ، لا تلتقى مع هذا الوضع ، الذى يدفع المرأة عن هذا المكان الذى تقاسم فيه الرجل خطواته فى الحياة ، خطوة خطوة ، وتقتسم معه أنفاسها نفسا نفسا ..

وان أى تشريع سماوى لا يعترف فيه أتباعه بمكان المرأة مع الرجل ، وبمشاركتها الحياة معه ، مشاركة تحقق فيها انسانيتها ، وتبرز فيها معالم تلك الانسانية من مدركات ، ومشاعر ، وأحاسيس ، مثل الرجل سواء بسواء — ان أى تشريع سماوى ، لا تقوم فيه المرأة بين أتباعه بهذا المقام ، هو تشريع قد أسوء فهمه ، وانحرف تأويله ، أو حرفت كلماته ، وبدلت تعاليمه وأحكامه !!

وهذا كتاب الشريعة الإسلامية ينطق بآياته البيّنات المحكمات ،
التي تضع المرأة والرجل على كفتى ميزان ، سواء بسواء ، لا يرجح
فيه أحدهما الآخر ، فيما هو مناط بهما من أحكام الشريعة
وآدابها ..

فالإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر —
هذا الإيمان هو دعوة الله تعالى إلى الرجل والمرأة معا ..

والعبادات ، التي تعبد الله تعالى بها عباده من صلاة ، وصيام ،
وزكاء ، وحج ، هي تكاليف شرعية ، للرجال ، وللنساء ، وهي
أمانة مطلوب من كل من الرجل والمرأة أداءها ، والوفاء بها على
الوجه الذي أمر الله تعالى به ! فمن أداها محسنا أداءها نال
رضوان الله في الدنيا والآخرة ، وكان أهلا لجنته ، وما فيها من
نعيم مقيم ، ومن غفل عنها ، أو قصر فيها ، كان حسابها ،
وجزأؤه على قدر غفلته أو تقصيره .. يقول الله تعالى في كتابه
الكريم : « **ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ،
والقانتين والقانتات ، والصابرات ، والصابرات ،
والصائمات ، والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ،
والذاكرين الله كثيرا والذَكَرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما** »
(الأحزاب : ٣٥) .. ويقول جل شأنه : « **من عمل صالحا من ذكر
أو أنثى وهو مؤمن فلنجيبه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن
ما كانوا يعملون** » (النحل : ٩٧) ويقول تبارك اسمه : « **ومن عمل
صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون
فيها بغير حساب** » (غافر : ٤٠) .. ويقول سبحانه : « **فاستجاب لهم
ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من
بعض** » (آل عمران : ١٩٥) .

ثم ان الشريعة جعلت الرجل والمرأة ذمة واحدة ، في مقام الولاء
والعداوة ، حيث تناظر المرأة الرجل ، وتحاسبه بما يحاسب به ،
وتجازى بما يجازى به ..

ففى مقام الولاء يقول الله تعالى : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم
أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** » (التوبة : ٧١)

ويقول سبحانه : ((والذين يؤمنون المؤمنون والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً)) (٥٨ : الأحزاب) ويقول تبارك اسمه : ((هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ، ليدخل الله في رحمته من نساء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً)) (٢٥ : الفتح)

وفي غير مقام الولاء والايمان ، يجرى الأمر على هذا التقدير ، مع الرجل والمرأة على السواء .. فيقول سبحانه : ((المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم)) (٦٧ : التوبة) ويقول جل شأنه : ((وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها)) (٦٨ : التوبة) .. ويقول تبارك اسمه : ((لعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات)) (٧٣ : الأحزاب)

وهكذا تناظر المرأة الرجل ، وتزاحمه بمنكبتها في كل موقف يقفه في مقام الخير والشر على السواء .. ومن هذا يبدو أن الفهم الصحيح للشريعة الإسلامية ، والتطبيق السليم العادل لأحكام هذه الشريعة ، يقيم المرأة في المجتمع الإسلامي مقاما كريما ، تجد فيه وجودها الإنساني كله غير معوق ولا معطل ..

وشهادة التاريخ في تلك الفترة المشرقة من حياة الإسلام في عصر النبوة ، وفي فترة الخلفاء الراشدين من بعده — هذه الشهادة تنطق بأجلى بيان ، وتحدث بأوضح أسلوب عن الدور العظيم الذي قامت به المرأة في الخطوات الأولى للإسلام ، التي كان يخطوها أتباعه على أرض مليئة بالأشواك . محفوفة بالمخاطر والأهواء ، لينفذوا بهذا النور السماوي الذي استضاءت به قلوبهم ، ويحاول المشركون في اصرار وعناد أن يطفئوه ..

كانت المرأة في هذا الدور من الدعوة من أهل السبق الى الإسلام ، بل كان من أول السابقين اليه ، والوقوف الى جانب الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — من أول يوم تلقى فيه اشارة السماء ، ليكون رسول الله ، ورحمته للعالمين .

ولعله لا يخلو من سر هذا الحدث الذى كان يوم سمع النبى
الكريم ، صوت السماء ، يناديه ، فكان مفزعه — صلوات الله
وسلامه عليه الى المرأة ، وهى زوجة السيدة خديجة رضى الله
عنها ، وكانت هذه السيدة أول انسان صدق بمحمد ، واستجاب
له ، وآمن به ، ودخل فى دين الله معه !

وهكذا يقوم بناء المجتمع الاسلامى الاول على أساس قوامه رجل
وامرأة .. نبى ، وامرأة نبى ! ومن يدرى .. فلعل هذا الذى يبدو
من قيام الدعامة الأولى للإسلام على النبى وزوجه ، على الرجل
والمرأة — لعل هذا يبدو أنه حدث عرضى ، أو اتفاقى ، هو أمر من
أمر الإسلام ، وخصيصة من خصائصه ، وسر من أسرارها ، إذ كان
— وهو الدين القائم على الفطرة — حريا به بأن يولد هذا الميلاد
الطبيعى من رجل وامرأة ، كما يولد أتباعه من رجل وامرأة ، من
زوج وزوجة !!

ثم تضى المرأة بعد هذا فى سيرها موكب الدعوة الاسلامية ..
خطوة خطوة ، تراحم الرجل بمكبتها فى البذل والجهاد ، والتضحية ،
وبالبلاء ، فى سبيل العقيدة ، وفى الدفاع عن مقامها حيث استقرت
فى القلب المؤمن بها ..

ففى هذا الابتلاء الذى ابتلى به السابقون الأولون الى الإسلام
— كانت المرأة الى جانب الرجل ، تتلقى فى شجاعة ، وإيمان ،
وصبر كل ما كان يصب عليها من عذاب ، وما تتعرض له من فتنة ،
ومن استحياء لحياتها كأنتى . دون أن تتحول عن موقفها ، أو حتى
نعطى كلمة الكفر بلسانها .. وقد سجل تاريخ الإسلام قبل الهجرة
مواقف بطولة للمرأة عز على كثير من الرجال أن يقفوها فى هذا المقام .
وأن يثبتوا عليها هذا الثبات الراسخ .. ونذكر هنا أم عمار بن ياسر
التي ظلت تحت وطأة التعذيب الجسدى والنفسى ، الذى تجد مسه
فى كيانها ، وتشهده فيها وفى ابنها وزوجها ، حتى ماتت تحت وطأة
هذا العذاب ، ولفظت حياتها نفسا نفسا ، حتى لقد ضاق معذبها
من هذا التحدى العنيد الذى امتد زمنه ، فأنتهى حياتها بطعنة من
حريته فى موضع العفة منها .. ولسنا نشك فى أن هذا الموقف من
« سمية » امرأة ياسر ، وأم عمار بن ياسر — لا نشك فى أن موقفها

هذا البطولى الفريد ، قد أعطى زوجها وابنها ثباتا وعزما استطاعا به أن يحتملا العذاب ، وأن يقفوا في وجه سادة قريش ، وأن يذلا كبرياءهم ، وينزلا بهم تلك الهزيمة الفاضحة !!

ثم اذا كانت الهجرة التى اذن فيها الرسول للمؤمنين ان يفروا الى الله بدينهم ، وأن يخرجوا من دائرة هذا الاعصار العنيف الذى يفهم فى مكة — اذا كانت تلك الهجرة للمؤمنين ، أخذت المرأة مكانها فيها مع المهاجرين ، وكانت مثلا فذا فى التاريخ فى التضحية والفداء . فخرجت مهاجرة ، تاركة الأهل والزوج ، والولد ، لم تغلبها عواطف الأمومة ، أو الزوجية ، أو الأبوة ، أو الأضواء — على عقيدتها ، بل مضت الى هجرتها ، ثابتة الخطا ، قوية الإرادة ، مشدودة العزم ، وألقت بنفسها فى هذا الطريق الوعر الطويل ، غير مبالية بما تلقى على هذا الطريق ، ولا بما تنتهى اليه غايتها فى هذا الوجه المجهول !

ولقد وجد الرجال الذين أزمعوا الهجرة من استجابة زوجاتهم لهم وصحبتهم فى هذه الغربة ، ما خففت عنهم فراق الأهل والموطن ، فلم يترددوا ، ولم يتلبثوا !

ويحصى تاريخ الاسلام فى هذا الموقف أعدادا من النساء المهاجرات ، يتماثل أو يتعادل مع أعداد الرجال . .

وفى الهجرة الى الحبشة ، وهى أول هجرة للمسلمين ، وأبعدها شقة ، وأقساها امتحانا — فى هذه الهجرة كان عدد المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، بما فيهم الذين لم يتزوجوا بعد ، أو الذين ماتت زوجاتهم ، وكان عدد المهاجرات من النساء فى صحبة أزواجهن تسع عشرة امرأة ، على رأسهن رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجها عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، كما كان من بين المهاجرات ثلاث تزوج بهن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فيما بعد ، مواساة لهن ، وعزاء فى مصابهن فى أزواجهن ، وهؤلاء هن أم سلمة بنت أمية بن الغيرة ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعة ، رضى الله عنهن .

وفي الهجرة الى المدينة ، كان المهاجرات المؤمنات يسابقن الرجال ، وكثير منهن فارقت زوجها وولدها وأهلها مهاجرة في سبيل الله ..

وفي غزوات الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — كانت نساء المؤمنين من المهاجرات والأنصاريات قوة من قوى الحق ، في ميدان القتال ، يشددن ظهر الرجال ، ويبعثن في قلوبهم العزم والمضاء ، ويضمنن جراح الجرحى ، ويحملن الماء يطفن به صفوف القتالين ، ثم اذا أصيبت المرأة في ابنها أو زوجها أو أخيها لم تجزع ، ولم تيأس لما أصابها ، بل تصبر الصبر الجميل ، مستبشرة بما وعد الله الشهداء من حياة طيبة في دار الخلود .. وكان ذلك مما يقوى من عزائم الرجال ، ويثبت أقدامهم في ميدان القتال ..

ثم اذا خرج الاسلام من هذا الامتحان ظافرا منتصرا ، وجاء نصر الله والفتح ، دخل الناس في دين الله أفواجا — لم تكن المرأة قعيدة بيتها ، ولم تجعل هذا الدور أول وآخر صفحة في حياتها ، بل ظل وجهها في المجتمع الاسلامي بارزا مشرقا ، فكانت المرأة تعمّر بيت الله ، وتستمع الى رسول الله ، وتتفقه في دين الله ، وتفتى وتستفتى ، وتلقى الرجال غادية ورائحة ، وتعرفهم ويعرفونها ، وتستخبرهم ويستخبرونها .. هكذا شأن المرأة في عصر النبوة ، وعصر الخلافة الراشدة من بعده ، ثم امتد ذلك الى العصر الأموي كله !

فلم يضرب الاسلام الحجاب على المرأة ، ولم يجعلها حبيسة بيتها وقعيدة دارها ، بل فتح لها أبواب الحياة كلها ، تدخلها بابا بابا ، شأنها في هذا شأن الرجل على سواء .. لا تستصحب معها الا دعوة الاسلام لها ، وللرجل ، بالتعفف ، والتصون ، والتوقى لحرّمات الله ..

والحجاب الذي ضربه الاسلام على المرأة كان خاصا بنساء النبي وحدهن ، دون نساء المسلمين ، وذلك أدب سماوى اختصهن الله تعالى به ، لمقامهن الذى كان لهن بزواجهن من رسول الله ، وقد جعل الله تعالى لهن في مقابل ذلك أجرا مضاعفا ليس لغيرهن من النساء ، وكأنه في مقابل هذا التكليف الخاص بهن ..

وفي هذا يقول الله تعالى مخاطبا نساء النبي : « ومن يقنت منكن لله ورسوله ، وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعنتنا لها رزقا كريما .. يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا ، وقرن في بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (٣١ - ٣٣ : الأحزاب) .

ويؤدب الله تعالى المؤمنين بهذا الأدب الخاص مع نساء النبي ، فيقول سبحانه : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » (٦ : الأحزاب) .. وتقوم هذه الأمومة المعنوية الروحية مقام الأمومة الحقيقية الولاوية ، فيحرم على المسلمين أن يتزوجوا نساء النبي من بعده ، فيقول سبحانه : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده ابدا .. ان ذلكم كان عند الله عظيما » (٥٣ : الأحزاب) ..

ومع قيام هذه الأمومة الروحية في نفس المؤمنين ، فانها لا تسمح لهم بما تسمح به أمومة الولادة ، مما يكون بين الأبناء والأمهات من اختلاط ، بل يظل الحجاب قائما بين المؤمنين ، وأمهات المؤمنين ، أزواج النبي .. وفي هذا يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعتم فانتشروا ولا مستاتنين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن » (٥٣ : الأحزاب) ..

فهذا هو ادب السماء الى نساء النبي خاصة ، وما ينبغى لهن في أنفسهن ، وفي نفوس المؤمنين جميعا من رعاية هذا المقام العظيم لبيت النبوة ، وما ينبغى أن يكون عليه من طهر وقداسة ، وما يجب أن يقوم عليه من حماية ووقاية تباعد بينه وبين مظنات التهم وقاتلات السوء من المنافقين ، وممن في قلوبهم مرض .. والله سبحانه وتعالى قد اراد لهذا البيت الكريم أن يبرا من كل دنس ،

وأن يسلم من كل رجس : « **انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس**
اهل البيت ويطهركم تطهيرا » (٣٣ : الاحزاب) ..

وليس لهذا الحكم الجزئى المحدود بهذه الحدود الضيقة —
زمانا ، ومكانا ، وأشخاصا — والذي لا يجاوز بيت النبوة ،
ونساء النبى — ليس فى هذا ما يؤثر فى حياة المرأة ، أو يعطل
أية قوة من قواها ..

والاسلام اذ يدعو المرأة الى التعفف والتصون ، حفظا لدينها ،
وحماية لشرفها ، واعتزازا بكرامة انسانيتها — فانه لا يقصر هذه
الدعوة على المرأة وحدها ، بل يبدأ بالرجل أولا ، فيدعوه الى
التعفف والتصون ، حفظا لدينه ، ومروءته ، وشرفه ، وكرامة
انسانيته .. فالمرأة ليست الا طرفا فيها يقع فى المجتمع الانسانى
من فاحشة .. حيث لا تتم الفاحشة الا بالتقاء الرجل والمرأة معا على
اقترافها .. وفقدان طرف من هذين الطرفين — الرجل والمرأة —
يحول دون وقوع هذا المنكر ..

ومن الواضح أن الرجل هو الذى يطلب المرأة . ويدعوها اليه ،
ويطرق الأبواب المختلفة للوصول اليها ..

ومن الواضح أيضا أن المرأة اذا تبذت للرجل فى صورة غير
مجملة بالوقار والحشمة ، وظهرت له فى ثوب من الخلاعة والتهتك
— كان ذلك دعوة — من طرف خفى له — اليها ، والى الطمع
فيها .. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى فيما أدب به نساء النبى :
**« يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، ان اتقنن فلا تخضعن
بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا**
(٣٢ : الاحزاب) .. فالكلام اللين من المرأة ، وأن صدر
من قلب سليم ، فانه يطمع من الرجال من كان فى قلبه مرض ..

ولهذا كانت دعوة القرآن الى الرجال أولا ، بغض البصر ،
وحفظ الفرج .. ثم كانت دعوته الى النساء ثانيا ..

فاذا أمر الله تعالى المؤمنين بقوله سبحانه : **« قل للمؤمنين**

يفضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم أن الله خبير
بما يصنعون» (٣٠ : النور) ..

— إذا أمر الله تعالى المؤمنين بهذا ، جاء أمره الى النساء
المؤمنات بقوله جل شأنه : « وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ
وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » ..

ثم يجيء وراء هذا الأمر ، أمر آخر ، خاص بالنساء .. ذ يقول
سبحانه : « وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ، أَوْ آبَاءِ
بُعُولَتِهِنَّ » الآية (٣١ : النور) .

والمراد بالزينة التي تحجبها المرأة عن أعين غير محارمها ، هو
ما يفتن الرجال منها ، ويفريهم بملا العين من مفاتها ، الأمر
الذي تهب منه ريح الخطر ، التي قد تلف كلا من الرجل والمرأة في
ضباب الفاحشة ..

ومن هنا كان ما فرضه الاسلام على المرأة من ستر كل ما يفري
الرجل بها ، سواء أكان ذلك من جسدها ، أو من مشيتها ، أو
من لين كلامها ، أو من ملامح وجهها ، أو اشارة عينها .. الى غير
ذلك مما يطمع الذين في قلوبهم مرض فيها ..

والذي ينظر في الزى الاسلامى الذى ينبغى للمرأة أن تنزى
به ، بحيث يستر جسدها ، ويغضى رأسها ، فلا ينكشف منها
الا وجهها وكفها ، وقدمها — الذى ينظر في هذا الذى يرى أنه
دعوة من دعوة الفطرة ، قبل أن يكون أمرا من أوامر الدين ..

فالتبيعة تدعو الأنثى أن تتمنع على الذكر ، وأن تقيم بينه
وبينها أكثر من حجاب ساتر ، حتى تظل دائما مطلوبة له ، بحيث
عنها ، ويعانى في سبيل الوصول اليها .. فاذا وصل اليها بعد
شوق ومعاناة ، كانت عزيزة عليه ، كريمة عنده ، وليس كذلك الأمر
إذا وجدها بين يديه ، سهلة المنال ، قريبة المأخذ ..

هكذا الشأن كل ثمرة يقطفها الانسان .. أنه اذا نالها بعد
جهد وعناء ، امتلأت نفسه ، عزازا لها وحرصا عليها ، ورغبة
فيها .. وان نالها بغير جهد ، زهد فيها ، وزوى وجهه عنها !

ذلك ما وهبته الطبيعة للأنثى ، من التأبى على الذكر ، والتمنع عنه ، والتخفى له ، ليكون لها من ذلك قوة تقابل بها قوة الذكر ، فلا تستسلم له الا بعد أن تتقطع أنفاسه قبل أن يصل اليها .. نرى ذلك فى عالم الحيوان ، من وحش وطيء .. كما نراه فى المجتمعات البدائية التى تسكن الحيوان فى الغابات والادغال !

فاذا خرج الانسان من هذا التطور ، الى طور المدنية والحضارة ، لم يكن له أن يخرج عن فطرته ، التى هى ملاك وجوده .. وبالتالى لم يكن للمرأة كأنثى أن تخرج عن فطرتها التى تدعوها الى أن تقف من الرجل موقف التمتع والتستر والتخفى !

فما جاء به الاسلام اذن من دعوة المرأة للتزوى بهذا الذى الذى تستر به مفاتها عن الرجال — لم يكن الا ليحفظ به على المرأة فطرتها ، ويبقى على انوثتها ، ومكانتها فى قلب الرجل .

وبين أيونا شواهد كثيرة لهذا ..

ففى الهند ، والصين ، واليابان ، واندونيسيا ، وغيرها من بلاد الشرق ، التى لم تقسد المدنية الغربية فطرة الناس فيها ، نرى المرأة فى هذه المواطن تتزوى بزى الفطرة ، الذى يكاد يكون صورة مطابقة للذى الذى يدعو اليه الاسلام ، النساء المسلمات !

وكان من اثر هذا أن ظلت الأسرة فى هذه المواطن قوية الدعائم ، مجتمعة العواطف ، موحدة المنازع والمشارب .. دون أن يكون للدين السماوى دخل فى هذا ، لأن أكثر القوم فى هذه المواطن لا يدين بدين سماوى . وما ذلك الا لأن لفطرة مكانها فى كيان الانسان هناك .

وعلى عكس هذا ، ما تشهده الحياة اليوم فى أوروبا وأمريكا ، حيث اختنقت الطبيعة الانسانية بدخان المصانع والمعامل ، وحيث غرقت الفطرة فى طوفان المخترعات والمصنوعات ، فتحول الناس هناك الى دممى مسلوبة العواطف والأحاسيس ، لا يبتعد الانسان هناك كثيرا عن هذا الانسان الآلى ، ولا يعدو العالم هناك فى أى

ضرب من ضروب العلم أن يكون واحدا من تلك العقول «الالكترونية» ،
التي تأتي بالمذهلات من العجائب والغرائب !

فاذا نظرنا في الأسرة ، أو ما يفترض أن يكون أسرة هناك ، لم
نجد دفء الأُنس والسكن الذى من شأنه أن يظل كل مكان يجتمع
فيه الزوج وزوجته ..

ان الحياة الزوجية هناك لا تعدو أن تكون عملية تجارية بين
شخصين ، عملتها السائدة هى الدولار ، يحتسب كل شخص منهما
مدى ما يناله من ربح ، أو يقع عليه من خسارة ..

هذا هو الواقع فعلا ، فى الشرق الأقصى . والغرب الأقصى
.. أما ما بين هذين الطرفين وهو ما يضم البلاد العربية ، ومعظم
البلاد الإسلامية ، فهو من هذا وذاك ، خليط من فطرة الشرق ،
وبدعيات الغرب ، وذلك موقف أشبه بموقف النفاق بين الإيمان
والكفر ، وان النفاق لشر من الكفر ، حيث يرجى للكافر أن يتحول
يوما الى الإيمان .. أما المنافق ، فلن يتحول عن موقفه أبدا ..



ونعود الى موضوع الحجاب الذى صار فى المجتمع الإسلامى من
سمات التخلف ، الذى يرمينا به الغرب ، ويتابعهم عليه كثيرون منا ،
ممن رضعوا من حضارة الغرب، وتربوا فى حجرها ، أو الذين شاهدوا
آثارها فيما يرون على شاشة « السينما » مما يعرض فيها من
مظاهر الحياة هناك ..

والحق أن المرأة المسلمة قد رد إليها الإسلام اعتبارها ، وخلصها
من كثير من الظلام المادى ، والعقلى الذى كان مضروبا عليها فى
الجاهلية ، وملأ عقلها ، وقلبها بنور الإيمان ، وبصرها بمواقع
الحق والخير ، وخلص عليها خلع الانسانية الكريمة ، فكان لها هذا
الدور العظيم فى بناء المجتمع الإسلامى ، وفى احتمال ما احتمل
المؤمنون الأولون من ضر وأذى فى سبيل الدعوة الى الله .

والحق أيضا ، أن المرأة المسلمة لم تعرف هذا الحجاب الكثيف

في مطلع الحياة الإسلامية ، ولم تدخل في أسر تلك العزلة القاتلة ،
التي عزلتها عن الحياة ، وخربت كثيرا من قواها المدركة ، ومن
مشاعرها الإنسانية السليمة . . بل لقد كانت تملأ وجوه الأرض
علما وعملا . .

ولا يمكن أن يكون موقف الإسلام من المرأة إلا هذا الموقف الكريم
الرحيم ، الذي يتيح لها أن تأخذ حظها كاملا من الخير والرحمة
الذين حملهما الإسلام الى الإنسانية كلها . .

وكيف يعقل أن يجيء دين يخاطب فيه رسوله من الله تعالى بقوله
سبحانه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ثم يكون من أحكامه
وتعاليمه ما يتحول بالمرأة من انسان له وجوده ، وله عقله ،
وله مشاعره ومنازعه — الى كائن مسلوب الإرادة ، مشلول الحركة .
مضروب بينه وبين وجوه الحياة بأبواب وأسوار من حديد .

لم اذن كان خلق المرأة على هذه الهيئة الإنسانية ؟ ولم اذن كانت
مدعوة من الله الى دين الله ؟

اذلك ليكون الدين لعنة وشرؤما عليها ؟ أيدخل هذا في حكمة الحكيم
العليم ، ويضاف الى دينه الذي جعله رحمة للعالمين ؟ الا تدخل
المرأة في مفهوم هذه العالمية ؟ الا يكون له حظها من هذه الرحمة
العامية ؟

أ يكون هذا من منطق شريعة سماوية ، تحمل الى الناس —
كل الناس . الخير والرحمة ؟ ثم أيستقيم لهذه الشريعة — منطقا
وعدلا — أن تخاطب المرأة مخاطبة الانسان العاقل الرشيد ، وأن
تطالبها بحمل التكاليف الشرعية التي يطالب بها الرجل ، ثم تقيدها
بهذه القيود الثقيل ، وتصفدها بتلك الأغلال ؟ الا يكون ذلك من
الاعنات والحرج في شريعة رفع الله تعالى عن أتباعها الاعنات
والحرج ؟

ان الرحمة في الشريعة الإسلامية تشمل الوجود كله . . فكيف
يعقل أن تحرم منها المرأة دون مخلوقات الله جميعا ؟

ان ظروفنا سياسية ، وجماعية ، ومذهبية قد أحاطت بالمجتمع الاسلامى كله ، فقلبت أوضاعه ، وغيرت معالنه ، وشوهت حقائقه ، فرأى الحياة من خلال الضباب المتكاثف حوله ، فلم ير منها الا ظلالا باهتة ، والاشباحا مائجة ، وكان ذلك بلاء واقعا على المرأة والرجل على السواء !

لقد وقع المجتمع الاسلامى منذ أواسط الدولة العباسية ، تحت وطأة غزو اجتماعى ، وسياسى وأخلاقى من تلك الأمم غير العربية التى دخلت فى الاسلام . . وكان فيما يتصل بالمرأة أن كثرت مجالس القيان ، وماجت الحياة بمجالس الشراب التى احتشدت فيها الجوارى والغمان ، وكان من هذا أن بدت المرأة فى هذه الأفاق رخيصة مسترخصة ، تنالها كل عين ، وتعبث بها كل يد . . وكان من هذا أيضا أن سرت فى الناس موجات التحلل والفساد ، بل والاباحية المطلقة ، فكان ذلك داعية الى قيام رد فعل مضاد لهذه الحركة ، فظهر الزهد ، والتعفف والتزمت ، وقام الفقهاء ورجال الدين بدورهم فى هذا الموقف ، فحملوا على المرأة حملة شعواء ظالمة ، اذ كانت فى نظرهم صاحبة الدور الأول فى هذا الشر الذى ملأ وجه الأرض !

واذ لم يكن فى الامكان الوقوف فى وجه هذه الحياة التى تحياها الجوارى والقيان — فقد اتجهت القوى كلها الى حماية الحرائر داخل دورهن وقصورهن ، وفرض على المرأة أن تلزم بيتها ، وأن تقيم فى الحريم بعيدا عن كل عين ، وراء الستر ، والحراس والحجاب !

ثم انه ضاعف من هذا البلاء الواقع على المرأة ، تلك الحروب المتصلة ، والفتن التى شملت العالم الاسلامى ، خلال الغزو المغولى والتترى ، ثم الغزو الصليبي ، ثم الاستعمار الأوروبى ، الذى جنم على صدر الأمم الاسلامية قرونا لم ير فيها المسلمون من حضارة الغرب الا بريقها الزائف فيما يفسد الأخلاق ، ويدمر العقول . .

فلما انجلت سماء الاسلام مما غشيها من سحب الاستعمار ، لم ير الناس فى أيديهم الا تلك المخلفات الزائفة من مدينة الغرب التى

انخدع بها الناس ، وعدوها بضعة الحياة المدنية التي لا يفوت
المتمدن أن يقيم حياته عليها . . فكان هذا الخروج السافر على
الطبيعة الانسانية ، وكان هذا التحلل الصريح من كل خلق ودين . .
وكان للمرأة نصيبها من كل هذا ، فخرجت من حياتها ، وتحللت
من وقارها ، واسترخصت انسانيتها ، وتمشت في الأسواق
والطرقات ، بضاعة رخيصة يسومها كل مفلس !!

فاذا اريد للمرأة المسلمة اليوم أن تعود الى فطرتها ، وأن تسترد
انوثتها ، وأن تتحصن بدينها وخلقتها ، وأن تنتشل نفسها من هذه
الأمواج المتلاطمة حولها — لم تجد الجراءة على مواجهة هذا
التيار الغالب ، ولا القوة على الافلات منه . .

ان كثيرا من نساينا وفتياتنا المؤمنات ، تتحرك في كيانهن مشاعر
طيبة ، تضيق بهذا الزى الفاضح ، وتريد الخلاص منه ، لتتزيا
بالزى الذى تسترد به وقارها ، وتحفظ حياءها ، وترضى به ريبها —
ولكن قوى كثيرة تردها عن هذا الاتجاه ، وتحاول أن تفسد عليها
تلك المشاعر الطيبة ، وتلقى اليها بتهمة التخلف ، والرجوع الى
عصر « الحريم » !

والفرصة هنا مهياة للمجتمع الاسلامى ، باعادة بنائه ، وبتصحيح
مكانه المرأة فيه . . والاباء ، والأزواج ، والأمهات ، هم معقد
الامل ، ومحط الرجاء ، فى هذا الموقف ، الذى لا يحتاج الى أكثر
من دعوة هادئة عاقلة ، مستبصرة ، ثم الى شىء من الجراءة للخروج
على هذا الزى الماضح ، الذى صار سمة مألوفة ، وعادة جارية !!

انها هجرة الى الله ، وجهاد فى سبيل الله ، من أجل كرامة
المرأة ، وتحريرها من تلك البدع التي كادت تذهب بكل معالمها . .
وان الذين يأخذون أول الطريق الى تلك الهجرة ، ويتقدمون موكبها،
هم ائسبه بالسابقتين الاولين الى الاسلام ، الذين حملوا مشاعل
الدعوة حتى طلعت شمسها ، وملأت الافاق بنورها . .

واذا كان كثير من المسلمين السابقين قد قدموا انفسهم وأموالهم
لاعزاز دين الله ، واعلاء كلمته ، فان الذين يكونون فى السابقين

الأولين الى تحرير المرأة من هذا الضلال الذى استتبد بها ، لا يطلب اليهم أن يبدلوا شيئاً من أنفسهم أو أموالهم ، وإنما كل ما يطلب منهم هو النصح لأنفسهم ، والغيرة على حرمانهم ، وإعادة بناء الأسرة الصالحة ، التى يجد فيها أعضاؤها روح المودة والرحمة ، وأنس العشرة والصحة ، وبذلك تطيب الحياة ، ويهنأ العيش فيها ..

الباب الرابع

الرسالة الخالدة

« اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتى ورضيت
لكم الإسلام ديناً » .

(٣ : المائدة)

ان من حقنا بعد هذا العرض لحقائق الشريعة الإسلامية أن نقرر أنها رسالة خالدة على الزمن البشرى ، حاملة مشاعل الهدى للإنسانية كلها ، من التقى بها ، واستضاء بنورها ، أمن الزيغ والضلal ، وهدى الى الحق والى صراط مستقيم ، ذلك أن من أبرز معالم الرسالة الإسلامية التى انفردت بها دون غيرها من الرسالات السماوية ، هو ربط العقل بها ، وشده اليها ، وجعل أحكامها ، وتشريعاتها فى متناول كل عقل سليم ، بحيث لا تقصر عن تناولها عقول العامة ، ولا تتسامى عليها الخاصة ، بل أن العقل كلما اتسعت مداركه وكثرت معارفه ، عرف أين مكانه من هذا الجلال المهيب ، وهذا العلم المتدفق من بحر لا حدود له ، حين يقف بين يدى القرآن الكريم ، مرتلا سورة من سوره ، متدبرا آية من آياته .. كالشمس تراها كل عين ، وينتفع بضوئها كل حى .. وان اختلفت حظوظ العقول منها ، وتعددت مفاهيم الناس لها ..

من أجل هذا كانت رسالة الإسلام قائمة على طريق الخلود ، تلتقى بالإنسان حيث كان فى كل زمان ومكان .. لأنها دعوة موجهة الى كل انسان ، توجيهها مباشرا من الله تعالى اليه ، ليس بينه وبين الله أحد الا الرسول الذى تلقى الرسالة من ربه ، ثم تركها ميراثا مشاعا بين الناس جميعا ، من كل جنس ، ومن كل أمة ..

وشرط واحد اشترطه الإسلام لمن يتلقون عنه ، ويدينون به ، وهو أن يتلقوه ، وأن يأخذوا أحكامه وتعاليمه عن درس ، وبحث ،

وتحivص واقتناع، فمن لم يجد — بعد البحث وتقليب النظر — ما يرضيه من هذا الدين ، فهو وما أراد ، فانه : **((لا اكراه في الدين))** . فان الذى يقف ازاء الحق ، موقف الطالب له ، المخلص فى البحث عنه ، لابد أن يلتقى به يوما ، ان لم يكن اليوم ، ففى غد ، ما دام جادا فى الطلب ، مزودا بالرغبة الصادقة والنية الخالصة ..

والخلود الذى نعينه هنا ، حين نصف الرسالة الاسلامية به . هو الوجود الحى الدائم ، القائم على الصحة والسلامة ، والخلو من الآفات والعلل ، التى تتسلط على الكائنات الحية وغير الحية فتفسد طبيعتها ، وتغير معالمها ، بحكم مرور الزمن وكرور الأيام والليالى عليها ، حيث تنال آفات الزمن ولحظاته ، من كل ما يلد من مواليد ..

فالخلود الذى توصف به بعض الآثار والأعمال التى تعمر طويلا ، هو معنى مجازى بالنسبة الى غيرها من الآثار والأعمال ، التى لا تعمر مثل عمرها .. أما الخلود الحق فهو الذى يخرج من سلطان الزمن خروجا تاما ، وهذا هو خلود الرسالة الاسلامية بخلود كتابها الذى هو كلمات الله رب العالمين ..

فالاسلام — فى اعتقادنا — وكما هو الواقع — هو الدين الذى يستأهل هذا الوصف كاملا على الحقيقة ، لا المجاز ، لانه الدين الذى تمت به كلمة الله ، كما يقول سبحانه : **((وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم))** (١١٥ : الانعام) .. وبهذا لا يمكن أن تنال منه يد الأحداث والأزمان ، ولا أن تلحق به عوارض الشيخوخة والهزم ، بل هو دائما فى شباب متالىق متجدد ، وفى سناء مشرق لا يفيب ..

وفى الاسلام حقيقة بارزة انفرد بها أيضا من بين اديان السماوية وغير السماوية جميعا ، وهى أنه الدين الوحيد الذى حمى نفسه حماية ذاتية مطلقة ، من أن يدخل على الحقائق التى ضمت عليها آياته وكلماته ما يبدل من أوضاعها أو يغير من صورها وأشكالها ، وذلك أنه جعل لنصوصه وحدها حق الحديث عنه ، والترجمة عن

مقاصده ووسائله ، دون أن يجعل لأحد دعوى يدعيها فيه ، بحجة أنه موكل من قبل صاحب الشرع بكشف أسراره ، وفض خواتم مغالته ، فليس لأحد — والأمر كذلك — أن يدعى هذه الدعوى في مواجهة الشريعة الإسلامية ، إذ أن نصوصها — ونصوصها وحدها — هي الترجمان الناطق عنها ، حسب مواضع اللغة التي نزل بها كتاب الشريعة ، وحسب مدلولاتها الصحيحة ، كما يتعامل بها أهلها بلسانهم ، نثرا وشعرا ، بحيث لا يقبل لأحد قول في هذه الشريعة ، إذا هو خرج عن مدلول الألفاظ والعبارات كما عهدتها العرب ، وتعاملوا بها .. « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » (١٩٣ — ١٩٤ : الشفراء) فهذا هو لسان الشريعة ، لسان عربي مبين ، أى بين المعنى واضح الدلالة ، لكل من يحسن العربية ويفهم عنها ..

والقرآن الكريم الذى هو كتاب الدين الإسلامى ، ودستوره ، وإن يكن كلام الله سبحانه وتعالى ، فإنه لم يخرج بهذه الصفة عن متعارف الناس فى اللغة التى نزل بها .. وأنه بغير هذا ما كان يمكن أن يكون معجزة الرسول القائمة أبد الدهر ، ولم تكن لتصح لهذه المعجزة دعوى التحدى الذى شهدت الدنيا كلها عجز كل ناطق بالعربية الى اليوم عن أن يدعى — ولو زورا وبهتانا — أنه قادر على أن يأتى بسورة من مثل هذا القرآن .. إذ لا متعلق لهذا التحدى إلا إذا كان مما تنزع اليه نوازع القوم ، وتتطلع اليه همهم ، وذلك لا يكون إلا إذا كان المتحدى به مما يقع موقع الفهم ، والادراك لمواطن الروعة والجلال منه ..

فأصحاب اللسان العربى يرون المعجزة السماوية ماثلة لأعينهم واقعة فى عقولهم وقلوبهم ، كلما نظر الناظر منهم فى آية من آيات الكتاب الكريم ، أو استمع الى تلاوة ما يتلى منه .. وهكذا يشهد الناس — كل الناس — فى كل زمان ومكان رسولا من عند الله قائما بينهم يدعوهم الى الله تعالى ، تظاهرة فى دعوته معجزاته خارقة يرونها فى كل آية من آياته .. يقول ابن خلدون « وأعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها ، وأوضحها دلالة ، انقرآن الكريم ، المنزل على نبينا « محمد » صلى الله عليه وسلم .. فان الخوارق فى الغالب ، تقع مغايرة للوحي الذى يتلقاه النبى ، ثم يأتى بالمعجزة شاهدة على صدقه .. أما

القرآن ، فهو نفسه الوحي المدعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده في عينه ، ولا يفتقر الى دليل مغاير له ، كسائر معجزات الأنبياء مع الوحي ، فهو واضح الدلالة ، لاتحاد الدليل والمدلول فيه ! « (مقدمه ابن خلدون : ص ٩٢) .

وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه** » (١٧ : هود) .

وليس هذا شأن الرسالات السماوية التي حملها الانبياء — عليهم السلام — الى أقوامهم ، فانها — وان تكن قد جاءت بلسان اقوامهم الذين أرسلوا اليهم — لم تحمل في كيانها ، وفي محتوى كلماتها معجزة تشهد لها عند الناس بأنهما من عند الله ، ولهذا كان مع كل رسول الى جانب دعوته التي يدعو بها ، معجزة مادية ، يراها القوم رأى العين ، فيرون منها أمرا خارقا للعادة ، خارجا عن قدرة البشر ، فيقع عندهم أن رسولهم هذا متصل بقوة عليا ، هي التي يقول عنها الآله الذي يدعوهم الى الايمان به ، فيؤمن منهم من يؤمن من أهل البصيرة والحكمة ، وهم قليل ، ويعرض مكابرا من كان من أهل الضلالة والجهالة ، وهم كثير . . فكان مع نوح « السفينة » ومع ابراهيم « النار » ومع صالح « الناقة » ومع موسى « العصا » ومع عيسى « كلمته » !!

ونستخلص من هذا أمرين :

اولهما : أن مادة الرسالات السماوية — الا الاسلام — كانت عند أصحابها المخاطبين بها ، بالمنزلة التي دون منزلة المعجزة أو المعجزات المادية التي قدمها لهم رسولهم بين يدي رسالته في مقام التصديق . . ومعنى هذا أن المعجزة المادية كانت هي المستأثرة بتفكيرهم ، المستولية على عقولهم . .

وثانيا : أن هذه المعجزات المادية ، كانت بنت ساعتها ، لا تكاد تظهر في الأفق ، ولا يكاد يراها الذين يحضرون مولدها ، حتى تغيب الى الأبد . . الأمر الذي لا يجعل منها حجة الا على الذين شهدها بأنفسهم ، وفي حال قد دارت فيها رعوسهم ، بما غشيهم من ذهول ، ووجوم ، لما راعهم وبهرهم من جلال المعجزة التي يرونها رأى العين .

وثالثا : ان تلك المعجزات المادية القاهرة التي كانت تقوم بين
يدى الرسالات السماوية ، هي دليل على أن الانسانية التي كانت
تخاطب بتلك الرسالات ، كانت في دور لم تبلغ فيه الرشد بعد ،
فلم تخاطب من الله تعالى خطابا يتجه الى عقولها اتجاها مباشرا ،
بل كان هذا الخطاب مصحوبا بتلك الخوارق المادية التي تشبه وسائل
الايضاح التي تستخدم في تعليم الصغار القراءة والكتابة !

ورابعا : لاشك ان هذا التدبير في مخاطبة الناس برسالات
السماء — قبل الرسالة المحمدية — عن طريق الحس أكثر من
خطابهم عن طريق العقل — لاشك أن هذا التدبير مع قيامه على
الحق ، والحكمة ، والمصلحة للناس ، لم يحل بين أصحاب هذه
الرسالات وبين أن تقوم فيهم جماعات وطوائف تدعى لنفسها تأويل
ما في هذه الرسالات ، وفي كشف ما خفى عن الناس منها . . ثم شيئا
فشيئا أصبحت هذه الدعوى حقا مقدسا ، تلقاه الناس منهم بالقبول
والتسليم ، دون أن يعطو أنفسهم حق المراجعة أو الاعتراض ،
ولو جاءت تلك التأويلات في اتجاه مضاد لما تقضى به النصوص في
قطع وجزم . . وأنه ليس أيسر من القول لتبرير هذا التعارض
والتضاد ، بأن للنص ظاهرا غير مراد ، يخفى وراءه باطنا هو
المراد . .

أما الرسالة الاسلامية ، فقد جعلت كلماتها في أمواه أتباعها وفي
عقولهم ، يتلونها ، ويقىمون فهمهم هلا على ما تقضى به دلالة اللغة
التي يتعاملون بها ، وهي حظ مشاع لهم جميعا . .

فكلمات القرآن الكريم التي تلتقى بالمسلمين وغير المسلمين ممن
يفهمون اللغة العربية ، ويدركون دلالات ألفاظها ، ومعطيات تراكيبها
— هذه الكلمات ، هي رسول قائم فيهم يبلغ رسالة الله اليهم بلسان
عربي مبين ، يفهم عنه الناس ما يفهمون من منثور كلامهم ومنظومه ،
وبهذا كانت رسالة الاسلام رسالة خالدة ، تلتقى بأجيال الناس
جيلا بعد جيل ، دون أن يعوزها مترجم عنها ، ودون أن يحتاج الناظر
فيها الى معجزة تشهد له أن هذا الكلام هو كلام الله ، ففى هذا
الكلام ذاته ما يشهد بأنه كلام الله ، فان شك أحد ، فما هو ذا ميدان
التجربة والاختبار فسيح بين يديه . . فان وجد في اللغة العربية

منذ كان اللسان العربي الى يوم الناس هذا ، شيئاً من منثور الكلا
أو منظومه ، يستطيع أن يضعه ازاء أى آية أو آيات من كتاب الله ،
ثم يثبت في مكانه لحظة دون أن يفر استخذاء ، واستحياء — فليقل
بعد هذا في القرآن الكريم ما يشاء . .

وأنظر لترى عجا . .

لقد قامت في محيط الاسلام دعوات غريبة ملتوية ، تريد أن تدعى
على القرآن مثل هذه الدعوى ، التي يدعيها الرؤساء الدينيون في
الكتب السماوية الأخرى — فتجئ الى القرآن بأهوائها ، ومذاهبها ،
ومعتقداتها ، ثم تحملها عليه ، وتضيفها اليه ، بدعوى أن للقرآن
ظاهراً وباطناً ، وأن ذلك الباطن محجوب الا عن جماعة أخذت
هذا العلم وراثه عن النبي ، أو الهاما من الله — نقول ، قامت
في الاسلام مثل هذه الدعوات المنكرة ، كما عرف ذلك عن بعض
غلاة الشيعة ، وعن جماعة اخوان الصفاء ، وعن بعض المتصوفة ،
ولكن لم يكد صوتهم يرتفع بهذا الزور ، حتى تنكر لهم وجه الاسلام
وانكرهم المسلمون ، ونبذوهم نبذ المارقين الملحدين ، وسرعان
ما أنكرتهم الأرض ، فلم تجعل لهم مكاناً مطمئناً فيها ، بل هم حيث
كان لهم وجود ، فهو وجود صامت صمت أصحاب القبور !

وبهذا ظل الاسلام نقياً ، مبرأ من كل دخل ، محتفظاً بكل سماته
التي جاء عليها ، لم يتغير على الزمن وجهه ، ولم يتلون بلون
الأحداث والأشخاص اناءه ، ولقد اختلف المسلمون فرقاً ، وتمزقوا
شيعة ، ومع هذا فلم يختلفوا على حرف من كتاب الله ، ولم تقل
فرقة أو شيعة أن هذه الآية كانت كذا ، أو دخل عليها كذا ، أو
زاد عليها كذا ، على حين كثر الكذب والافتراء على رسول الله ،
لأنه كلام بشر ! والقرآن كلام رب العالمين !

أما الرسائل الأخرى ، فشانها غير هذا الشأن . . وذلك :

أولاً : انها كانت موقوتة بزمانها ، ومكانها ، وحجة على من شهد
معجزاتها المادية من القوم . . لأن المعجزة هي الحجة على المدعويين التي
تلك الرسالة ، ولا حجة اذا زايلت تلك المعجزة مكانها ، فلم يرها من جاء

بعدهم من الأجيال اللاحقة .. ولهذا كان يخلف على القوم نبى
بعد نبى .. وكل نبى يؤدى دوره فى الجيل الذى ظهر فيه ..

وثانيا : الشريعة التى جاء بها موسى عليه السلام ، والتى كانت
آخر شريعة فى بنى اسرائيل ، كانت دائمة فى حاجة الى نبى يقوم
الى جوارها ، ويأتى بالمعجزات المادية التى تمسك عليها حياتها
جيلا بعد جيل .. ونذكر من هؤلاء الانبياء الذين جاءوا بعد موسى .
داود ، وسليمان ، وأيوب ، والياس ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى ،
وعيسى ، عليهم السلام .. كل منهم جاء الى القوم بالمعجزة أو
المعجزات المادية المتحدية .. فداود قد ألان الله له الحديد ، وسليمان ،
سخر الله له الجن : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل
وجفان كالجواب وقدور راسيات » وعلمه الله لغة الحيوان ، والطيور ،
وجعل له الريح بساطا تحمله حيث يشاء .. وأيوب قد ابتلاه الله
هذا الابتلاء العظيم فى جسده ، وأهله ، وماله ، ثم أعاد اليه العافية ،
والأهل والمال أضعافا مضاعفة .. ثم جاء عيسى عليه السلام ،
فكانت معجزته خاتمة المعجزات المادية وأعظمها .. فيبرىء الأكمه
والأبرص ، ويحيى الموتى ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ
فيه فيكون طيرا بأذن الله — وحين ولد تكلم فى المهد ، ومن قبل أن
يولد كان حمل أمه به عن غير اتصال برجل .. وهكذا تظاهرت المعجزات
على شريعة موسى ، وانتصاب الأدلة المادية ، والشواهد المحسوسة
بين يديها ومن خلفها ، بتلك المعجزات من الأنبياء الذين جاءوا من
بعد موسى ، وكل نبى من هؤلاء الأنبياء وغيرهم ممن لم يذكرهم
القرآن ، قد كانوا يدعون الى شريعة موسى ، ويدينون بها ..
وتختتم هذه الشريعة بنبوّة عيسى عليه السلام ، التى ولد فى حجرها
وعمد وختن بأحكامها ، كما تذكر ذلك الأناجيل .. وكما تذكر أيضا
قوله لبنى اسرائيل : « ما جئت لانتقص القاموس والأنبياء ، ولكن
جئت لأكمل » .

وبقى بعد هذا أن نسال :

لقد رفض بنو اسرائيل المسيح ، واتهوه بالكذب والافتراء على
الله ، وقدموه للمحاكمة ، وحكموا عليه بالصلب لي موت تلك الميتة
التى لا يدخل بها صاحبها ملكوت الله ، كما تقول التوراة : « ملعون
من علق على خشبة » — أى خشبة الصلب !

ولقد آمن بالمسيح ملايين الناس ، وكلهم من غير بنى اسرائيل ،
ولكنهم اتخذوا شريعة بنى اسرائيل — التى هى شريعة موسى —
شريعة لهم ، لأنها شريعة المسيح الذى آمنوا به ..

وهنا نسأل :

هذه الشريعة التى يدين بها الاسرائيلون ، وقد كانت دائما فى
حاجة الى نبى يجدد دعواتها ، ويبين مقاصدها ، ويصل عقول
القوم وقلوبهم بها جيلا بعد جيل — هذه الشريعة ، وقد كان آخر
عهد أنبيائهم بها عيسى عليه السلام ، الذى رفضوه ، كما رفضوا
وقتلوا كثيرا من أنبيائهم قبله — أما كانت تحتاج الى نبى بعد
سلسلة هؤلاء الانبياء الذين تواردوا عليها ؟ ثم اذا كان لابد ان
تنتهى تلك السلسلة الى غاية بنى لا نبى بعده ، أفما كان من مقتضى
الحكمة أن تكون معجزة هذا النبى معجزة خاتمة لا معجزة بعدها ،
تغنى عن كل معجزة ، وتقوم فى مقام الاعجاز والتحدى بين يدي
كل طالب لها على مدى الأزمان ؟ ذلك ما يقضى به العقل ، وتقتضيه
الحكمة ، ثم كيف لا يكون هذا من حكمة الحكيم العليم رب العالمين ؟

ولقد كان من حكمة الحكيم العليم أن جاءت شريعة الاسلام ،
شريعة خاتمة لشرع الله ، وجاءت معها معجزاتها محمولة بين يدي
كلماتها ، مصاحبة لها حيث كانت ، فى أى مكان وزمان .. كما يقول
تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ،
وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى .. أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا
فيه » (١٣ : الشورى) .

افليس ذلك دعوة الى من يدينون بشريعة موسى — من اسرائيلين
وغير اسرائيلين — أن يدينوا بالاسلام ، وفيه شريعة موسى ووصايا
ابراهيم وموسى وعيسى على تمامها وكمالها ؟

ونعم انها دعوة قائمة عليهم ، وحجة على من لا يستجيب لها من
أهل الكتاب بعد أن دعاهم الله تعالى الى ذلك فى كتابه الكريم ، وأعلنهم بها
رسول الله اعلانا مبينا الى يوم الدين ، فى قوله تعالى : « يا أهل الكتاب
قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا

من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير)) (١٩ : المائدة) « ياهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، هدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجه من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (١٥ — ١٦ : المائدة) .. « قل ياهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين » (٦٨ : المائدة) « ياهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون ، ياهل الكتاب لم تلبسوا الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون » (٧٠—٧١ : آل عمران) .. هذه دعوة الاسلام ، دعوة عامة للناس جميعا ، جامعة ما تفرق في رسالات السماء في كلمات معجزة ، يقوم منها شاهد بأنها كلمات الله .. وهذا هو دين رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ودين كل مؤمن : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون .. كل آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرناك ربنا واليك المصير » (٢٨٥ : البقرة) ..

فماذا ينكر المؤمنون يكتب الله ، ويرسل الله من أهل الكتاب ، من هذه الدعوة ؟ « قل ياهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمننا بالله وما أنزل علينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » (٥٩ : المائدة) ..

انها دعوة قائمة على طريق الحق ، والعدل ، يزكيها العقل ، ويدعو اليها ..

« وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قولوا آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .. فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد آهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق » (١٣٥ — ١٣٧ : البقرة) .. صدق الله العظيم ..

الباب الخامس

الرسالة الخاتمة.. وما يقال عنها

الإسلام والمسلمون :

يعرف المسلمون من دينهم أنه الدين الذى كمل به دين الله ، وأن شريعته هى الشريعة التى ارتضاها الله سبحانه للناس جميعا ، على اختلاف أجناسهم ، وألوانهم ، وعلى امتداد أزمانهم ، وتعدد أوطانهم . . بهذا جاءت كلمات الله فى كتابه الكريم وفى آخر ما نزل من آياته ، خاصة بأحكام الشريعة وآدابها ، وذلك فى قوله تعالى : **« اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »** (٣ : المائدة) .

ومن قبل هذا عرف المسلمون بدلالات موحية من آيات الله ، أنهم بين يدي شريعة جامعة للناس جميعا عليها ، وأن رسولهم الذى أرسل اليهم ، ومن بينهم ، وبلسانهم ، ليس لهم وحدهم ، وأنه رسول الله الى عباد الله كلهم ، أسودهم ، وأبيضهم وأحمرهم ، وأنه ليس محدودا بحدود زمانه أو مكانه ، كما كان ذلك شأن الرسل الذين جاءوا من قبله . . فكلهم — صلوات الله عليهم — لم يخرجوا بدعوتهم عن حدود أوطانهم وأقوامهم ، وأن كل رسول كان خطابه الى قومه خاصة . . ابتداء من نوح ، الى عيسى ، عليهما السلام ، لا يخرج بخطابه أبدا عن حدود هذا النداء : « يا قوم » .

الرسل وحدود رسالاتهم :

فنوح — عليه السلام — يقول عنه الله تعالى : **« انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن ياتيهم عذاب اليم »** (١ : سورة نوح) . . وكان خطابه الى من أرسل اليهم مفتحا بهذا النداء الموجه اليهم : **« قال يا قوم انى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يفغر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم الى أجل مسمى ، أن أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون »** (٢ — ٣ : نوح) وقد

لبث نوح في قومه الف سنة الا خمسين عاما ، يدعوهم الى الله ، كما يقول تعالى : « ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما ، فاخذهم الطوفان ، وهم ظالمون » (١٤) : العنكبوت) وحين استيأس نوح من قومه ، ضرع الى ربه — وقد اعذر اليهم ، واقام الحجة عليهم — ان يأخذهم الله بالعذاب الذي انذروا به ، فيقول تعالى على لسانه : « قال رب .. انى دعوتهم قومي ليلا ونهارا ، فلم يزدتهم دعائى الا فرارا ، وانى كلما دعوتهم اتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا ، ثم انى دعوتهم جهارا ، ثم انى اعلنت لهم واسررت لهم اسرارا ، فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم انهارا .. » (٥ — ١٢ : نوح) ثم يمضى نوح فى تعداد ما كان منه الى قومه ، الى ان يقول : « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » (٢٦ — ٢٧ : نوح) .

ثم يرسل الله تعالى رسوله « هودا » عليه السلام الى قومه « عاد » يدعوهم الى الله ، فيقول سبحانه : « والى عاد اخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، ان انتم الا مفترون » (٥٠ : هود)

وبعد « هود » يجيء « صالح » الى قومه « ثمود » .. فيقول سبحانه : « والى ثمود اخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، هو انشاكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ، ثم توبوا اليه ، ان ربي قريب مجيب » (٦١ : هود)

ويجىء ابراهيم ابو الانبياء — الى قومه ، رسولا من ربه اليهم : « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، اذ قال لآبيه وقومه ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين » (٥١ — ٥٤ : الانبياء)

ثم يجيء « شعيب » الى قومه اهل مدين ، : « والى مدين
 آذاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، ولا تنقصوا
 المكيال والميزان ، انى اراكم بخير ، وانى اخاف عليكم عذاب يوم
 محيط » (٨٤ : هود) .

والى بنى اسرائيل ا يرسل الله تعالى موسى يدعوهم الى الله ،
 ويخرجهم من ظلمات العبودية الى نور الحق والايمان ، فيقول
 تعالى : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ألا
 تتخذوا من دونى وكيلا » (٢ : الاسراء) ويقول سبحانه : « واذا
 استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت
 منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم » (٦٠ : البقرة) .
 ويقول جل شأنه : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم
 عجلا جسدا له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ،
 اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط فى ايديهم وراوا أنهم قد
 ضلوا ، قالوا لئن لم يرجع موسى الى قومه غضبان أسفا ، قال بئسما
 خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم والقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره
 اليه ، قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلونى فلا تشمت
 بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » (١٥٠ : الأعراف) .

وقد أقام بنو اسرائيل من بعد موسى حول شريعتهم سورا ،
 حتى لا يدخل معهم أحد فيها ، ولا يدين بها الا من كان اسرائيليا . .
 فلما جاء الاسلام وجددهم على تلك الحال ، وكانت خطابات القرآن
 الى أتباع موسى توجه اليهم بهذا النداء : « يا بنى اسرائيل » . .
 كما يقول تعالى : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت
 عليكم ، وأوفوا بعهدى أوفى بعهدكم واياى فارهبون » (٤٠ :
 البقرة) . . ولا يزال بنو اسرائيل الى يوم الناس هذا يتخذون من
 شريعة موسى نسبا جامعا لهم ، لا يرضون لغير الاسرائيلى أن يدين
 بتلك الشريعة . . وهكذا يظل بنو اسرائيل معزولين عن المجتمع
 الانسانى ، قومية نسب ، وشريعة دين . .

ومن بعد موسى ، جاء رسل كثيرون الى بنى اسرائيل ، ليقمواهم
 على شريعة موسى ، وكان المسيح — عليه السلام — آخر رسول

من رسل الله اليهم . . لم يدعهم الى شريعة جديدة ، وانما دعاهم الى مكارم الأخلاق التى هى روح تلك الشريعة ، وروح كل شريعة سماوية . . اذ كانوا قد تأولوا الشريعة على غير وجهها ، وأقاموها على غير صراتها المستقيم . . يقول الله تعالى على لسان المسيح : **((وأذنتل عيسى بن مريم ، يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين))** (٦ : الصف) . . ويقول سبحانه عن المسيح : **((ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولا الى بنى اسرائيل))** (٤٨ — ٤٩ : آل عمران)

وفى الانجيل ، يقول المسيح : **((لا تظنوا انى جئت لأنقض الناموس ، أو الأنبياء . . ماجئت لأنقض ، بل لأكمل ، فانى الحق أقول لكم : الى أن تزول السماء والأرض ، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس ، حتى يكون الكل (انجيل متى : الاصحاح الخامس) . .**

فالمسيح — كما نطق القرآن ، وكما تحدثت عنه الأناجيل ، هو رسول الى بنى اسرائيل . . يقول « متى » فى انجيله : « ثم خرج يسوع من هناك ، وانصرف الى نواحي صور وصيدا ، واذ امرأة كنعانية ، خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمنى يا سيد يا ابن داود . . ابنتى مجنونة جدا . . فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل الا لخراف بيت اسرائيل الضالة . . فأنت وسجدت له قائلة : يا سيد أعنى ، فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ، وي طرح للكلاب . . فقالت : نعم ياسيد ، والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة ، عظيم أيمانك ، ليكن لك كما تريد ، فشفيت ابنتها من تلك الساعة » . . (انجيل متى : الاصحاح الخامس عشر) . . وفى انجيل متى ، يوصى المسيح تلاميذه الاثنى عشر قائلا : « الى طريق أمم لا تمضوا ، والى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة » (انجيل متى : الاصحاح العاشر) .

هكذا كانت دعوات الأنبياء والرسل — قبل الرسالة الإسلامية — محدودة في زمانها ، محصورة في مكانها ، لم تتعد أقطابهم ، ولم تتجاوز حدود أوطانهم ..

والديانتان السماويتان اللتان شهدتا عصر الإسلام ، والتقتيا به ، هما الموسوية واليعسوية .. وقد عرفنا أن دعوة النبيين الكريمين — موسى وعيسى عليهما السلام — كانت الى بنى اسرائيل خاصة ، كما نطق بذلك القرآن ، وكما بين ذلك الانجيل فيما استشهدنا به من بعض النصوص الواردة في انجيل متى .. أما التوراة ، فان الحديث فيها عن بنى اسرائيل ، وعن خصوصيتهم بها ، اوضح واصرح .. ومما جاء في التوراة :

« وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى اسرائيل ، وقل لهم ، انا الرب الهكم .. مثل عمل ارض مصر التى سكنتم فيها ، ومثل عمل ارض كنعان التى انا آت بكم اليها ، لا تعملوا ، وحسب فرائضهم لا تسلكوا » (سفر اللاوين : الاصحاح الثامن عشر) .

وفي الاصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج : « وكلم الرب موسى ، قائلا : كلم بنى اسرائيل ان يأخذوا من كل من يحته قلبه تأخذون تقدمتى ، وهذه التقدمة التى تأخذونها منهم ، ذهب وفضة ونحاس » .

وهكذا كان ، كل ما فى التوراة من تشريع ، هو موجه الى بنى اسرائيل ، لايراد به غيرهم من الناس .. انه تشريع مفصل على طبيعة هذه الجماعة ، لا يصلح الا لها .. ان هذه الشريعة هى دواء لامراض وعلل سكنت فى كيان تلك الجماعة ، وافسدت معالم الانسانية فيها .. وهيهات أن يصلح هذا الدواء لغير هذا الداء .

الرسالة الإسلامية وعمومها :

وعلى غير هذا الحصر المحدود فى جماعة بعينها ، او الوقوف به على جنس من اجناس الناس ، او قبيل من قبائلهم — جاءت دعوة الاسلام للناس جميعا ، يؤذن فيها رسول الله بأمر ربه فى

العالمين .. ومن هنا كانت أكثر خطابات القرآن للناس كلهم ، حيث يجمعهم مكان أو يظلمهم زمان .. « يا أيها الناس اتقوا ربكم وأخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » (٣٣ : الفرقان) .. « يا أيها الناس اتقوا ربكم .. ان زلزلة الساعة شيء عظيم » (١ — الحج ..) « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله اندادا ، وانتم تعلمون ، وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » (٢١ — ٢٣ : البقرة) بهذا الخطاب العام للناس جميعا ، تجيء دعوة الرسالة الاسلامية منجها الى الناس ، كل الناس .. كما يجيء رسولها مناديا فى الناس انه رسول الله اليهم كلهم : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (١٥٨ : الاعراف) .. كذلك يجيء خطاب القرآن الى الانسان ، من حيث هو انسان ، يضم فى كيانه عناصر الانسانية كلها .. « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك فى اى صورة ما شاء ركبك » (٦ — ٨ : الانفطار) « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » (٦ : الانشقاق) .

وهكذا تتكرر دعوة الاسلام فى القرآن على تلك الصورة العامة للناس جميعا ، لا يتلبس بها شيء من خصوصية بأمة دون امة : أو بشعب دون شعب ، أو بجيل دون جيل ، فهى خير مطلق للناس جميعا ، ورحمة مرسله من الله لعباد الله ، ينتفع بها كل من يتعرض لها ، ويمد يده اليها .. من قريب أو من بعيد ، حتى انها لتحتجب أضواؤها عن بصيرة من هو أقرب الأترباء الى رسول الله ، عمه أبى طائب الذى وقف فى وجه قريش محاميا عن ابن أخيه عصبية لاديانة ، على حين يشرق بها قلب عبد أسود رقيق ، مثل عمار بن ياسر ، وأمه ، وأبيه .. وحتى ليستقبلها لأول يومها عبد مملوك لبعض سادة قريش ، هو بلال : وحتى ليروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد . سئل عن أول من بايعه على الاسلام — فقال :

« حر وعبد » والحر هو أبو بكر ، والعبد هو بلال ، وحتى ليكون لأحد الأرقاء الذين دخلوا في هذا الدين وهو سلمان الفارسي — من الشرف والمكانة في الاسلام ما لم يكن لغيره من الأحرار الذين سبقوا الى الاسلام ، اذ يضيفه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — الى آل البيت النبوي ، فيقول عنه : « سلمان منا آل البيت » !

الرحمة العامة :

والرحمة لا تكون عامة الا اذا وسعت الناس جميعا ، وفتحت أبوابها في يسر لكل من يشاء أن يأخذ حظه منها .. هكذا رحمة الله في عمومها وشمولها ، انها أشبه بالهواء يجده كل من يتنفسه ، ويجد في رنته مكانا له ، أو كضوء الشمس تستضيء به كل عين لم يصيبها عمى ..

وقبل أن نلمس الأدلة والشواهد المادية على عموم هذه الرحمة ، التي تحملها الرسالة الاسلامية ، نجد القرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة ، ويعلنها في الناس ، فيقول تعالى عن الرسول الكريم : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »** (١٠٧ : الأنبياء) .

ودعوى الاسلام بأنه رحمة عامة ، لا تستقيم الا اذا قبلها الناس عن رضى ، وجاءوا اليها عن طوعية واختيار .. فان صاحبها القهر والقسر ، لم تكن رحمة تتفتح لها القلوب ، وتستجيب لها النفوس ، وتتفاعل معها المشاعر ، وتتأثر بها الوجدانات .. ومن هنا كانت دعوة الاسلام قائمة على هذا المبدأ العام **« لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها »** (٢٥٥ : البقرة) . وبهذا يخاطب الله تعالى نبيه الكريم بقوله : **« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر »** (٢٩ : الكهف) .. ويقول : **« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »** (٩٩ : يونس) .. ويقول **« فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر »** (٢١—٢٢ : الغاشية) .

فإذا نظرنا في احكام الشريعة التي حملها الاسلام ، نجدها قائمة على أسس تتسع للناس كلهم ، فلا تقصر عنها أيدي العامة ،

ولا تجاوزها أيدي الخاصة .. كما أنها تقيم الناس جميعا على ميزان واحد في الحقوق والواجبات ، وفي الثواب والعقاب ، فمن سمات هذه الشريعة :

أولا : يسرها ، فلا شيء فيها من العنت أو الحرج .. والله سبحانه وتعالى يقول : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » (٧٨ : الحج) ويقول سبحانه : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » (١٤٣ : البقرة) .

والوسط من كل شيء هو مركز الاعتدال فيه ، ومكان القلب منه ..

والشريعة الوسط بين الشرائع ، هي التي لا غلو فيها ، يعنت الناس ، ويرهقهم ، وهذا لا يكون من الله تعالى الا عقابا وبلاء ، كما كان ذلك في شريعة بنى اسرائيل ، التي أخذ الله تعالى فيها بنى اسرائيل بالأساء والضراء ، كما يقول تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ، واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » (١٦٠ - ١٦١ : النساء) وكما يقول سبحانه : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وأنا لصادقون » (١٤٦ : الأنعام) ولهذا كان من دعاد المؤمنين الذى علمهم الله تعالى أن يدعوه به في القرآن الكريم ، هو الا ينزل بهم ما نزل بالأمم السابقة من احكام تأديبية زاجرة : « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطانا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به » (٢٨٦ : البقرة) .

وثانيا : الانتصاف للمظلوم من الظالم ، وجعل ذلك حقا مشاعا للناس جميعا ، لا فرق في ذلك بين عامة وخاصة ، ولا بين ملك

وسوقة .. يقول الله تعالى : « كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، واداء اليه باحسان » (١٨٧ : البقرة) .
 فقد ابطل الاسلام بهذا التشريع ما كان جاريا بين العرب من تفاضل بينهم في الدماء ، فلا يسوى دم أبناء قبيلة تعزز بقوتها بدم أبناء قبيلة لا تعدلها في القوة .. فاذا قتل عبد من قبيلة قوية بيد قبيلة ضعيفة ، قتل به حر من أبنائها ، واذا قتلت امرأة . قتل بها رجل ، بل وأكثر من هذا ، فكانوا يقتلون بسيد القبيلة عشرات ، أو مئات من القبيلة المقاتلة ، كما حدث ذلك بين قبيلتي بكر وتغلب ، حين قتلت بكر ، كليب بن وائل التغلبي فأبى أخوه مهلهل الا أن يمعن في بكر قتلا ، حتى كادت تفتنى القبيلتان في حرب امتدت نحو أربعين عاما ، كما يقول الرواة ..

وكذلك الشأن في الحدود كلها ، انها متى ثبتت الجريمة ، وجب اقامة الحد على مرتكبها ، ايا كان مكانه في المجتمع .. وحديث المرأة المخزومية التي ثبتت عليها جريمة السرقة في عهد النبي أشهر من أن يدل عليه .. فلما أراد النبي قطع يدها ، فزع قومها ، وكانوا من سادة قريش وأشرافها ، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأكثر من شافع يشفع لها ، فغضب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وانكر في شدة على كل من جاء مستشفعا ، بقوله : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » ثم دعا الرسول الناس ، وخطبهم قائلاً : « أيها الناس ، انما أهلك من كان قبلكم ، أنهم كانوا اذا سرق الشريف فيهم تركوه ، واذا سرق الضعيف فيهم أقاموا الحد عليه ، والذي نفسى بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

هذه لمحات من شريعة الاسلام ، تكشف لكل منصف ، طالب للحق ، عن حكمة الحكيم العليم في أن جعل سبحانه تلك الشريعة هي الخاتمة للشرائع السماوية والجامعة لفضائلها ، والمكملة لها .. ونذكر هنا كلمة السيد المسيح ، التي أشرنا اليها من قبل نقلا من انجيل متى ، والتي يقول فيها : « لا تظنوا انى جئت لأنقض الناموس والأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل .. فانى الحق أقول لكم ، الى أن تزول السماء والأرض ، لا يزول حرف واحد ،

أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل ! » — نذكر هذا ، فنذكر معه قول الله تعالى في كتابه الكريم : « **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم** » (١١٥ : الأنعام) . . فقوله تعالى : « **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا** » هو الذى أشار اليه السيد المسيح في قوله : « لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس ، حتى يكون الكل » . . فالكل هو الذى تمت به شريعة الله ، والذى أشار اليه قوله تعالى في آخر ما نزل من القرآن الكريم : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً** » (٣ : المائدة) . . وهكذا تجيء آيات الكتاب الكريم مصدقة لما سبق من كتب الله تعالى ، كما يقول سبحانه : « **وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فأحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** » (٤٨ : المائدة) .

ولهذا كان من ايمان المؤمنين بالرسالة الاسلامية ، أن يؤمنوا بما بعث الله تعالى من رسل ، وبما أنزل من كتب ، ذلك الايمان الذى يقتضيه ختم الأنبياء بنبيهم ، وختم الرسالات برسالتهم ، إذ كان نبى الاسلام جامعة الأنبياء ، واذ كانت رسالة الاسلام جامعة الرسالات . . وفي هذا يقول الله تعالى : « **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ، ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق** » (١٣٦ — ١٣٧ : البقرة) . . فهذا ميثاق الله تعالى مع أنبيائه ورسله جميعا ، يؤمن لاحقهم بسابقهم ، كما يؤمن سابقهم بلاحقهم ايمان غيب ، قائم على أن كل رسول مرسل من عند الله ، انما يحمل من الحق مثل ما حمل صاحبه ، فهم جميعا قائمون على دعوة واحدة ، وعلى طريق واحد ، يبدأ كما يبدأ البنيان ، يرتفع شيئا فشيئا ، حتى يبلغ غايته ، وتكتمل صورته . . يقول النبى الكريم : « **مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويتعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فاننا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين** » (رواه البخارى ومسلم) .

ونخلص من هذا الى القول بأن الرسالة الاسلامية قد حملت في مضامينها من تشريعات واحكام ، ما يسع الانسانية كلها في أمكتها وأزمانها ، وفي أدنى مستوياتها وأعلائها ، بحيث ترتفع بالأولى ولا تهبط بالأعلى ، وبحيث تمسك على الانسان انسانيته ، وتنمى جوانب الخير فيه .

ففى الانسان — كل انسان — فطرة نازعة الى الحق والخير ، متطلعة الى آفاق مشرقة نيرة ، أشبه بالبذرة السليمة ، المضمرة في كيانها شجرة باسقة ، أو زهرة ناضرة ، اذا صادفت مغرثا ملائما لها ، عملت جاهدة على أن تخترق ظلام التراب المشتعل عليها ، لتطل الى عالم النور ، وتتحرك في محيط الهواء الطلق ، حتى تحقق وجودها ، وتخرج خباها .

والفطرة المركوزة في الانسان ، كثيرا ما تعترضها أمور تفسدها ، أو تغير طبيعتها ، أو تجهد حركتها . . . فتحتاح حينئذ — لكى تعود الى الصحة والسلامة — الى دواء سماوى يعيد اليها وجودها ، ويكشف عنها ما ألم بها من علل .

ومن هنا كانت الشريعة الاسلامية شريعة عامة للانسانية ، اذ كانت شريعة قائمة على الفطرة ، متجاوبة معها ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى : **« فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »** (٣٠ : الروم) . . . فأى أمر من هذه الشريعة لا يجرى مع الفطرة الانسانية السليمة ؟ وإى حكم من احكامها ، لا تقبله تلك الفطرة ؟

فليعرض أى انسان ، سوى الخلق ، أى حكم من احكام الاسلام ، وأية دعوة من دعواته على عقله ، وليمتحنه بكل ما يملك من وسائل الامتحان ، وليدخل في تجربة مع أى حكم أو آية دعوة مما جاء به الاسلام ودعا اليه ، وأنه لو وجد أنه انما يعيش مع نفسه في أحسن أحوالها ، وفي أصفى مواردنا ، وأضوا لحظاتها .

ومن هنا كانت دعوة الاسلام قائمة على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .. هكذا على الاطلاق لكل معروف ، ولكل منكر ، من غير قيود أو حدود ، الا ما تقيمه النفس الانسانية السليمة من قيود أو حدود .. إذ المعروف ، دعوة كل فطرة ، والمنكر ، منكر في كل فطرة .. وأنه لهيئات أن يكون في الناس من لا يعرف المعروف وتهش له نفسه ، وينكر المنكر وينقبض له صدره ، وأن كان قد غلبه هواه فركب المنكر ، وجانب المعروف ! وفي عالم المجرمين والمنحرفين قلوب تهفو الى الفضيلة ، ونفوس تتشهى الاستقامة .. وما أكثر تلك القلوب وهذه النفوس ، وما أكثر ما يطرقتها من الآم ، ويطوف بها من هموم ، ولكنها أضعف من أن تخرج مما هي فيه ، وأعجز من أن تنال ما تشتهى وتبلغ ما تريد !!

وليست دعوة الاسلام ، الا عرضا كاشفا ، وبيانا مبينا لما تدعو اليه الفطرة الانسانية ، والا تصريحا لما تكنه سريرتها ، ويضمرة ضميرها .. فاذا التقت دعوة الاسلام مع الانسان ، فانما تلتقى به في أعرق أعماقه ، وفي الصميم من فطرته .. ومن هنا كانت أمة الاسلام خير أمة أخرجت للناس ، لأنها بايمانها كشفت عن الانسانية ، وأخرجت ما استكن في فطرتها ، وما أودع في ضميرها .. وفي هذا يقول الله تعالى : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تآمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله** » (١١٠ : آل عمران) .. وهنا نلاحظ أن الايمان بالله ، قد جاء نتيجة لما في كيان الانسان من قبول للمعروف ، واعراض عن المنكر ، الأمر الذى قاده الى الايمان بالله ، والتعرف على خالقه .. وذلك هو البر ، الذى أشار اليه الرسول الكريم فى قوله : « البر ما اطمانت اليه النفس واطمان اليه القلب ، والاثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر ، وأن افتاك الناس وافتوك » ..

فأى تكريم للانسان بعد هذا التكريم ، وأى منزلة للانسان أرفع من هذه المنزلة ، وأى دعوة له أعدل من هذه الدعوة التى تجعل الى ضميره الفصل فيما يرضى أو يسخط من أمور ، وفيما يأخذ أو يدع من خير أو شر ؟

ولكنها عين السخط !!

نعم ، ولكنها عين العداوة للإسلام ، ولأهل الإسلام ، لا ترى في دخان حقدتها المتصاعد من الصدور الا وجها شائها لشرعية هذا الدين السمحة ، والا صورة مقلوبة لحقائقه النيرة ،، والا بلاء ونقمة للبشرية ، من آثار رحمته المبسوطة للناس جميعا .

وبحسبنا أن نشير هنا الى فريتين من تلك المفتريات الكثيرة ، التي يعلقها أعداء هذا الدين في عنق الاسلام ، ويدينونه بها ، ويحكمون عليه بما شاعت لهم أهواؤهم فيه ، ونقمتهم عليه ، وكراهيتهم له ..

وهاتان الفريتان هما : وضع الرقيق في الاسلام ، والسيف الذي وضعه الاسلام على رقاب مخالفيه !!

أولا : الرقيق في الاسلام

تتخذ الجبهة المعادية للإسلام ، من مستعمرين ومطحدين من الرق سلاحا تشهره دائما في وجه الاسلام ، وبخاصة كلما رأت هذه الجبهة شعاعة من شعاعات هذا الدين ، تنفذ منه الى مواطن جديدة ، وتدخل بالهدى ودين الحق ، في قلوب الوثنيين واللاذنيين . عندئذ يجن جنون هذه الطوائف المجتمعمة على حرب الاسلام ، المتحالفة على الوقوف في سبيله ، الباذلة في سبيل ذلك الاموال بغير حساب ، والجهود بلا حدود .

وقد كثر في السنوات الاخيرة الحديث عن الرقيق الذي انتهى امره ، وطويت صفحته في صورته القديمة المعروفة ، التي كانت تتمك فيها رقاب الأفراد من جوار وعبيد ، ينادى عليهم في الأسواق ، ويباعون بيع الدواب ، وينتقلون من يد الى يد كما تنقل السلع .. هذا هو الرقيق الذي طويت صفحته ، وان كان قد استبدل به نوع آخر من الرق ، أشنع شناعة ، وأثام ما عانته الانسانية في تاريخها ، وهو استرقاق الشعوب واستغلالها ، وامتهان انسانياتها ، في الاستعمار الأبيض للشعوب السوداء أو السمراء ، في افريقية وآسيا !! ولا زالت شواهد قائمة في جنوب أفريقيا ، وفي تنزانيا .

والحديث عن الرق الذي كان يسود العالم عند ظهور الاسلام ،
انما يراد باثارته في هذه الأيام ، توجيه حملة مسمومة من التضليل ،
والخداع ، في محيط تلك الشعوب التي شعر المستعمرون والمحدون
أن الاسلام قد أخذ طريقه اليها ، وأن أبناء هذه الشعوب قد جعلوا
يخلعون ثياب الوثنية ، ليدخلوا في دين الله .

فمنذ تحررت أوطان الافريقيين في السنوات الأخيرة من الاستعمار ،
أخذت الحواجز التي كانت تحجز الناس هناك عن الاسلام ، والتي
كان يشد بناءها المستعمرون والمحدون — أخذت تلك الحواجز
تتداعى وتناهار ، ولم تجد اليد التي كانت تقيمها وتسندها من جيوش
الاستعمار ، وسياسة المستعمرين . . وكان لابد أن تلتمس تلك
الجهات المعادية للاسلام حواجز أخرى ، تعزل بها الافريقيين عن
الاسلام ، عوضا عن تلك الحواجز التي تداعت وتهدمت . . ولم
يكن من الممكن أن يعاد — علنا — فتح هذه القارة وأستعمارها
من جديد . . وأذن فلابد من اقامة حواجز نفسية وروحية ، يمكن
أن تتدسس الى نفوس الافريقيين ، وتقيم بينهم وبين الاسلام
عداوات تثيرها أحداث مختلفة مزيفة من التاريخ ، يغذيها كذب
لثيم ، وافتراء خسيس على الشريعة الاسلامية ، وموقفها من
الرقيق ، وخاصة في افريقية التي كانت مزرعة خصبة له ، ومنجما
للثراء ، يتهالك عليه المغامرون وطلاب المال من كل أفق . .

ونختصر الحديث ، فلا نذهب به بعيدا ، ولا نتبع أحاديث القوم
ومفترياتهم على الاسلام منذ بدأ يدخل أفريقية ، ونكتفى بأخر
كتاب ظهر حديثا تحت عنوان : « الاسلام في اثيوبيا » !!

يقول هذا الكتاب في احدي فقراته :

« وتجارة الرقيق ، ومآثره من أرباح تفوق حد التصور ، تغرى
كثيرين على احترافها ، ولهذا اشتغل بها عدد كثير من العرب
(كذا) . . فيمكننا إذن أن نتصور العدد الكثير من العرب الذي
اشتغل بهذه التجارة ، وكون المراكز التجارية الكبيرة والصغيرة ،
واستقر في هذه المراكز المنتشرة بين قرى شرق افريقية ، صغيرها ،
وكبيرها !! » . .

هكذا يحصر مؤلف هذا الكتاب تجارة الرقيق في العالم كله في افريقية ، ثم يحصرها في العرب .. كأن الرقيق لم يكن يسود العالم كله ، في أوروبا ، وآسيا ، وأمريكا .. وكأن العرب وحدهم هم أصل البلاء ، ومصدر هذه المحنة التي ابتلى هؤلاء الأفريقيون ، وشقى بها آباؤهم وأوطانهم أجيالا بعد أجيال !!

ولو وقف الأمر عند هذا الحد ، لكان في باب العذر متسع للمؤلف ، ولقلنا انها زلة جاءت عن حسن النية ، ومن وراء القصد . ولكن المؤلف يأبى الا أن يطرد حسن النية ، ويقطع جميع احتمالاتها في هذا الموقف ، فيجئ سافرا بما يريد أن يرمى به الاسلام ، ويكيد له ، في هذا المقام .. فيقول :

« ولكن الاسلام وحد بين العرب ، وحد من خصوماتهم ، وأوقف غزواتهم التي كانوا يشنونها على بعضهم ، كما حرم أن يسترق مسلم مسلما ..

« وبذلك نقص مورد من موارد الرقيق الذي كان يعتمد عليه العرب في حراسة قوافلهم ، وزراعة أرضهم وخدمتهم ..

« فلا بد إذن من تعويض هذا المورد الذي قطعه عنهم اسلامهم ! »

والى هنا ، والكلام يبدو ، وكأنه لا يهدف الى غاية سوى نقل وقائع من صحف التاريخ ، لمن يهمه أن يقرأ شيئا من تلك الصحف .

ولكن المؤلف يفضح نفسه ، ويكشف عن الغاية المنكرة التي يتغياها من هذا العرض الخبيث ، فيقول : « وليس هناك من مكان يستطيع أن يسد هذا النقص سوى الساحل الافريقي للبحر الأحمر ، وما يسكنه من مورد لا ينقطع من شعوب سوداء ! » .

هذا هو بيت القصيد — كما يقولون — وهو ما قصد اليه المؤلف من تسويد هذه الصفحات ، ودمغها بالكتب والدس للوقية بين المسلمين ، وبين الأفريقيين ، الذين يريدون اعتناق الاسلام ، من غير دعوة من أهله ، وانما تدعوهم اليه سماحته ، وعالميته واخوته الجامعة للانسانية كلها في رحابه !

الاسلام ، بما كان منه من توحيد العرب ، ورفع أيدي بعضهم عن بعض ، ويرفع يد المسلم عن استرقاق المسلم — قد سد بهذا منافذ الرزق كلها على العرب ، وفتح لهم منفذا واحدا على ساحل البحر الأحمر ، وما يسكنه من موارد لا تنقطع من شعوب السودان! فافريقية اذن هي السماء التي تمطر ذها وفضه ، من عبيد واماء للعرب ، يسترقون أهلها ، ويلغون في دمائهم واعراضهم !!

واذن فليحذر الافريقيون العرب ، وما مع العرب من دين . اذ ليس هذا الدين الا مصيدة للافريقيين ، اذا وقعوا في شباكها وقعوا في الرق والاستعباد ، وأصبحوا لقمة سائغة للعرب ، كما فعلوا بابائهم واجدادهم من قبل !!

ثم مالنا نستنتج ونتأول ، وكلام المؤلف في هذا صريح ، لا يحتاج الى بيان ؟

يقول المؤلف ، معقبا على كلامه السابق :

« فلا بد اذن من أن تنشط تجارة الرقيق بعد الاسلام ، عما كانت قبله ، وأن يشتغل بها عدد كبير ، وأن يحتاج الى عدد ضخم من الأعوان والمعاونين !! » .

واذن فدعوة الاسلام هي دعوة الى استرقاق الأحرار ، ورسالته رسالة تحمل العبودية والاذلال للعباد . . واذن فليعلم الافريقيون هذا ، وقد جاءهم الناصح الأمين منبها ومحذرا من هذا الخطر الداهم ، وقد أعذر من أنذر !!

هذه نفثة من نفثات المغيظين الموتورين من الاسلام ، يلقون بها في موارد الاسلام الطيبة السائغة ، حتى يتحاشاها الناس ، ويزورون عنها ، ويزوون وجوههم عن جهتها . .

وندع هذا الزور من القول ، وهذا السقط من الكلام ، وتلك السفاهة المتطاولة على الشمس ، ترجمها بالحصا ، لتغرب من مشرقها !!

وننظر في القضية من أصلها ، ونستدعى لها التاريخ شاهدا !

الاسلام والرق :

ونسأل : هل كان العرب هم المجتمع الوحيد في هذا العالم الذى استترق الانسان ، أو أوجد نظام الرقيق ، في الجاهلية أو الاسلام؟

ثم هل كانت شريعة الاسلام شريعة تزكى الرق ، وتعمل على انتشاره وذبوعه ؟

وقد أشرنا من قبل الى دعوة الاسلام ، وكيف أن كان أول الداخلين فيها والمستظلين بظلها هم الأرقاء . وأن من هؤلاء الأرقاء من بلغ بهم الاسلام منازل العزة والسيادة ، فكانوا حكاما وأمراء في دولة الاسلام ، بل وكان منهم من نال شرف الانتماء الى آل بيت رسول الله ، مما لم ينله أحد من سادة قريش والسابقين الى الاسلام ، كأبى بكر ، وعمر وعثمان ، الذين قاموا على الخلافة بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، الأمر الذى كان « لسلمان » الذى قال فيه الرسول الكريم : « سلمان منا آل البيت !! » .

وإذا كان الرق صورة من صور البغى والتسلط من الانسان على الانسان ، والعدوان من القوى على الضعيف — فلا نعدو الحق اذا قلنا أنه صحب الانسانية منذ كان لآدم ولد على ظهر هذه الأرض .. وفيما حدث بين أول أخوين في الدنيا — قابيل وهابيل من عدوان أحدهما على الآخر ، ومحاولة انتزاع ما في يده ، ظلما وحسدا — في هذا الحدث الذى انتهى بسفك أول دم بشرى على هذه الأرض ، شئ أكثر من الرق ، الذى يؤثره بعض الناس على الموت !!

ثم تمضى الحياة بأبناء آدم ، وفي كفتى ميزانها الأثوياء والضعفاء ، والأشرار والأخيار ، والذئاب والحملان .. وإذا أفراد ، وجماعات ، وشعوب ، وأمم ، تستعبد وتستترق .. ويكفى شاهدا ماثلا لهذا هذه الرقعة الواسعة من العالم التى وقعت فريسة في فم الاستعمار ، التى استبيحت فيها الدماء والأموال ، والأعراض ، بلا حساب .. بل ويكفى في هذا ما يقع تحت سمع العالم المتحضر وبصره اليوم ، من استرقاق واستعباد لزنج أمريكا ، التى تزعم لنفسها قيادة موكب الحضارة والمدنية في هذا العصر !!

فاذا نحن تركنا هذا الحاضر المائل ، وقلبنا صحف التاريخ ، رأينا نظام الطبقات ، ذلك النظام الذى فرض على كل طبقة فى المجتمع الواحد وضعاً لا تخرج عنه ، ولا تتجاوز حدوده ، يتوارثه الآباء عن الأبناء ، جيلاً بعد جيل ، ذلك النظام الذى يعد الرق بالنسبة له رحمة ، اذ لا يعدم الرقيق أملاً يراوده فى أن يكون حراً فى يوم من الأيام ، فان ضاق به هذا الأمل فى حياته ، لم يضق على الأجيال المتعاقبة من نسله !!

ونستدعى لهذا شاهداً من أوروبا ، ومن أقدم وأعرق حضارة فيها ، من أثينا وروما .. قبل الميلاد ، وقبل الاسلام بقرون !

ولاشك أن « أرسطو » هو صاحب الدور الأول فى بناء العقل الأوربى ، قديماً وحديثاً ، وعليه تتلمذ الفلاسفة والمصلحون الذين أقاموا دعامة الحضارة الأوربية فى قديمها وحديثها ..

وعلى هذا ، فاننا سنكتفى بعرض رأى « أرسطو » فى بناء المجتمع الانسانى ، وتمايز أفراده تمايزاً ، يجعل من بعض الناس سادة بالطبيعة ، وبأصل الخلقة ، كما يجعل بعضهم عبيداً بالطبيعة وبأصل الخلقة أيضاً !!

بقول « أرسطو » :

« ينبغى الآن أن ينظر ، أيجاد اناس جعلهم الطبع كذلك — أى عبيداً — أم لا يوجد البتة ؟ وفى حق من — أيا كان — يصير عدلاً ونافعاً أن يكون عبداً ، أم أن كل استرقاق هو مضاد للطبع ؟

ويجب ارسطو على هذه التساؤل بقوله :

« العقل والواقعيات ، يمكن أن تحل مع اليسر ، هذه المسائل !

« فالأمر والطاعة ، ليسا شئيين ضرورين وحسب ، بل هما أيضاً نافعان كل النفع !!

« بعض الكائنات منذ الولادة ، مخصوص بعضها للطاعة ، والآخر للامرة ، رلو على درجات وفروق شديدة التخالف بين هؤلاء وهؤلاء !!

ثم يمضى « أرسطو » قائلا :

« هذان العنصران — الطاعة والامرة ، توجدان في كل مجموع مكون من عدة أشياء ، بالغة نتيجة عامة ، منفصلة تلك الأشياء ، كانت أو متصلة .. »

« هذا وضع فرضه الطبع على كل الكائنات الحية ، بل ربما أمكن أن يكشف بعض آثار لهذا المبدأ ، حتى في الأشياء التي بلا حياة !! »

ويمضى « أرسطو » في شرح هذه القضية ، وفي تقديم الأدلة المنطقية بين يديها .. فيقول :

« ببديها .. الموجود الحى ، هو مركب من روح ومن جسد .. كان أحدهما ليأمر ، والآخر ليطيع .. !! »

« تلك هى — على الأقل — ارادة الطبع ، التى يهم أن تدرس فى الكائنات العليا ، على حسب قوانينه المرتبة ، لا فى الكائنات الدنيا .. »

« وان سلطان النفس هذا بين فى الانسان الكامل ، سليم العقل والبدن ، وهو وحده الذى ينبغى أن نختبر ذلك فيه .. »

« أما فى الفاسدين من الناس ، أو المستعدين للفساد ، فان الجسم أحيانا يتسلط على النفس ، ذلك أن نموهم غير المرتب ، هو ضد الطبع تماما ! »

« أكرر ، أنه ينبغى أذن أن يعرف — بادىء الأمر — أن فى الكائن الحى وجودا ذا سلطة تشبه سلطة سيد حاكم معا : النفس تتسلط على البدن ، كسيد على عبده ، والعقل مع الغريزة ، كحاكم ، كمالك !! »

« وأذن فبديهي أنه لا يستطاع انكار أن يكون من الطبيعى ، ومن الخير للجسم ، أن يطيع النفس ، وللجزء الحساس من ذاتنا أن

يطيع العقل والجزء العاقل ، وأن المساواة ، أو انقلاب السلطة
بين هذه العناصر المختلفة يكون شراً للجميع !!

« والحال كذلك بين الانسان ، وسائر الحيوانات .. المستأنسة
احسن من التوحشة ، وأن تكون خاضعة للانسان ، فتلك مزية كبرى
لها (كذا) من حيث أمنها نفسه .. ومن جهة أخرى ، فان الرابطة
بين الجنسين على هذا النحو .. فان أحدهما أرقى من الآخر ..
ذلك كان ليحكم ، والآخر كان ليطيع !! » .

وإذا يبلغ الفيلسوف من منطقة الى هذا الحد ، يجيء الى
صميم القضية التي يعالجها ، فيقول :

« ذلك هو أيضا القانون العام ، الذي يجب ضرورة أن يسود
بين الناس ، فمتى كان المرء أحط من أمثاله في الطبع وأصل الخلقة ،
كما يكون الجسم بالقياس الى النفس ، والبهيمة الى الانسان —
كان هو الرقيق ، بالطبع !

« على أن منفعة العبيد ، ومنفعة الحيوانات المستأنسة ، كلها
شيء واحد ، فان هؤلاء وهؤلاء يساعدوننا بقواهم المادية في قضاء
حاجات المعيشة .

« ومهما يكن من شيء ، فبين أن البعض هم بالطبع أحرار ،
والآخرين هم بالطبع عبيد ، وأن الرق في حق هؤلاء ، نافع ،
بمقدار ما هو عادل !!

« يكون المرء سيدا ، ليس — البتة — لأنه يعرف أن يحكم ،
بل لأن له طبعا ما ، ويكون الانسان عبدا ، أو رجلا بميزات متشابهة
كذلك !

وينهى الفيلسوف القضية بهذا الحكم القاطع ، فيقول :

« يمكن بالبديهة اذن أن نسمو بهذه المناقشة ، ونقرر : أنه يوجد
بفعل الطبع عبيد ، وأناس أحرار .. وأن العبد ، هو جزء السيد ،
وأنه كجزء حى من جسمه ، وان يكن منفصلا عنه .. كذلك الوضع

بين السيد والعبد ، ما دامت الطبيعة هى التى صنعتها كليهما !! «
(انظر فى هذا : كتاب السياسة ، لأرسطو ، ترجمة ، أحمد لطفى
السيد ، الباب الثانى) .

ولا نريد أن نناقش رأى « أرسطو » هذا ، وما فيه من عدوان
صارخ على الفطرة الانسانية ، وانما يكفيننا أن نأخذ منه الشاهد
على الحياة الانسانية ، وتقلب أحوال الناس فيها ، وقيام صور
واضحة صريحة من الفوارق بين الناس والناس ، بحيث أمكن
أن تتشكل من هذه الظاهرة قضية ، يعالجها العقل ، بل وتبنى
عليها الحياة العقلية ، عند أكبر فلاسفة شهدتهم الحياة ! .

وعلى هذا ، فانه اذا كان فى وسع الضمير الانسانى أن ينكر
الرق ، وأن يعده جريمة شنعاء فى حق الانسانية — فانه ليس فى
وسع العقل أن ينكر واقعا كان — ولا يزال — يعيش فيه الناس ،
وان اختلفت صورته ، وتباينت أشكاله ، وتعددت مظاهره ..

ان حالة الحرب ، تعطى المتحاربين فى هذا العصر حق الأسر ..
هذا الحق الذى يجعل الأسرى فى يد أسريهم فى حال أسوأ من
الرقيق .. فقد يجد الرقيق فى ملك مسترقه رعاية وعناية أكثر
مما يجده أحسن الأسرى حالا ، وأطيبهم مقاما .. اذ كان الرقيق
— فى أسوأ أحواله — مالا ، يحرص صاحبه على سلامته .. أما
الأسير ، فهو عبء على أسريه ، ربما كان من المصلحة التخلص
منه بصورة أو بأخرى !

الديانات السماوية والرق :

واذا كان سلطان القوة قائما فى الحياة ، واذا كان الأقوياء
موجودين فى كل زمان ومكان ، حيث يجدون من الناس من يخضع
لقوتهم ، ويذل لسلطانهم — فان الأديان السماوية لم يكن من التدبير
الحكيم لرسالاتها أن تحمل الى الناس دعوة تخرجهم من هذه الطبيعة
التمكنة فيهم ، وغاية ما دعت اليه رسالات السماء فى هذا المقام هو
أخذ الناس بالحكمة ، ودعوتهم الى ما بينهم من أخوة ، والى ما ينبغى
لهذه الأخوة من رعاية ، ومن عدل ، واحسان ، حتى مقام الشقاق
والخلاف ، وما ينبج من ذلك من حرب ومقتال ..

تقول التوراة :

« وأبتدأ نوح يكون فلاحا ، وغرس كرما ، وشرب الخمر فسكر ، وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر به أخويه خارجا .. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على اكتافهما ، ومشيا الى الثوراء ، وسترا عورة أبيهما ، ووجهاهما الى الوراء ، فلم يبصرا عورة أبيهما .. فلما استيقظ نوح من خمرة ، علم ما فعل ابنه الصغير (حام) فقال : ملعون كنعان (ابن حام) .. عبدا يكون لإخوته .. وقال : يبارك الرب آل سام ، وليكن كنعان عبدا لهم .. ليفتح الله ليفايفث فيسكن في مساكن سام ، وليكن كنعان عبدا لهم » (سفر التكوين ٩ : ٢٠ - ٢٧) .

وإذا كان حام هو الذى فعل تلك الفعل التى آذت أباه نوحا ، فإن اللعنة — لم تقع عليه وحده ، بل رمى بها نوح كنعان بن حام أيضا .. وأنها على أية حال لعنة قد أصابت ثلث هذا العالم ، فجعلت هذا الثلث عبيدا للثلثين الآخرين !

وفي أسفار التوراة ، أحاديث كثيرة ، لا تكاد تحصر ، عن العبيد والرقيق الذين كانوا فى خدمة الرسل والأنبياء ، وملك يمينهم !

وفي الإنجيل التى تروى أحاديث السيد المسيح ، وعظاته ، نرى السيد المسيح يضرب كثيرا من الأمثال للعبيد ، الذين يعملون فى ملكة أسيادهم ..

يقول السيد المسيح مثلا : « فمن هو العبد الأمين الحكيم الذى أقامه سيده على خدمه ليعطيهم الطعام فى حينه ؟ طوبى لذلك العبد الذى إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا » (أنجيل متى : اصحاح : ٢٥) .

ويقول السيد المسيح أيضا : « من منكم له عبد يحرق أو يرعى ، يقول له إذا دخل من الحقل : تقدم سريعا واتكئ ؟ بل لا يقول له : أعد ما أتعشى به ، وتمنطق واخدمنى ، حتى أكل وأشرب .. وبعد ذلك تأكل وتشرب .. فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أمر به ؟ لا أظن » (انجيل لوقا : اصحاح : ١٦) .

وما كان المسيح — عليه السلام — لينسج أمثاله من باطل ،
أو يقيمها من خيال ، وإنما يأخذ مادتها من واقع الحياة التى يتقلب
فيها الناس ، ويشهدها سامعوه !

لا نقول هذا ، لنتهم الديانتين السماويتين — الموسوية والعيسوية —
بالاغراء باستترقاق الناس ، واستعباد طائفة منهم لطائفة أخرى . .
ومعاذ الله أن نقول بهذا ، فما جاءت الديانات السماوية الا لتحرير
الانسان بكيانه كله : جسدا وروحا وعقلا . . ولكننا نقول ذلك
لنقرر أمرا واقعا ، شهدته الديانات السماوية ، وعملت فى اناة
وحكمة على استشفاء الناس منه !

ونقول هذا أيضا فى مواجهة تلك الدعاوى الباطلة التى يدعيها
اعداء الاسلام على الاسلام ، بأنه زكى الرق ، أو على الأقل لم
يرتفع بالانسانية الى المستوى الذى يقضى على هذه الآفة !

وقد قلنا من قبل : ان الاسلام — كشرعية سماوية عامة ، عاملة فى
الحياة ، لا يستطيع بقوة كلمته أن ينتزع من الحياة طبيعة متأصلة
فى الناس ، متمكنة فى نفوسهم . . وقد بنى الاسلام على السماحة
واليسر ، والدعوة الى مكارم الأخلاق بالحكمة والموعظة الحسنة ،
فعالج داء الرق علاجا حكيما ، ظهرت آثاره واضحة من أول بزوغ
شمس هذا الدين . . انه لم يدع هذا الداء يستشرى ، بل طب
له ، وقدم من الدواء ما هو كفيلا بأن يحسم الداء . وان كان ذلك
على زمن متطول ، فذلك خير من عملية بتر ، قد تذهب بالجسد
الاجتماعى كله ، أو تحل عقد نظامه !

الاسلام وعلاج الرق :

والحقيقة التى تقع موقع البدهيات ، والتى يكون طلب الدليل
لها ، أو اقامة البرهان عليها ، استخفاها بالعقل ، وعبثا به —
هى أن الاسلام ، قد التقى بالحياة ، والرقيق فيها يملا وجه الأرض ،
والأرقاء يأخذون وضعا يكاد يكون مستقرا الى جانب الحيوان
وأدوات الانتاج ، لا يكادون يتحولون عنه أو يطمعون فى التحول
عنه . . ولاشك أن آراء « أرسطو » التى أشرنا اليها من قبل ،

والتي تجعل الرق خلقة وجيلة يولد بها بعض الناس ، كما يولدون بجلودهم من سوداء ، أو بيضاء ، أو سمراء ، أو حمراء — لأشك أن هذه الآراء كانت نتيجة لازمة لما انطبع في تفكير هذا الفيلسوف من مشاهد الحياة السائدة في عصره ، ووضع العبيد فيها ، على تلك الصورة التي بنى عليها منطقته الفلسفي ..

لقد بلغ حساب الرقيق في دنيا الناس الى درجة سوى فيها بحساب البهائم والدواب ، سواء بسواء ، فأقيمت للعبيد حظائر بعيدا عن منازل السادة ، تماما كما يفعل بقطعان الغنم أو البقر .. ثم حين كثرت هذه الحظائر واتسعت دائرتها ، تحولت الى أحياء معزولة عن المدن .. ولا يزال زنوج أمريكا ، وجنوب أفريقيا ، وتنزانيا ، يعيشون الى اليوم في معازل بعيدة عن منازل البيض ، كما يحرم عليهم الاختلاط بالبيض في المراكب ، أو المدارس ، أو دور اللهو ، وغير ذلك مما يجمع الناس والناس .. وتشهد ثورة العبيد في روما ، بقيادة « بارأكوس » العبد ، والتي هزمت جيوش الامبراطورية الرومانية ، وكادت تذهب بها — تشهد بأن العبيد كانوا يعيشون في مقاطعات مخصصة لهم ، وأنهم كانوا أمة من العبيد ، في مجتمع أمة من الأحرار .

هكذا كان الرقيق على هذه الأرض ، يوم التقى الإسلام بالناس !!

فماذا كان من الإسلام في أمر الرقيق ؟ وماذا حمل من دواء لهذا الداء ؟

أولا : الدعوة العامة الى الإخاء ..

لقد ولد الإسلام الناس ولادة جديدة ، من رحم أم واحدة هي الأرض .. وفي هذا يقول الله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم أخراجا » (١٧ — ١٨ : نوح) .. ويقول سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » (١٢ — ١٣ : المؤمنون) ويقول جل شأنه : « يا أيها الناس انا خلقناكم من نكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. أن أكرمكم عند الله اتقاكم » (١٧ : الحجرات) .

ويقول النبي الكريم : « ايها الناس .. ان الهكم واحد ، وان اباكم واحد ، كلكم لآدم ، وادم من تراب » .. فالى هذا النسب يرجع الناس جميعا .. !

واذن ، فلا دعوى لانسان عثى انسان انه خير منه بمولد ، او بموطن ، او جنس ، او لون .. وانما يتمايز الناس ويفضل بعضهم بعضا ، بما لهم من جهد ذاتى فى مجال الاعمال الصالحة ، وفى مقام السمو العقلى والروحى ..

ولا شك ان هذه الدعوة كان لها اثرها البعيد والعميق ، حين صافت الآذان ، وسلكت مسالكها الى القلوب والعقول .. وخرج كثير من الناس ممن كانوا يعيشون فى اهاب مدموغ بصبغة الحسب والنسب ، خرج كثير من هؤلاء عن هذا الجلد المستعار ، ولبس جلد الانسانية ، ايا كان لونه .. ابيض ، او احمر ، او اسود .. وباستصحاب هذا الشعور أمكن ان يعيش السيد والعبد اخوة ليس بينهما ما كان قائما بين السادة والعبيد من حدود وسدود !

ولاشك ان هذا الشعور الذى دخل على المسلمين ، من دعوة الاسلام هذه ، قد حرر كثيرا من العبيد ، وفك رقابهم من قيود الرق ، احتراما لآدمية الانسان ، التى يراها السيد فى نفسه ، ان تنزل الى هذا الدرك السحيق من الامتهان ، الذى يراه فى اخيه الانسان ، الذى لبس ثوب الرق !

وثانيا : الدعوة الصريحة الى تحرير الأرقاء :

وإذا كان الرقيق مالا له وزنه وحسابه ، عند من هم فى حاجة الى المال ، او الى الحرص عليه والاستزاده منه — فان مثل هؤلاء لا يرضون طائعين ان يتركوا هذا المال بدون عوض ، يرونه مجزيا ، غير مفوت عليهم شيئا ، سواء اكان هذا العوض ماديا او أدبيا ، معجلا او مؤجلا .. المهم هو ان يكون هناك عوض ما .

وقد عرض الاسلام في سوق المعاوضات ، ما يسع كل من في
يدهم رقيق ، ليحرره ، وليأخذوا العوض المجزى لهم ، اذا هم
نزلوا به في تلك السوق !

ومن صور تلك المعاوضات :

١ - العوض المالى :

وذلك بأن يشتري العبد نفسه من سيده ومالك رقبته نظير مال
يتفقان عليه .. فان اتفقا على الثمن المطلوب ، أعطى السيد عبده
كتابا بهذا ، يحدد فيه المال الذى كاتب عبده عليه ، ويسمى الرقيق
في تلك ائحال مكاتبا ، لا يتحرر من الرق حتى يؤدى المال الذى
كوتب عليه ..

وقد دعا الاسلام الى هذه المكاتبه ، وجعلها أمرا ملزما للمالك
الرقيق ، اذا طلب الرقيق ذلك منه فقال تعالى : « **والذين يبتغون
الكتاب مما ملكت أيما نكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا** » (٣٣ :
النور) وقوله تعالى : « **ان علمتم فيهم خيرا** » هو دعوة الى مالك
الرقيق ان ينظر في حاله ، وأن يتحرى قدرته على الحياة اذا هو
تحرر من أسر الرق .. فان بعض الأرقاء ، قد أفسد الرق وجودهم
الانسانى ، وفي خروجهم من يد مالكيهم ضياع لهم .. تماما ، كما
يترك الحيوان الأليف ، ليعيش بين بنى جنسه الذى لم يؤلف ..
انه لا محالة هالك ، اذا هو خرج الى الحياة الطبيعية التى يحيها
بنو جنسه ، بعيدا عن الناس ..

ولما كان الرقيق المكاتب لا يملك مالا ، فقد جاء أمر الاسلام الى
المسلمين أن يخفوا لمساعدته ، وتخليصه من قيد الرق ، بتقديم المال
المطلوب منه .. فقال تعالى : « **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** »
(٣٣ : النور) وقال سبحانه : « **ولكن البر من آمن بالله واليوم
الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه نوى القربى
واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفي الرقاب** »
(١٧٧ : البقرة) وقال جل شأنه : « **فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك
ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا
مقربة ، أو مسكينا ذا متربة** » (١١ - ١٦ : البلد) .

ولم يكتف الاسلام في شأن الرقيق المكاتب بهذا بل جعل في فريضة الزكاة المفروضة في مال اصحاب المال من المسلمين — جعل في تلك الفريضة نصيبا مفروضا لهؤلاء المكاتبين ، فقال تعالى : **« انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله »** (٨٩ : التوبة) .

٢ — العوض بما يقابل المال او الجهد :

فهناك اعمال يرتكبها المسلم ، مخالفا فيها شريعة دينه ، فاذا اراد ان يكفر عنها ، كان كفارة ذلك مالا ينفقه في سبيل الله ، او عبدا يعنته ، ، او اياما معدودات يصومها . . فمن ذلك :

(ا) **الحنث باليمين** : وكفارته هو ما يقول القرآن الكريم : **« اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم ، او كسوتهم ، او تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام ، ذلك كفارة ايمانكم اذا حلظتم »** (٨٩ : المائدة) .

(ب) **القتل الخطا** : وكفارته كما نص القرآن الكريم : **« ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى اهله ، الا ان يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى اهله ، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين »** (٩٢ : النساء) .

(ج) **الظهار** : وهو ان يقول الرجل لزوجته : **« انت على كظهر امي »** يريد تطبيقها وتحريمها بهذا البدع من القول . . وفي هذا يقول الله تعالى : **(والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، من قبل ان يتماسا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا »** (٣ — ٤ : المجادلة) .

فهذه ثلاثة وجوه مئزمة للمسلمين ، فتحتها الاسلام لتحرير العبيد من أسر العبودية .. وقد كان لهذه الوجوه أثر ظاهر في تحرير أعداد لا حصر لها من الرقيق ، بحيث كان مطلع كل يوم يأتي بمحصول وفير من هذا الخير العظيم ، الذي أفاضه الاسلام على الأرقاء ..

فهل وقف الاسلام عند هذا الحد لتحرير الأرقاء ؟

وانظر كيف كان من تدبير الاسلام بعد هذا في محاربة هذه الآفة ، وفي تخليص الانسانية من هذه الوصمة التي لطخت بها جبينها .. فلقد جعل الاسلام من أبوابه الموصلة الى رضا الله تعالى ، والتعرض لثوابه العظيم ، فك الرقاب ، وتحريرها ..

ومن هذا الباب الفسيح دخل كثير من الأرقاء الى عالم الانسانية ، حيث تسابق فيه كل من آمن بالله ، وابتغى مرضاته ، والاستزادة من فضله ورحمته .. وما أكثر المؤمنين يومئذ الذين دعوا فأجابوا في سماحة ورضى ، بلا حدود ..

يقول النبي الكريم : « أيها امرؤ مسلم أعتق امرأ مسلما ، استنفذ الله بكل عضو منه ، عضوا من النار » (البخارى ومسلم) .

ويقول — صلوات الله وسلامه عليه : « من أعان مجاهدا في سبيل الله ، أو غارما في عسرتة ، أو مكاتبا في رقبتة ، أظله الله يوم لا ظل الا ظله » (مسند أحمد) .

وقد استجاب المسلمون لهذه الدعوة الكريمة ، حتى لقد كان الواحد منهم ينخلع بكلمة واحدة من جميع ما في يده من رقيق ، فيقول : عبيدى كلهم أحرار ، لوجه الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الاسوة الحسنة للمؤمنين في هذا ، فما ملك رقيقا من فيء أو غنيمة الا فك رقبتة .

روى البخارى ، عن عمرو بن الحارث قال : « ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم عند موته درهما ، ولا دينارا ، ولا عبدا ولا أمة ، ولا شيئا الا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضا جعلها صدقة » ..

ومع ما حرر الاسلام من عبيد ، فانه ما زال في المجتمع الاسلامي ، وما زال كثير من المسلمين يملكون أعدادا منهم ..

فماذا كان من صنيع الاسلام لهؤلاء الأرقاء ؟

لقد قدم الاسلام لهم اللوانا من البر والرحمة بهم ، حتى يضمن لهم حياة انسانية كريمة ، وهم في أيدي مالكيهم ، الى أن يتوفاهم الله ، أو يجعل لهم سبيلا .

يقول النبي اكريم لأصحابه ، وهو يكشف لهم عن شرار الناس ، ودركاتهم في هذا المرتع الوبيل : « ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ » قالوا بلى ، قال : « من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده » ويقول — صلوات الله وسلامه عليه : « اخوانكم خولكم .. استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » .

وأكثر من هذا ، فان الاسلام قد حاول بحكمته ، أن يقتل في مشاعر الناس الاحساس بالعبودية لمن يملكون من عبيد ، وأن يحمي مشاعر العبيد من هذا الأذى الذي يقع في نفوسهم من ندائهم بكلمة : عبد أو أمة !

يقول النبي الكريم في هذا الأدب الانساني العظيم ، الذي يؤدب به المسلمين : « لا يقولن أحدكم عبدي أو أمتي .. كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم اماء الله .. ولكن ليقل : غلامى وجارىتى ، وفتاى وفتاتى » (صحيح مسلم) ..

انظر كيف يؤدب الاسلام المجتمع الانساني ، وكيف يمسك بأدق الخيوط التي تتسرب في النفوس ، والتي قل أن يلتفت اليها أحد ، أو يعمل لها حسابا ، في حين تلد مواليد ضخمة خطيرة في الحياة ، وتترك آثارا سيئة عميقة في كثير من جوانبها !!

الحق أبلج ، والصبح بين لذي عينين !

شيء عظيم رائع وكثير هذا الذى صنعه الاسلام لتحرير الرقيق ، تحريراً منبعثاً من أعماق الانسانية ، ونابعاً من وجدانها ، وصادراً من ايمان يسكن الضمائر ، ويعمر القلوب .

وانه ليزيد فى روعة هذا الصنيع وعظمته ، انه جاء فى وقت كانت فيه الانسانية كلها ملففة فى ظلمات الجاهلية ، متخبطة فى أمواج متلاطمة من البغى والظلم والعدوان ، بحيث لاعاصم لانسان من انسان يومئذ الا قوة مخالبه ، وحدة أنيابه ، والآ فهو لقمة سائغة لمن هو أحد منه نابا ، وأقوى مخلبا ..

صفحة مشرقة فى تاريخ الانسانية كتبها الاسلام ، وشمس مشرقة طلع بها عليها فى ظلام ليلها البهيم ، استضاءت بها النفوس ، وتحررت بها الرقاب ، واستدفأ بها المقرورون ، الملقون بالعراء ، من الآدميين المستضعفين !!

الا فلتخرس هذه الأفواه التى تنبج الاسلام ، والا فلتنجر تلك الحيات التى تنفث سمومها فى عباب هذا البحر العظيم ، والا فلتتشل تلك الأيدي التى تحاول أن تطول الشمس ، وتخفى ضوءها :
« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون ، هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » (٣١-٣٢ : التوبة) .. « والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

* * *

ثانياً : الاسلام .. والسيف !!

ومما يشنع به المشركون ومن فى قلوبهم مرض ، على الاسلام ، انه دين قام على السيف ، وان انتصاراته المعروفة فى التاريخ ، وفتوحاته الواسعة ، لم تكن الا بقوة السيف الذى تسلط به النبى واصحابه على رقاب الناس ، وأنه لولا هذا السيف لما كان لهذا الدين مكان خارج الصحراء العربية !

وأصحاب هذه المقولات الآثمة التي كثيرا ما تجرى على صحف علمائهم ، ومستشرقيتهم ، لا يتورعون من أن يجاوزوا هذه المقولات الى القول بأن حركة الإسلام ، لا تعدو أن تكون غارة من تلك الغارات البربرية التي تهجم على الناس ، فتزعجهم عن أوطانهم ، وتدمر حياتهم ، وتحملهم على أن يعيشوا بغير ارادة ولا رأى ، فيما يأخذون أو يدعون من شئون الحياة المادية والعقلية والروحية جميعا ..

فماذا نقول لهؤلاء ؟ وبأى منطق نتحدث اليهم ؟

انهم ليسوا طلاب حق ، ولا باحثين عن حقيقة .. ولو كان هذا شأنهم لكان للحديث معهم شأن ، وللمنطق حساب ، ولشواهد التاريخ موقع ، وللحاضر المشهود موقف .. ولكن القوم يستملون مقولاتهم من أحقاد دفيئة ، ويستمدون دعاواهم من عداوة متربصة بالإسلام وأهله .

فاذا تحدثنا هنا لفضح هذه الفرية العظيمة على الإسلام ، فانا لا نتحدث الى هؤلاء المحترفين للتحريف ، وللدس والكيد للإسلام ، وتخريب مواطنه ، باجلاء الإسلام عنه ، والتمكين للمستعمرين فيه .. نحن لا نتحدث الى هؤلاء ، وانما نتحدث الى أهل الإسلام انفسهم ، الذين كثيرا ما يجد هذا الضلال مسارب الى عقول وقلوب كثير منهم ، وخاصة الشبان الذين لم يتصلوا بدينهم اتصالا وثيقا ، ولم يردوا شرعته ، ولم ينقوا الصدى من مشرعه العذب الزلال ..

الإسلام والسلام :

والا فليعلم من لم يكن يعلم ممن يدينون بالإسلام ، أن كلمة « الإسلام » هي عنوان دينهم ، والراية التي تجتمع عليها أمتهم ، كما يقول سبحانه مخاطبا هذه الأمة : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » (٣ : المائدة)

والاسلام ، والسلم ، والسلام ، والسلامه ، كلها ذات دلالات
مقاربة .. فالاسلام ، سلام ، وسلم ، وسلامة .. وأنه لو لم يكن
الاسلام عنوانا للشريعة الاسلامية لجاز أن يكون السلام عنوانا
لها ..

وحسبك — أيها المسلم — بدين هذا عنوانه ، الأمر الذي يقضى
بأن تكون تعاليمه وأحكامه ، شارحة لهذا العنوان ، داعية إليه ،
محقة له ..

وهذا ما كان فعلا ، قولا ، وعملا .

فدعوة الاسلام كلها خالصة لخير البشرية ، وأمنها ، وسلامتها ،
وحفظها من آفات الشر ، والبغى ، والعدوان .. وأنه لن يقوم
الأمن والسلام الا في مجتمع يسوده الحب والأخاء .. ولا نحسب
دينا أو شريعة ، أو مذهباً ، حقق لمجتمع ما حققه الاسلام في
مجتمعه ، وفي المجتمعات التي اتصلت به ، وتعاملت معه ، من
عدل في القضاء ، ومن مساواة مطلقة في الحقوق والواجبات .

وأنه لكي يمكن الاسلام لمعنى السلام في قلوب أهله وعقولهم ،
فقد جعل كلمة السلام بعضاً من عبادتهم المفروضة عليهم لله رب
العالمين ..

ففى مقام الصلاة بين يدي الله ، يردد المسلم في أحيات ،
وخشوع ، وولاء ، هذه العبارة الجليلة : « السلام عليك أيها
النبي ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا ، وعلى عباد الله
الصالحين » ..

إنها دعوة يدعو بها المسلم ربه ، طالباً السلام للنبي والرحمة
والبركة ، كما يطلب بها السلام لنفسه ، ولكل عباد الله الصالحين .
يفعل ذلك المسلم في الصلوات الخمس المفروضة كل يوم ، وفي
صلوات السنن والنوافل .. وما أكثرها ..

كذلك جعل الاسلام تحايا أتباعه التي يتبادلونها فيما بينهم ،
ويحیی بها بعضهم بعضاً ، كلمة «السلام عليكم» لتكون راية أمن

وسلام ، يلتقى بها المسلم كل من عرف ولم يعرف .. فاذا هى رسول سلام ومودة وألفة ، تزول بها الوحشة ، ويطرد بها كل ما توهم من عدوان ، وتصبح عهدا وميثاقا بين المتلاقيين ..

وبهذه الكلمة ، يدخل الناطق بها فى حمى الجماعة الاسلامية ، بمجرد أن ينطق بها ، حتى ولو كان قلبه على غير عقيدة الاسلام ، يقول الله تعالى : **« ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا »** (النساء : ٩٤) ..

ومن حكمة الاسلام فى هذا الأمر ، أنه اذ جعل المبادأة بالسلام سنة ، جعل الرد على منلقى السلام واجبا .. انها يد ممدودة للمصافحة بالسلام ، ودعوة الى المسالمة والموادعة ، من أى يد ، ومن أى قلب ، فلا ينبغى لمؤمن ردها بأى حال .. يقول الله تعالى : **« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »** (النساء : ٨٦) .

فأى شىء أفعل فى النفوس ، من هذا اللقاء الكريم بين الانسان والانسان ، وهذا الود البذول ، الذى يتبادلله الناس مشاعر طيبة ، وعواطف كريمة ؟

السلام انن هو دعوة الاسلام ، وملاك أحكامه ، وغاية شريعته . وكيف لا يكون الاسلام سلاما وأمنا للناس ، وهذه دعوة الله تعالى فيه للناس جميعا ، يتجه بها الى المؤمنين ليكونوا رسل رحمة وسلام ، بين الناس .. **« يا أيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان .. أنه لكم عدو مبين »** (البقرة : ٢٠٨) ؟ ثم كيف لا يكون الاسلام سلاما وأمنا ، وهذا خطاب الله تعالى لرسوله الكريم : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »** (الأنبياء : ١٠٧) ؟ وهل السلام الا الثمرة المباركة من ثمار الرحمة ؟

التاويل الفاسد لآيات الله :

ومن سفاهة المتطاولين على الاسلام ، والشائئين له ، أنهم يتخذون من آيات القرآن الكريم حجة لهم على أن الإسلام يهيج

البغى والعدوان في نفوس اتباعه ، ويفريهم بإقامة غير المسلمين ،
 وازهاق أرواحهم ، ويعد الذين يقتلون منهم في غاراتهم العدوانية على
 أعدائهم ، خلودا في جنات النعيم !! ويقدم هؤلاء السفهاء المدلسون
 من آيات الله ، قوله تعالى : **« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم
 الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق
 من الذين أتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »**
 (٢٩ : التوبة) وقوله سبحانه : **« فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب
 الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء
 حتى تضع الحرب أوزارها »** (٥ : محمد) .. وقوله جل شأنه :
**« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به
 عدو الله وعدوكم »** (٦٠ : الأنفال) .. الى غير ذلك من الآيات
 التي تحرض المؤمنين على القتال ، والاستشهاد في سبيل الله ،
 واصطناع أدوات الحرب وعددها ، واعداد ذلك للحرب !

والذي يقرأ ، أو يسمع مثل هذه الآيات ، منقطعة عما بين
 يديها وما خلفها من آيات الله ، يمكن أن يحملها على تلك المحامل
 المضللة التي ينخدع لها من لا يعرفون كتاب الله ، ولا ما تعطيه
 آياته من ثمرات طيبة مباركة .. كمن يقرأ قوله تعالى : **« يا أيها
 الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة »** ولا يصلها بقوله تعالى : **« وأنتم
 سكارى ، حتى تعلموا ما تقولون »** (٤٣ : النساء) .. فيتسع
 له القول هنا بأن يقول : ان الاسلام ينهى المؤمنين عن الصلاة ،
 وأنه لا صلاة في الاسلام ! وقد لا يجد بعض المسلمين ، ممن يجهلون
 حقائق دينهم ، الا الحيرة ، والقلق ، والاضطراب !

وقد نبه القرآن الكريم الى هؤلاء المخادعين المدلسين ، الذين
 يحرفون الكلم عن مواضعه ، والذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون
 ببعض ، فقال تعالى : **« أفنؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض
 فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم
 القيامة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون »**
 (٨٥ : البقرة) .

آيات الله ، وما تنطق به :

والذى له أن يستشهد بآية أو آيات من كتاب الله ، ينبغى أن يكون مؤمنا بهذا الكتاب ، وبأنه منزل من عند الله ، وأن الذى يدعو بهذا الكتاب هو رسول من عند الله ..

فهل يؤمن هؤلاء السفهاء والمدلسون بشيء من هذا ؟ انهم لو كانوا يؤمنون به . لראوا الحق ، واهتدوا به الى سواء السبيل ، ولما ضلوا .. وعموا !

انهم لو كانوا يطلبون حقا ، ويبحثون عن حقيقة لكان لهم فى قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فهما غير هذا الفهم السقيم الذى فهموه من الآية ، وخرجوها عليه ، ولعلموا أن هذه الدعوة الى المؤمنين بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، انما هى دعوة تشد عزائم المسلمين ، وتربط على قلوبهم ، والحرب دائرة بينهم وبين هؤلاء الذين يقاتلونهم ، والذين يبدعونهم بالحرب والعدوان ، ولعلموا أنه ليس من شريعة الاسلام البدء بحرب أو عدوان للمسلمين ، ولوجدوا من آيات الله أكثر من شاهد لهذا .. فالله سبحانه وتعالى يقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (١٩٠ : البقرة) .. ويقول تبارك اسمه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١٩٤ : البقرة) .. ويقول جل شأنه : « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدعوكم أول مرة » (١٣ : التوبة) ..

فاذا دخل المسلمون هذه الحرب مع من اعتدى عليهم ، ونقض عهود السلم التى عقدوها معه — أكونون دعاة حرب ، وأعداء سلم ؟ وماذا يطلب من المسلمين فى تلك الحال ؟ أيتركون المعتدى يحصدهم ويأتى عليهم ، وهم راضون مستسلمون ؟ أهذا حق ؟ وهذا مما تحتمله الحياة ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولولا دفع الله الناس

بعضهم ببعض ففسدت الأرض .. ولكن الله ذو فضل على العالمين»
 (٢٥١ : البقرة) وفضل الله هنا انما هو في اعطاء الحق كاملا لمن
 اعتدى عليه ان يرد هذا العدوان ، وان يقطع تلك الأيدي التي
 تعتدى عليه ، وتريد الفتك به ! والله سبحانه وتعالى يقول :
**« ولما انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، انما السبيل
 على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق »**
 (٤١ - ٤٢ : الشورى) .

ولو ان هؤلاء المتطاولين على الاسلام ، المحرفين الكلم عن
 مواضعه ، كانوا يطلبون الحق ، وينشدون الحقيقة ، لرأوا في
 قوله تعالى : **« فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا
 اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء ، حتى تضع
 الحرب أوزارها »** - لرأوا في هذا التوجيه الالهي آية من آيات
 رحمته تعالى في جحيم هذه الحرب المستعرة بين المسلمين وأعدائهم .

فالمسلمون هنا في حرب دفاعية ، في حرب لم يهيجوها ، ولم
 يعملوا لها ، ولم يبدعوا بايقاد نارها ، وانما هم يردون عدوانا
 ويدفعون بغيا .. فتلك هي الحرب المأذون من الله سبحانه للمسلمين
 ان يكونوا طرفا فيها ..

فاذا وقعت هذه الحروب ، فماذا يكون من المسلمين فيها بحكم
 هذا التوجيه الالهي الكريم ؟

أولا : ان يعملوا جاهدين على ان يكسروا شوكة أعدائهم ، وان
 تكون لهم الغلبة عليهم ، لأكثر من سبب ، فهم معتدى عليهم ،
 وهم في وجه عدو يريد القضاء عليهم ، فان لم يغلبوه غلبهم ،
 وأنزل الهلاك بهم ، وهم مؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، يحاربون
 معتدين ، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. ومن هنا كان عليهم أن
 يضربوا حيث ينالون من العدو مقاتله ، ويطفئون هذه النار المسلطة
 عليهم قبل أن تحرقهم ، وتجعلهم وقودا لها .. **« فاذا لقيتم الذين
 كفروا فضرب الرقاب »** .

وثانيا : انه اذا كسر المسلمون شوكة عدوهم ، وألقى العدو يده
 مستسلما لهم ، فلا يقتلونه ، لأنه لم يعد مقاتلا ، أو صالحا للقتال

في تلك الحرب .. ولهذا جاء الأمر الإلهي : « فشدوا الوثاق » ..
والمراد من شد الوثائق ، هو أسر الذين استسلموا من العدو ،
أو سقطوا جرحى في ميدان القتال ، وذلك حتى لا يخرج هؤلاء
المستسلمون من أيديهم ، ويعودوا من جديد لحربهم ..

وثالثا : هؤلاء الأسرى الذين وقعوا بأيدي المسلمين .. ماذا
يفعل المسلمون بهم ؟ .. أنهم مخيرون بحكم الله تعالى فيهم ،
وهو إما أن يمّنوا عليهم ويطلقوا سراحهم ، وإما أن يقبلوا الفدية
منهم ، سواء أكانت هذه الفدية مالا ، أو فك أسرى من المسلمين
وقعوا بيد العدو .. وذلك ما جاء في قوله تعالى : « فأما منا بعد
وأما فداء » .

هذا وجه من وجوه الاسلام المشرقة ، فيه ما فيه من معاني
الانسانية الرفيعة السامية ، التي تراود أحلام الاخلاقيين
والفلاسفة المثاليين ، والتي لا يجدون لها في عالم الواقع مكانا
الا في حوى الاسلام ، وفي حرب المسلمين !

فالاسلام في حربه مع الكافرين — وهم حرب على كل حق وخير —
لا يريد قتلهم ، ولا يشتت اراقة دمايهم ، ولو كان من همه هذا
لما رد سيفه عن كانوا لساعتهم حربا عدوانية على المسلمين ،
يقتلونهم ، ويسفكون دماءهم ، ثم سقطت سيوفهم ، وتكسرت
رماحهم ، وأصبحوا في متناول سيوف المسلمين ورماحهم ،
لا يحجزهم عن القتل الا ما أمر الله تعالى المسلمين به من كف
أيديهم عنهم ، والاكتفاء بالأسر ، دون القتل !

هذا هو الاسلام في حربه في المعتدين عليه .. انها حرب لطلب
السلامة والسلام ، وليست حربا للتسلط والبغي والقهر ..

فأى ميزان أعدل وأقوم من هذا الميزان فيما بين الناس والناس ؟

وأى أمن وأى سلام ، كهذا الأمن وذلك السلام الذي كان يمكن
أن يجده المجتمع الانساني في ظل هذا المبدأ الذي فرضه الاسلام
على أتباعه في وجه العداوة المطلقة عليه ، وفي رد العدوان
المساق اليه ، لو أن غيرهم جرى على هذا المبدأ القديم ؟

يقول الرسول الكريم في وصاته لأصحابه : « لا تقتلوا شيئا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ، ولا امرأة » .

ويقول : صلوات الله وسلامه عليه في وصاته لهم : « أخرجوا باسم الله ، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان ، ولا أصحاب الصوامع » .

ويقول خليفة رسول الله أبو بكر ، رضى الله عنه في وصاته لأحد قواده في حرب الروم : « انى موصيك بعشر خلال : لا تقتل امرأة ولا صبيا ، ولا كبيرا هرما ، ولا تقطع شجرا مثمرا ، ولا تخرب عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لماكلة ، ولا تعقرن نخلا ، ولا تحرقه ، ولا تغفل ولا تخن » .

انها حرب الاسلام ، غايتها الاصلاح ، ودفع الخطر ، وبتر الأعضاء الفاسدة الباغية ، المهددة لأمن الناس وسلامتهم . . ولو كان من هم الاسلام في الحرب ، الغلب ، والتقهر ، والتسلط ، وشفاء الاحقاد والاضغان — لما كان منه الا التدمير لكل عامر ، والقتل لكل نفس !

ولقد تلقى المسلمون من شريعة دينهم ، هذا الأدب الربانى العالى في حرب عدوهم ، فكانوا دائما في صحبة ملازمة لكل معنى الانسانية النبيلة الكريمة . . فلم تسكرهم حميا النصر ، ولم تجر على مروعتهم وشرفهم شهوة الانتقام والتشفى . . بل كانوا على هذا الأدب الربانى ، في السلم وفي الحرب ، وفي حال الهزيمة أو النصر . . لم يتخلوا ابدا عن انسانيتهم ولم يتحولوا الى وحوش كاسرة ، يلغون في دم الناس ، لا يفرقون بين محارب ومسالم ، ولا بين صبي ومقاتل ، ولا بين امرأة ورجل ، كما عرفت الحياة من حروب ، وكما تشهد الحياة اليوم منها ، مما لم يعرف حتى في عالم الحيوانات ذات المخالب والانياب !!

ثم أنه لا بد من وقفة بين يدي الآية الكريمة التي يقيم منها اعداء الاسلام شاهدا على أنه يعد أتباعه لأن يكونوا أمة شغلها اصطناع ادوات الحرب ، والافتتان في اعداد ادوات الدمار والخراب . .

ويقولون : أليس كتاب المسلمين يقول لهم : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** » (٦٠ : الأنفال) فلمن هذا الاعداد ؟ أليس للحروب ، ولازهاق الأرواح وسفك الدماء ؟

الا ما أضل ضلالهم ، وما أعمى قلوبهم ، وما أجراهم على الكذب المفضوح !! ألم ينظروا الى ما بعد هذه الآية الكريمة مباشرة ، وهو قوله تعالى : « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** » . انهم لم يمدوا أبصارهم الى أبعد مما يشتهون الوقوع عليه من آيات الله ، تلهفنا الى الاتهام واصدار الحكم بالادانة !!

اهناك دعوة الى السلم والسلام أبر وأكرم من هذه الدعوة ؟ « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** » .. وهل في اعداد المسلمين أنفسهم للحرب ، وتسليحهم بكل ما عرفت الحياة من أسلحتها جريمة ؟

وإذا كان الاعداد للحرب ، واستصناع كل أدوات القتال وأسلحته جريمة ، فانه في حق المسلمين فضيلة ومكرمة ، واحسان ..

ان هذا الاعداد من المسلمين للحرب وأدواتها محجوز بحجاز العدل ، والاحسان الذي ملأ الله تعالى بهما قلوب المسلمين ، حيث لا تنزع بهم قوتهم أبدا الى بغى أو عدوان ، وانما هذا الاعداد مجرد ارهاب العدو المتربص بهم ، حتى لا يفريه الطمع فيهم بالعدوان عليهم ، فاذا رأى ما بين أيديهم من أسلحة ، وما في قلوبهم من استعداد للتضحية والاستشهاد ، كف يده ، وماتت دواعى العدوان عليهم في نفسه ، وبهذا لا تقع حرب كان العدو لا يحجم عنها لولا هذه القوة الرابدة له ، الرادعة لعدوانه .. « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم** » .. انها قوة للارهاب ، وللتحذير ، ولقطع نوازع العدوان على المسلمين ! أليس ذلك هو منطوق الآية الكريمة ومفهومها ؟ بلى .. ولكن هل يقف الشائء المبعوض ، عند منطوق أو مفهوم ؟

السلام والاستسلام :

كانت دعوة المسيح — عليه السلام — دعوة كلها سلام خالص ، بل هي استسلام مطلق لكل ظلم وبغى وعدوان .. هكذا كانت دعوة المسيح ، وهكذا كانت سيرته وسيرة حواريه وأتباعه ، تحكمهم جميعا دعوة المسيح المشهورة ، التي تكاد تكون عنوان الرسالة المسيحية والتي يقول فيها : « سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ بثوبك فاترك له الرداء أيضا » (٥ : انجيل متى) .

فماذا كان نتاج هذه الدعوة ؟ هل سلم أتباعها من الأشرار ؟ وهل كان موقفهم السلبي من المعتدين الآثمين شفيعا يشفع لهم عند هؤلاء المعتدين ، أو يخفف مما يرمونهم به من ضر وأذى ؟ وهل سلم المسيح نفسه إذ سالم اليهود ، واستسلم لهم ؟

الحق أن ذلك كان اغراء لأهل السوء بأهل الصلاح والتقوى .. إذ انهم ما أن علموا بأن المسيح وأتباعه لا يقابلون الشر بالشر والعدوان بالعدوان ، حتى تسابقوا الى مد أيديهم بالضر والأذى الى هذه الجماعة المسالمة المستسلمة التي كانت هدفا قريبا المنال ، لكل من يريد اشباع شهوته الى البغى والعدوان ، أو ارواء ظمئه الى التسلط والقهر واذلال الناس .. فما أكثر الجياع في الناس الى البغى والعدوان ، وما أكثر الظمأى فيهم الى التسلط على الناس وقهرهم واذلالهم .. !

فكم لقي « المسيح » وكم لقي أتباعه من ضر وأذى ؟ وكم احتملوا من بلاء وعذاب ؟ لقد كانت خطوات المسيح وخطوات أتباعه معه ، على طريق مخضب بالدماء .. دماؤه — كما شبه لأعدائه — ودماء أتباعه من بعده .. وليس ثمة قطرة دم مراقة من هؤلاء الذين أراقوا دماء هؤلاء المسالمين المستسلمين .

ولحكمة ما أراد الله سبحانه للمسيح أن يأخذ هذا الطريق ، وأن يحمل تلك الدعوة الداعية الى الاستسلام ويجري تلك التجربة البكر في الحياة ..

انها دعوة قاسية ، تسير في اتجاه مضاد لسير الحياة .. وقد ارادها الله سبحانه هكذا ، لعنة من اللعنات التي صبها على اليهود وأخذهم بها في كل مرحلة من مراحل تاريخهم مع الأنبياء والرسل ..

فالمسيح — عليه السلام — هو نبي الى اليهود خاصة ، ودعوته مقصورة عليهم لا تتعداهم الى غيرهم كما يقول المسيح عليه السلام : « ما جئت الا لحراف بيت اسرائيل الضالة » .. وقد جاءهم المسيح بتلك الدعوة التي أن استقاموا عليها ، كان فيها اذلالهم ، وجعلهم موطننا لأقدام الناس .. وان هم أبوا أن يقبلوها ، ويأخذوا أنفسهم ، بها كانوا كافرين بالله ، مأخوذين بما أعد الله للكافرين من خزي في الدنيا وعذاب مهين في الآخرة ..

وقد أخذ الله تعالى اليهود بأحكام دينية قاسية ، غايتها تأديبهم واعنائتهم واذلالهم ، لا اصلاحهم ، وتقويمهم .. فقد حرم عليهم العمل في يوم السبت ، كما حرم عليهم ما أحل لغيرهم من طيبات الطعام وفي هذا يقول الله تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » (١٦٠ : الأنعام) .

ويقول سبحانه : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وأنا لصادقون » (١٤٦ : الأنعام) .. وذلك مما لا تحتمله النفس ، أو تصبر عليه .. واليهودى من هذا بين أمرين : اما أن يمثل أمر الله فيه فيهلك أو لا يمثله فيكفر . !

نقول : ان تجربة السلم أو الاستسلام تلك التي دعا اليها المسيح عليه السلام ، وعاش فيها ، قد كشفت عن حقيقة لاشك فيها ، وهى أن الحياة ترفض هذه التجربة ، ولا تقبلها كمبدأ من المبادئ العاملة فيها ، وانما تقبلها كدواء مر ، لأجل موقوت ، الى أن يشفى المريض ، أو يموت بدائه .. ولقد ترك المسيح اليهود ليموتوا بدائهم ، بعد أن حطموا بأيديهم قارورة الدواء ، الذى أبت طبيعتهم أن تستجيب له !!

والسيد المسيح نفسه قد أنهى هذه التجربة في الأيام الأخيرة من حياته ، وزد الى اتباعه وحوارييه حقهم في الحياة وفي الدفاع عن أنفسهم ..

يقول المسيح في آخر موقف له مع تلاميذه : « حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية .. هل أعوزكم شيء ؟ فقالوا : لا ، فقال لهم : ممكن الآن .. من له كيس فليأخذه .. ومزود كذلك ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتري سيفاً » . (٢٢ : لوقا) !! .. نعم ، من ليس له كيس ، فليبع ثوبه ، وليشتري سيفاً ، ليحفظ وجوده ، ولو عاش عرياناً بلا ثوب ، والا فقد الثوب ، وفقد الحياة معاً !!

السيف وموضعه :

ان السيف أمر لا بد منه لدفع العدوان ، ولردع المعتدين .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .. تلك هى سنة الله فى خلقه ، وذلك هو واقع الناس فيها أخذهم الله به من سنن .

فانقول بأن الاسلام دين قام على السيف ، دعوى كاذبة مضلة ، يراد بها النيل من المسلمين ودولتهم ، كما يراد بها النيل من الاسلام وشريعته .. انها دعوة خبيثة مسمومة ، يراد بها أن تنهزم فى نفس المسلم معانى العزة والقوة ، لأنه ان أراد أن يسقط تلك الدعوى الباطلة ، ويدفع هذه التهمة الظالمة ، كان أقرب سبيل اليه ، هو أن يتجرد من كل سلاح ، وأن يتعرض من كل قوة .. وما حاجته الى السلاح ان كان السلاح سبة تدين دينه ، وتربه منه أنه دين بداوة وهمجية ، وشريعة غاب ، يحكم مجتمعها التناطح بالقرن ، والتقاتل بالمخالب والانياب ؟

هذه هى الحركة النفسية التى تحدثها تلك الدعوى الماكرة فى نفوس المسلمين ، حين يلتون آذانهم الى هذه التخرصات الفاسدة الماكرة ، التى تجعل القوة التى يبعثها الاسلام فى مجتمعه ، شارة دالة على بدائية هذا الدين وتخلفه ..

وتلك الحركة النفسية من شأنها — لو وجدت قبولاً — أن تفعل فعلها في تفكير المسلمين ، وفي سلوكهم ، فتصرفهم صرفاً قويا حادا عن كل سبب من أسباب القوة ، وبذلك يخلو الطريق للعدو المتربص بالاسلام والمسلمين ، فتمكنه الفرصة من التسلط عليهم ، والاستبداد بأوطانهم وأرزاقهم . . الأمر الذي وقع على ابشع صورة وأشنعها ، حين وقعت أوطان المسلمين جميعها فريسة للاستعمار ، الذي سلب عليها سيف القوة ، فسلبها كل مقومات حياتها المادية والخلقية ، وكاد يسلبها حياتها الروحية ، لولا وثاقة هذا الدين ، الذي يجري في مشاعر أهله ، جريان الدم في العروق .

والحق أن هذه الدعاوى الباطلة التي يدعيها المدعون على الاسلام ، وأنه دين بداءة وشريعة غاب ، يتعامل مع الناس بالظفر والناب — هذه الدعاوى لا يقف أمرها وخطرها عند حد تشكيك المسلمين في الاسلام ، وانحلال الرابطة التي تربطهم به أو توهينها ، بل يتجاوز هذا الى صرف غير المسلمين عن الالتفات الى الاسلام ، بإثارة هذا الجو المريب حوله ، حتى لا ينظر فيه أولئك الذين خلت نفوسهم من الدين ، من أهل أوروبا وأمريكا ، الذين اصطدمت معارفهم العلمية بقضايا الدين الذي ورثوه ميراثا عن آباءهم وأجدادهم ، والذي استبان لهم منه بعد أن عرضوه على أضواء العلم الحديث أنه لا يلتقى مع عقل ، ولا يستقيم على منطق ، فهجروه ، وزهدوا فيه ، وأصبحوا على غير دين ، الأمر الذي لا يصبرون طويلا عليه ، اذ لابد أن يطلبوا ديناً ، تعيش فيه مشاعرهم ، وتتغذى منه أرواحهم ، حيث لا يمكن أن يعيش انسان — أى انسان — من غير دين !!

دعوى وتفنيدها :

ونعود الى قضية السيف التي يدعيها المدعون على الاسلام ، وأنه قام عليه ، وفتح طريقه الى القلوب به — فنقول :

انه لو كان أمر الاسلام أمر قوة مادية ، لما كان في الحياة اليوم انسان يدين بالاسلام ، ولما كانت دعوة الاسلام أكثر من حدث من أحداث

التاريخ ، عاش في الحياة زمنا ، ثم طواه الزمن فيما طوى من وقائع وأحداث .

فهل هذا هو واقع الاسلام ؟ وهل هذا هو شأنه في وقائع الحياة وأحداثها ؟ ان الأمر لعل عكس هذا تماما ..

وان شهادة الواقع لا تحتاج الى بيان .. فهي ناطقة بأفصح لسان ، بأن دولة الاسلام تزداد على الأيام امتدادا واتساعا ، وأن زحفه السلمى المكتسح لم يتوقف لحظة واحدة ، حتى في أقسى الظروف وأحلكها ، التي مرت بالاسلام ، وألقت بكل ثقلها عليه ..

لقد قطع الاسلام من حياته المباركة أربعة عشر قرنا .. وأنه اذا سلمنا بالقول بأن الاسلام قام على السيف والقوة في أول حياته، فإنه محال أن يسلم بالقول بأن ذلك السيف وتلك القوة قد صحبا الاسلام ، وكانا مستندا له على امتداد هذا الزمن كله ..

فما عرف الناس في الحياة قوة تظل حارسة ساهرة لمبدأ من المبادئ أو نزعة من النزعات ، أكثر من سنوات معدودات .. لجيل أو جيلين من الناس .. أما أن تظل هذه القوة قرونا متطاولة من الزمن ، قائمة على حراسة مذهب من المذاهب ، أو نزعة من النزعات ، فذلك ما لم يكن ولن يكون أبدا .. ان القوة انما تخدم غرضا ذاتيا يعيش في كيان انسان من الناس ، أو جماعة من الجماعات ، ولن تتجاوز حياتها بحال حياة الجيل الذى يعيش فيه هذا الانسان أو تلك الجماعة .. ثم يموت المبدأ أو المنزع ، يموت القوة التى أقامته ، وحرسته !

ونفترض — جدلا — أن تقوم قوة ما لخدمة غاية من الغايات أجيالا متعاقبة ، ونفترض — جدلا كذلك — ، أن هذه الأجيال قد تواصلت فيما بينها على اتخاذ هذه القوة حارسة على هذه الغاية التى تنشدها وتعيش فيها ..

فهل حدث هذا في المجتمع الاسلامى ؟ وهل كانت القوة دائما الى جانب الاسلام ، تحرسه ، وتدافع عنه ؟

التاريخ يشهد شهادة لاشك فيها — وواقع المسلمين اليوم ينطق بها — بأن دولة المسلمين التي قامت في صدر الاسلام ، والتي كان لها ما كان من قوة وسطوة — هذه الدولة ، قد تفككت وأنحلت بعد ثلاثة قرون ، وعراها الوهن والضعف ، وأصبحت دولة الاسلام امارات ودويلات متنازعة متخاصمة ، وخضع كل صقع من اصقاع هذه الدولة ، لقوى غاشمة طاغية ، تضمر للمسلمين كل عداوة ، وترصد للاسلام كل شر ..

لقد وقع الاسلام والمسلمون في وجه عواصف عاتية جائحة ، للغزو البربري ، الذي كان من شأنه أن يدمر كل شيء ، ويأتي على كل شيء ، لولا قوة هذا الدين ، وما غرس في أتباعه من معالم الحق والخير .. وحسبك أن تذكر هنا الغزو التتري ، أو الغزو المغولي .. فما مر أحدهما بموطن من المواطنين الا أحاله خرابا يبابا .. ثم حسبك أن تذكر الحروب الصليبية التي سامت فيها أوربا كلها جميع ما لديها من قوى لتدك حصون الاسلام ، وتأتي على قواعده ، وقد ظلت الحروب الصليبية هكذا عدة قرون ، ترمى المسلمين ، وأوطان المسلمين بكل ما لديها من وسائل الاهلاك والتمير ، ومع هذا ظل الاسلام حيا نابضا بالحياة ، بل وتحول وهو واقع تحت الغزو الى قوة غازية تغزو الغازين ، وتفتح عقول وقلوب كثير منهم الى هذا النور الذي يشع منه دائما ، والذي يزداد — مع أطباق الظلام عليه بريقا — وضياء ، وحسبك أن تذكر هنا أن التتار الذين كانوا وحوشا ضاربة ، قد صافحوا الاسلام قلوبهم ، فدخلوا في دين الله ، وتحول بهم هذا الدين من عالم الوحشية والهمجية الى عالم الانسانية ، وفي المستوى الكريم منها .. ثم بحسبك أيضا أن تذكر الاستعمار الغربي الذي تسلط على قارتي أفريقيا وآسيا ، حتى لقد كانت مواطن الاسلام كلها تحت يده .. فما حل الاستعمار بأرض الا أجدبت من كل خير ، وأصبحت مرعى خصبا لآفات الجهل والفقر والضعف .. ومع هذا كله ، ومع ما أصاب المسلمين من بلاء ، فقد بقي الاسلام في قلوب أهله متمكنا قويا ، لا يتحولون عنه أبدا ، ولو أخذوا بكل ألوان الضر والأذى ، في أموالهم وأنفسهم ، أو جيء اليهم بكل مغريات الحياة من مال ونساء على يد المستعمرين والمبشرين ..

فتاريخ الاستعمار للدول الإسلامية ، يؤلف كتابا ضخما ، أسود الصفحات ، لما كان يأخذ به المستعمرون الأمم الإسلامية بصفة خاصة ، والعربية بصفة أخص ، من بغى وعدوان ، وتسلط قاهر ، على مقومات الحياة في تلك الأمم ، وخاصة ما يتصل بالعميقة الدينية ، وما تلقاه عنها أهلها من لغة وعادات وتقاليد ، وذلك ليضعفوا الصلوات التي تصل المسلمين بدينهم ، وليوهنوا من الأسباب التي تربط جماعاتهم . . ومع هذا كله فقد بقى الإسلام متمكنا في القلوب ، راسخا في الضمائر ، مختلطا بالمشاعر ، لم يسلم للمسلمين شيء غيره ، مما كان لهم في هذه الدنيا ، التي سلبهم الاستعمار أياها ، أو قتلها ، حيث لم يكن له حاجة فيها . . وكان الإسلام دائما هو القوة التي يستند إليها المسلمون ، كلما خذلتهم قوى الحياة جميعا ، من علم ، ومال ، ورجال . .

وتاريخ التبشير الإلحادي في المحيط الإسلامي يحدث عن أكبر هزيمة ، وأعظم خيبة منى بها عمل من الأعمال ، أو أصيبت بها حركة من الحركات ، أو انتهت إليها دعوة من الدعوات .

فما استطاعت تلك الحملات التبشيرية التي رصدت لها دول أوروبا وأمريكا الأموال الضخمة ، وجندت لها العقول الجبارة — ما استطاعت هذه الحملات أن تنال من الإسلام منالا ، أو أن تحول مسلما واحدا عن دينه ، أو تفتنه فيه ، بل كان المسلم الأمي الساذج ، يفحم بفطرته السليمة ، ويعقيدته السمحة الواضحة كل منطق ، ويخرس كل ذى لسان ، حين يرفع بصره الى السماء قائلا : « لا اله الا الله » . !

فاذا ادعت حملة من حملات التبشير أنها استطاعت بحولها وحيلتها أن تخرج مسلما عن اسلامه ، فقد كذبت وافترت ، لتخدع أولئك الذين يمدونها بالمال ، كي يدوم لها هذا المدد . . فانها — وقد فاتها الكسب الدينى — حريصة على الا يفوتها الكسب المادى من هذا المال الذى يتدفق إليها في سخاء من كل جهة ، وأنه لمال كثير ، اثرى به عدد وفير من أدياء الدين ، الذين يتخذون التبشير تجارة لهم ، ودعاية للاستعمار ، وتمكيننا للمستعمرين . .

نريد من هذا ان نقول ، ان الاسلام بقوته الذاتية ، هو الذى
حمى المسلمين فى ساعات العسرة ، وأمسك بهم على ضربات
الزمن القاتلة ، وأمدهم بامداد لا تنفد من القوى الروحية ، التى
لم تنل منها يد التسلط والبغى ، ولم تنفذ اليها ضربات المتسلطين
وأثباغين .. وانه لولا الاسلام لما بقى لمواطن المسلمين معلم من
معالم الحياة ، يعرفون به مكانهم فى هذا التيه الذى رماهم الزمن
به .

فالمسلمون ليسوا هم الذين وسعوا رقعة الاسلام ، ومكنوا له
فى الأرض ، ودفعوا به الى كل أفق من آفاقها ، بل الاسلام نفسه
هو الذى جعل للمسلمين دولة .. والاسلام نفسه هو الذى غذى
هذه الدولة بأسباب الحياة والنماء .. والاسلام نفسه هو الذى
كان الدرع الواقية والحصن الحصين لاهله ، يلوذون به ،
ويستظلون بجناحه ، كلما لفحهم هجير الحياة ، وتعاوت حولهم
الذئاب ..

ان الذى كان يمكن أن يكون موضع طعن فى الاسلام لمن تسول
له نفسه الطعن فيه ، هو أن يتجه بذلك الى مبادئه وأحكامه ..
أهى حق أم باطل ؟ أهى خير ورحمة للانسانية أم هى شر ووبال
عليها ؟ وهل سعدت الانسانية فى ظل الاسلام أم شقيت ؟ وهل
هذه المئات من الملايين التى تدين بالاسلام اليوم مكرهة عليه ، وواقعة
تحت قوة قاهرة ، تحملها عليه ، وتلجئها الى التمسك به ؟ .

هذا ما كان ينبغى أن يكون مدار هذه الدعوى ، ان كان لابد
من دعوى يدعيها أعداء الاسلام على الاسلام ..

أما تلك الدعوى الخبيثة التى تتجه اتجاها مباشرا الى تجريد
المسلمين من القوة ، وخلق عقدة نفسية بينهم وبينها ، فذلك هو
الغرض الذى تحاول تلك الدعوى أن تحققه فى المجتمع الاسلامى ،
ليتعرى من القوة وأسبابها ، وليظل أعزل من كل سلاح ، على
حين يعمل أعداء الاسلام والمسلمين جاهدين على الاعداد للقوة ،
والأخذ بكل أسبابها .

القوة أمر لا بد منه :

ثم ما الاسلام ؟ أهو مجرد مبادئ وأحكام ملقاة في العراء ، لا يلتفت اليها أحد ، ولا يتأثر بها انسان ، أم هو مبادئ وأحكام ، يؤمن بها الناس ، ويعيشون في ظلها ، ويعملون بوحياها ؟

وقد يصح أن يكون الاسلام مجرد مبادئ وأحكام ، وذلك في معرض الدراسات النظرية التي تعنى بدراسة الأفكار وتمحيضها ، دراسة فلسفية نظرية ، بعيدة عن مجال التطبيق العملى لها .

أما حين تصبح هذه المبادئ وتلك الأحكام في مواطن العقول ، وفي قرارة القلوب ، وفي خلجات الضمائر ، ومسرى المشاعر ، فانها إذ ذاك لا يمكن أن تكون شيئاً منفصلاً ، له حقيقة مستقلة ، تقع عليها أحكام خاصة بها .

فدعوى أن الاسلام قام على السيف ، لا يمكن أن توجه الى الاسلام في مبادئه وأحكامه ، وقد رأينا كيف عاش وسيعيش الاسلام بلا سيف ولا قوة ، قرونا متطاولة ، لا تنتهى الا بانتهاء الحياة ..

وانما تتجه هذه الدعوى — قبل كل شيء — الى المجتمع الذى يدين بالاسلام ، ويعيش في ظل أحكامه وتعاليمه ..

ومع هذا نستطيع أن نقول إن وجه الدعوى يجب أن يكون على هذا الوضع : « المجتمع الاسلامى مجتمع قام على السيف .. » وحينئذ يمكن أن تسمع هذه الدعوى ، وتكون موضع نظر وبحث ..

فالدعوة الاسلامية — فى ذاتها — لم تقم على السيف ، وانما الذى قام على السيف ، وكان لا بد أن يقوم عليه دائماً ، هو المجتمع البشرى الذى انضوى تحت لواء هذه الدعوة ، ثم امتد وامتد حتى صار دولة عريضة طويلة ، تنتظم شطر العالم أو أقل من شطره قليلاً .

وطبيعى أن مجتمعا كهذا المجتمع فى الامتداد والسعة ، لا يمكن أن يكون أعزل من السلاح ، مجردا من القوة .. فان طبيعة الحياة تأبى أن يعيش الضأن مع الذئب .. بل لابد أن يكون هناك توازن فى القوى ، والا ، فالويل للضعيف !

ان المجتمع الاسلامى — كأى مجتمع فى الحياة — له ذاتينسه المتميزة وله وجهته وفلسفته فى الحياة .. وطبيعى أن تقوم فى ظل هذه المعانى عصبية ، هى التى تجتمع عليها الامم والشعوب ، وتقيم منها وحدة مميزة فى مشاعرها ، ، ومنازع أفكارها ، ومتجه سلوكها .. كما كان لابد أيضا أن يتعصب على هذه الامم وتلك الشعوب أعداء يخافون قوتها ، أو يطمعون فى ضعفها ، ومن هنا يكون الصراع الذى لابد منه فى الحياة ، والذى لابد له من قوة ، ولابد لهذه القوة من سيف ، بل ومن سيوف !

ونعود فنذكر من نسى ، فنقول : ان اليوم الذى تخلى فيه المسلمون عن القوة ، كان هو اليوم الذى فيه حينهم ومصرعهم ، بأيدى من يملكون القوة .. ثم لم يكن للمسلمين حينئذ من قوة يستندون اليها الا الاسلام ، الذى منحهم الايمان ، والصبر ، والعزم ، وعمر قلوبهم باليقين بان شاطئ النجاة قريب منهم ، ان هم تمسكوا بدينهم ، وقاموا على شريعته ، وأخذوا بهديه ، والتمسوا أسباب القوة المادية التى أمرهم الله بها فى قوله تعالى : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** » الى جانب القوة الروحية التى عمر الاسلام قلوبهم بها .. ومن خلال هذه المشاعر كانت تنقذ فى صدور المسلمين شرارات الأمل والرجاء ، فيشتد عزمهم ، ويقوى ايمانهم ، وتذهب وحشتهم ، وهم فى صحبة دينهم ، وفى ظل مما يفىء عليهم من خيره الكثير .

سيف دفاع لا هجوم :

ان السيف الذى فى يد أتباع الاسلام هو سيف حارس للسلام ، لا يسئل من غمده أبدا الا حين تسل له سيوف الأعداء ، والا حين تعدو عليه قوى البغى والعدوان .. فكيف اذن يراد من الاسلام

أن يخلى يده من السيف ، وسيوف الأعداء مسلولة عليه ، ورماحهم مشرعة لهم ؟ . . فعلى أى منطق يقوم هذا القول ، وعلى أى وجه يقبل ؟ أيستقيم على عقل أن يؤخذ باللوم والتأنيب من يعيش في غابة مليئة بذوات المخالب والأنياب إذا هو حمل بين يديه سلاحا يدفع به ذا مخلب يهجم عليه ، أو ذا ناب يحاول أن يفتك به ؟

فلنحذر إذن هذه الدعوى الخبيثة ، التي تجعل من تهم الإسلام عندها ، أنه قام على السيف ، ولنعدل موقفنا تجاه هذه الدعوى ، فأننا — عن حسن نية — قد عملنا جاهدين على دفعها ، وتبرئة ساحة الإسلام منها ، كما أننا حمدنا لبعض المستشرقين — ونواياهم معروفة — ما كان منهم من دفاع في تبرئة ساحة الإسلام من هذه التهمة !!

والإسلام في غنى عن الدفاع في وجه هذه الفرية الخبيثة ، التي يراد من ورائها أن يتخلى المسلمون عن كل قوة ، وأن يقتلوا من أنفسهم كل عصبية تجمعهم على الإسلام ، ليقيموا من هذا شاهدا على أنهم أهل سلام ، ومسالمة ، فلا يلقون القوة بالقوة ، ولا يردون العدوا بالعدوان ، وحينئذ يمكن أن ينفوا عن دينهم أنه دين أقامته يد البطش والقوة ، وأن الناس قد جاعوا إليه طائعين ، لما فيه من مبادئ إنسانية ، ينعم الناس في ظلها بالأمن والسلام !

هذا هو الكيد الذي يكيد به أعداء الإسلام له ، ليجردوا أتباعه من كل ما من شأنه أن يقتل أطماع الطامعين فيهم ، وبهذا تتسلط عليهم يد البغى والعدوان ، فلا تبقى لهم أثرا على وجه هذه الأرض !

ونسأل : هل حين زailت القوة مواطن الأمة الإسلامية ، وحين لم يكن في يد المسلمين هذا السيف الذي يشهرونه في وجه أعدائهم ، ويقطعون به الأيدي التي تمسك بهم صيدا لها — هل شفع هذا للمسلمين أن يعيشوا في سلام داخل أوطانهم ؟ وهل رد عنهم ذلك أطماع المستعمرين ، الذين استباحوا ديارهم ، ودماءهم وأعراضهم ؟

الا لیت للمسلمین الیوم بدل هذا السیف ما لأمریکا من مخازن القنابل الذریة والهیدروجینیة ، الی تهزها أمریکا فی یدها ، مهدة متوعدة العالم کله باطلاق هذا الجحیم من یدها ، فلا یجرؤ أحد علی الوقوف فی وجهها ، أو التردد فی الانصیاع لحکمها — اذن لما أمکن أمریکا أن تطلق هذه الکلاب المسعورة المدموغة بنجمة اسرائیل ، وتدفع بها الی مواطن الاسلام ، وتخرج أهلها منها عراة مشردین فی وجوه الأرض ، وتضع یدها الدنسة علی الأرض المقدسة ، وفیها بیت المقدس ، أول قبلة للاسلام ، وغایتة مسرى رسول الله صلی الله علیه وسلم من المسجد الحرام !

الا لیت سیوف المسلمین تبعث الیوم من جدید ، لتعید للاسلام مجده ، وللمسلمین عزتهم وکرامتهم ، ولتخرج هؤلاء الحیث ابناء الأناعی من أجارهم الی اندسوا بها فی کیان الأمة العربیة ، کما أخرجت آباءهم من قبل : بنو قینقاع ، وبنو قریظة ، وبنو النضیر ، وطهرت ربوع الاسلام من أرجاسهم !

فلیت ، ثم لیت ، ثم لیت !!

وهذه دعوة الله تعالى الی المؤمنین : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخیل ترهبون به عدو الله وعدوکم ، وآخرین من دونهم لا تعلمونهم ، الله یعلمهم** » .. وهذا أنسب أوقاتها ، وأقوى أسباب دواعیها .. فهل یتستجیب المسلمون لها ، وهل یعدلوا عن ابتناء القصور الشامخة ، وركوب المراكب الفاخرة ، الی الإنفاق فی سبیل الله ، وأقامة مصانع الحرب ، وعدد القتال ، لیحموا أوطانهم ، وأعراضهم ، ویملکوا أمر أنفسهم ، والثروات الی فی أیدیهم ؟ ذلك ما نرجوه ونتمناه علی الأيام !!

خاتمة

خاتم النبيين.. وما يقول السفهاء من الناس

**((يا ايها النبي .. انا ارسلناك
شاهدا ومبشرا ، ونذيرا ،
وداعيا الى الله باذنه وسراجا
منيرا)) (٤٥ - ٤٦ الأحزاب)**

الذين يحاربون الاسلام ويكيدون له ، يلتقون على مختلف نزعاتهم
وتباين غاياتهم ، وتعدد مناهجهم — على حرب رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وسوق المغتريات اليه ، وادعاء الأباطيل عليه ..
فاذا كان في أعداء الاسلام من يتجه الى القرآن الكريم بالطعن في
أنه من عند الله ، ويأتى على ذلك بالزور والبهتان ، وإذا كان فيهم
من يقيم من ظاهر آيات القرآن ومن الانحراف في تأويلها ، دليلا
على قصور الشريعة الاسلامية عن الوفاء بحاجات المجتمعات
الانسانية ، وأنها في أحسن أحوالها لا تصلح الاجتماع البادية ،
وما طبيعته به الحياة هناك من عادات وتقاليد — إذا كان في أعداء
الاسلام من يذهب هذه المذاهب — وهم كثير — فان الطعن في
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحاولة النيل منه ، هو عمل
مشترك بينهم جميعا ، يبدعون به ، وينتهون عنده ، وان اتخذوا
بين البدء والنهاية طرقاتى ، ومسالك مختلفة ..

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صاحب الرسالة ،
ومبلغها ، والبين لأحكامها ، والشارح لقضاياها ، فاذا أمكن النيل
من النبي ووضع موضع الشك والاثام — وحاش لله أن يطوف
بحماه شك ، أو يعلق بمقامه اتهام — فان ذلك يكفيهم مئونة هذه
الحروب الطويلة المتصلة بينهم وبين القرآن ، وشريعة القرآن ..

من هنا نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منذ أذن في
الناس أنه رسول الله — هدفا أول ، لتكذيب المكذبين ، واقتراء المفترين ،

من المشركين ، واليهود . . فقالوا فيه مقولات فاجرة كاذبة ، ذكرها القرآن الكريم على لسانهم . . ومن ذلك قوله تعالى : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون ، لو ما تاتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين » (٦ - ٧ : الحجر) وقوله سبحانه : « ام يقولون شاعر فترى به ريب المنون » (٣٠ : الطور) وقوله تبارك اسمه : « بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » (٥ : الأنبياء) . . وقوله له جل شأنه : « ألقى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشر » (٢٥ : القمر) الى كثير من المقولات التي أراد بها المشركون ، ومعهم اليهود ، أن يبطلوا دعوى النبي انه رسول الله وأن ما يتلوه هو كلام الله . . ومع هذا اللجاج ، والدد في الخصومة والعناد ، فقد تكسرت نصالهم على صخرة الحق ، ورد كثير منها الى نحورهم فأصاب منهم المقاتل !

القرآن وشخصية الرسول :

وقيل أن نعرض لقولات المفترين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما صوبوا من سهامهم الى شخصه الكريم ، نود أن نعرف من هو رسول الله ؟ وما هي الصفة أو الصفات التي وصفه القرآن بها ! وما هي النظرة التي ينظر بها إليه ؟

والمسلمون جميعا ، أولهم وآخرهم على أمر واحد في رسول الله ، وهو أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، وأمه آمنة بنت وهب ، ولد يتيما ، فقيرا ، ونشأ بين لداته من قومه ، صبيا ، وغلما ، وشابا ، لم يخرج عن مستوى الاعتدال في أى حال من أحواله الجسدية ، أو النفسية ، أو العقلية ، فلم يرتفع عن هذا المستوى ارتقاعا لم تألفه الحياة ، بل كان في جميل خلقه ، وحميد سيرته ، بحيث يجد المجتمع لكل خلق من أخلاقه ولكل فعل من أفعاله مثلا في فلان أو فلان من كرام قومه ، وان تفرقت هذه الأخلاق فيهم ، واجتمعت له وحده ، على صورة هادئة هدوء النسيم ، رقيقة رقعة النور ، ليس فيها ما يعشى الابصار ، أو يحير الالباب . .

فلما اصطفى الله محمدا لرسالته الى الناس ، لم يخرج بذلك عن حاله التي كان عليها ، ولم يفاجأ الناس بمعجزات خارقة تتفجر من

بين يديه ، بل انه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يكن من شأنه أن يستجيب لتحدى قومه له ، وما يقترحونه عليه من معجزات مادية تجيء وفق ما يطلبون لتكون شاهدا على صدقه . فيقول سبحانه : **« وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون ، لوما تأتينا باللائكة ان كنت من الصادقين »** (٦ — ٧ : الحجر) **« وقالوا ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك حنة من نخيل وعنق فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي باله والملائكة قبلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه »** (٩٠ — ٩٣ : الاسراء) ويتولى الله سبحانه وتعالى الرد عليهم على لسان نبيه الكريم ، فيقول : **« قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا »** (٩٣ : الاسراء) . . ويقول تبارك اسمه : **« قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسمى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون »** (١٨٨ : الأعراف) . . ويقول جل شأنه : **« قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، ان اتبع الا ما يوحى الي »** (١٥ الاحقاف) .

وهكذا يقف الرسول الكريم مع قومه على قدم المساواة أمام سلطان الله ، وقدرته ، وتقديره ، وتدبيره . . انه ان فضل عليهم بشيء فذلك من فضل الله عليه ، يتلقى من فضل الله واحسانه ما يشاء الله تعالى ، شأنه في ذلك شأن عباد الله جميعا ، وما ينال كل واحد من عطاء الله المقسوم له : **« يهب لمن يشاء انا و يهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرا و انا ، ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير »** (٤٩ — ٥٠ : الشورى) . . فما يستطيع من يولد له الاناث ان يجعل مواليده ذكورا ، ومن كان منهم عقيما لا يستطيع أن يكون ولودا : **« نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون »** (٣٢ : الزخرف) .

وأكثر من هذا ، فانه في مقام الوعيد ، يأخذ الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — مكانه بين البشر ، فهو واقع تحت المسؤولية أمام سلطان الله وعدله . . انه لامحابة أمام عدل الله سبحانه . . انه يزان واحد ، **« ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى**

الذين أحسنوا بالحسنى» (٣١ : النجم) .. وفي هذا يقول سبحانه عن النبي الكريم : «ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين» (٤٤ — ٤٧ : الحاقة) ويقول تبارك اسمه : «لئن أشركت ليحبطن عملك» (٦٥ : الزمر) .. ويقول جل شأنه : «ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير» (١٢٠ : البقرة)

وما كان للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتقول على الله ، وما كان له أن يشرك بالله ، وما كان له أن يتبع أهواء قومه الضالين .. ولكن هكذا يكون الحساب عند الله ، لو أنه حدث شيء من هذا ، وهو محال أن يحدث ، وذلك من شأنه أن يضع الرسول الكريم والناس جميعا على سواء .. انه ليس له من الأمر شيء ، وليس له مع سلطان الله سلطان ..

وهكذا تنزل آيات الله تعالى بالحق ، ليحملها الرسول الى الناس كما تنزلت عليه ، كلمة كلمة ، وآية آية ، ليس فيها كلمة واحدة مضافة اليه !

ولو كان محمد — صلوات الله وسلامه عليه — هو الذى جاء الى الناس من عند نفسه ، بدعوى انه رسول من عند الله اليهم لما جاءهم على تلك الصورة التى تجرده من كل قدرة ذاتية له ، بل لادعى ما يدعيه السحرة ، والمشعوذون ، والكهان ، الذين عرفتهم الحياة ، وكان لهم فى الناس من تستهويه الأعيه ، وحيله ، وشعوذته ، ولأراهم من نفسه انه ذو قدرة خارقة ، وذو شأن عجيب ، يملك فى كيانه من القوى الذاتية ما ليس للناس جميعا شيء منه !

هذه واحدة ..

وأخرى ، هى أن شخصية رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — شخصية من أوضح شخصيات الإنسانية التى سجلتها صحف التاريخ الموثقة بالأدلة المساطعة والبراهين القاطعة ، التى انكر الناس الشمس ودورتها فى الفلك ، كان لهم أن ينكروا « محمدا » وظهوره فى هذه الفترة من التاريخ وفى هذا المكان من العالم .

ولله تعالى في هذا حكمة وتدبير !

فقد أراد الله تعالى للنبوذة المحمدية أن تكون في هذا المكان الذي ينكشف فيه للناس كل شيء ، ويتعري للحياة فيها كل شيء .. بيئة عارية من كل ما يستر أو يكن .. فلا مدن صاخبة ، ولا أدغال متشابكة ، ولا قصور ، ولا قلاع ، ولا حصون ، يستطيع أن يعيش فيها الإنسان ، وأن يقيم دنياه كما يشاء ، دون أن يطلع الناس من أمره على كل دقيق أو جليل .. يظهر متى يشاء ، ويختفى متى يريد !

ان حياة البادية عارية من كل هذا ، والناس فيها عراة ، والخيام أو الحجر التي يسكن اليها الناس ، لاتكتم سرا ، ولا ترد سمعا أو بصرا عما يدور فيها .. انها أشبه بالثياب التي يرتديها الناس ، قد تنفع في اتقاء حر أو برد ، ولكنها لا تنفع في الاحتجاب عن الناس والتستر دونهم .

ان أهل البادية في فراغ ، وخاصة سكان القرى الذين لا يشغلون بشيء حتى برعى الابل والغنم .. أما أهل مكة — البلد الحرام ، ومبعث النبي — فلم يكن لهم من عمل الا التجارة : قافلة في الشتاء الى اليمن ، وأخرى في الصيف الى الشام ، يندب لها جماعة منهم .. ولم تشغلهم تلك الحروب التي كانت تشغل أحيانا سكان البادية ، اذ كانوا أهل بيت الله الذي تعظمه العرب ، وتعظم جبرته ، لا يعتدى عليهم ، ولا يعتدون !!

فهذا الفراغ الذي يعيش فيه سكان البادية ، وسكان القرى بخاصة ، وأهل مكة بوجه أخص — قد جعل الناس يشغلون بالتافه من الأمور ، ليقطعوا به الوقت ويجعلوه مادة حية للحياة !

فاذا وقع في هذه البيئة حدث ، التفتوا اليه جميعا . وقاموا له وتعدوا ، وان يكن مثل هذا الحادث مما لا يلتفت اليه غيرهم من سكان الحضر حيث يغرق في خضم الحياة الصاخبة هناك .

فاذا ظهر في صحراء العرب نبي ، فما ظنك بما يقع في حياة الناس من هذا الحدث ؟ تصور أن الجبال تتبادل مواقعها ، والشمس تغير

مشرقها ومغربها . . أو تصور ما شئت من المذهلات والأعاجيب في الأحداث ، ووقعها على الناس — فانك لن تدانى تلك الصورة التي وقعت بقريش ومن حولها حين طلع عليهم « محمد » بقوله : انه رسول رب العالمين !!

لقد وقع انقلاب شامل في حياة الناس ، فأخلوا أنفسهم من هذا الفراغ الذي هم فيه ، وفرغوا بكل جوارحهم وعقولهم وقلوبهم لهذا الحدث الجلل العجيب !

ولك أن تحصي عيون أهل مكة وما حولها ، عينا عينا ، وآذانهم ، أذنا أذنا ، وعقولهم عقلا عقلا ، وقلوبهم قلبا قلبا ، وألسنتهم ، لسانا لسانا ، وأيديهم ، يدا يدا ، وأرجلهم رجلا رجلا ، ثم ان لك بعد هذا أن تضيفها كلها الى حساب « محمد » والى استطلاع أنبيائه ، ورصد حركاته مدة الثلاثة عشر عاما التي عاشها نبيا في مكة قبل الهجرة ، والسنوات العشر التي عاشها بعد الهجرة . . ان هذه الجوارح جميعها لم تكن تعمل خلال تلك المدة الا لحساب « محمد » ومن أجل « محمد » . . له ، أو عليه ، موالية أو معادية !

فهل تظن بعد هذا شيئا يخفى من حياة « محمد » عن القوم أو يفلت من أيديهم وألسنتهم ؟

وهل تستطيع أن تقع في الحياة — طولا وعرضا — على حدث من الأحداث ، أو شخصية من الشخصيات ، وقعت تحت ملاحظة الناس ، مثل ما وقع لمحمد من أهل مكة والمدينة وما حولهما ؟ . . ذلك بعيد !!

فاذا أضفت الى هذا ما كان من صحابة « محمد » ومن ولائهم له ، وامتزاجهم به ، هذا الامتزاج المادي ولنفسى ، في الحل والترحال ، وفي السلم والحرب ، في المسجد وخارج المسجد ، في ليله ونهاره ، في يقظته ونومه ، في حديثه وصمته ، في قيامه وتعوده ، في مشيه وركوبه — كان من كل أولئك اعداد لا حصر لها من الوثائق والسجلات المتشابهة المتطابقة ، التي تسجل حياة « محمد » لحظة لحظة ، وتحصيها نفسا نفسا وحالا حالا . .

ما وجه الحكمة في هذا كله ؟

نستطيع أن نجد لهذا التدبير السماوى فى شأن « محمد » على هذا الذى كان من كشف شخصيته للناس ، ووقوفهم على جميع أحواله — أكثر من وجه ، وأكثر من دلالة ، وأكثر من حكمة :

فأولاً : هذا الكمال الإنسانى الذى اشتمل عليه « محمد » كان ينبغى أن يشهده الناس عيانا ، وأن يملأ وجودهم ، اذ ليس فى الحياة مثل هذا الكمال البشرى المتاح للناس أن يشهده مرة أخرى ، وأن يأخذوا بحظوظهم كاملة منه !

وثانياً : أن رسالة « محمد » — كما أشرنا من قبل — رسالة عقلية ، تعتمد على الحجّة الواضحة ، والمنطق القويم ، وأن «محمدًا» — صلوات الله وسلامه عليه — وقف من هذه الرسالة موقف المدافع عنها فى وجه خصومة عنيفة ، قد اتخذ أصحابها من الكلام بضاعة وصناعة ، فلا بد إذن أن يكون « محمد » قائماً من وراء رسالته ، يدفع كيد خصومها ، ويدحض باطلهم ، ويكشف عن سفهمهم وضلالهم . . . ومن أجل هذا كانت تلك الرسالة من بين الرسائل السماوية كلها « منجمة » لم تنزل مرة واحدة ، بل ظلت نحو ثلاثة وعشرين عاماً ، تنتزل آية آية ، وآيات آيات ، حسب دواعى المواقف ، وحاجات الناس !

ولو نزل القرآن جملة واحدة — كما كان يقترح المشركون — لكانت مهمة الرسول سهلة ميسرة ، اذ تكون فى هذه الحالة على صورة متعارف عليها ، بين أوليائها وخصومها ، وتكون الخصومة فيها على واقع معروف ، وكان يكفى فى هذا أن يدفع بها النبى كاملة الى الناس ، ويدعهم وشأنهم بها ، أو يعيد تكرارها عليهم مرة ومرة ، دون أن يجيبهم بجديد ، يفتح للعقول مجالاً للنظر ، وباباً للجدل والخصام !! وبهذا التدبير الالهى الذى نزل به القرآن منجماً ، ظل مادة حية للأخذ والرد بين الناس .

وثالثاً : من وجوه الحكمة فى كشف شخصية «محمد» — صلوات الله وسلامه عليه — ان رسالة « محمد » ليس بين يديها معجزة من المعجزات المادية ، وانما معجزته التى بين يديه ، هى القرآن الكريم ، والمعجزة فيه شائعة بين آياته وسوره ، يعجز كثير من الناس عن ادراكها على وجه محقق . . فكان لا بد — لكى تتضح المعجزة

القرآنية — من أن يكون الذى يقوم عليها ، هو فى ذاته معجزة فى كمالاته ، وفى مقررات دعوته التى يدعوا اليها . . فاذا دعت رسالته الى معروف ، أو نهت عن منكر ، ثم رأى الناس فى حياته ، وفى سلوكه تطبيقا كاملا واضحا لما يدعوا اليه ، بان لهم وجه الاعجاز فى كلمات الله ، وتجسد لهم منها فى صورة « محمد » أكثر من معجزة !

هكذا كانت رسالة « محمد » . . تخير الله تعالى لها من صور الكلام أصدقها ، وأبلغه وأروعها ، وهو القرآن الكريم ، وتخير لحملها ، وعرضها أتم صورة من صور الأداء وأكملها ، وأعدلها ، وهو « محمد ابن عبد الله » والله سبحانه وتعالى يقول : « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » (١٢٤ : الأنعام) . .

تقول السيدة عائشة — رضى الله عنها — وقد سئلت عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « كان خلقه القرآن » . . فمحمد — صلوات الله وسلامه عليه — كان آية من آيات الله . . كان قرآنا يمشى بين الناس ، فتشع منه أنوار الهدى ، كما تشع أضواء الحق من آيات الله وكلماته !!

ان كثيرا من الناس ، آمنوا بمحمد ، وصدقوا برسالته ، قبل أن يتلو عليهم آيات الكتاب الكريم ، وقبل أن يسمعهم كلام الله . . آمنوا بما آمن به ، وتابعوه دون أن يسألوه شيئا عما عنده من دلائل النبوة ومعجزاتها ، لأنهم رأوا فيه آية الآيات ومعجزة المعجزات ، فى أمره كله ، ظاهره وباطنه جميعا . . كذلك كان إيمان السابقين الأولين من صحابة رسول الله ، أبو بكر ، وعلى ، وعثمان ، وطلحة والزبير ، وسعد بن ابى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وبلال ، وعمار ، وأبوه ، وأمه . . آمنوا جميعا بمحمد قبل أن ينزل عليه من القرآن الا آيات معدودات .

روى الترمذى ، ان عبد الله بن سلام ، قال : « لما قدم النبى المدينة جئته لأنظر اليه ، فلما تبينت وجهه ، عرفت أن وجهه ليس وجه كذاب ! » . .

وعن ابى رمثة التميمى ، قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ومعى ابن لى ، فلما رأيته ، قلت : هذا نبى الله ! » . .

وروى مسلم أن « ضمادا » لما وفد على النبي في قومه ، خطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » قال « ضماد » : أعد على كلماتك هؤلاء ، فلقد بلغن تاموس البحر (١) ، هات يدك أبايعك » .

وعن الجلندي — ملك عمان — أنه لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام ، قال : « والله لقد دلننى على هذا النبى الأمى ، أنه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شىء الا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، ويفى بالعهد ، وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبى !! » .

هذا هو رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه : كما تنطق بذلك صحف التاريخ التى لايشك فيها حتى أعداء الاسلام الذين كادوا رسول الله ، قديما وحديثا !!

الذين يرحمون الشمس بالحصا :

ولا نريد هنا أن نعرض تلك المفتريات التى افتريت وتفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى مجال الافتراء متسع لكل مفتر ، الأمر الذى لا يمكن أن يقف عند حد ، حيث يتوالد ويتكاثر حالا بعد حال ، كما تتوالد وتتكاثر الجراثيم فى البرك والمستنقعات ! وانما نود أن نقف عند فرية واحدة توارد عليها المفترون ، ونسجوا من خيوطها الواهة مقولات من الكذب والضلال ، يلتون بها فى ساحة النبوة ، كلما بدا لهم أن يتحككوا بالاسلام ، ويصرفوا الوجوه عن شمس الساطعة ..

تلك الفرية ، هى أن « محمدا » صلوات الله عليه وسلامه عليه ، قد ظفر من دعوته تلك بأكبر مغنم ، وهو النساء اللاتى ضمنهن الى بيته ، واحتجزهن لاشباع شهوته !

الا كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا !!

(١) تاموس البحر : عمقه .. يريد أنها نفذت الى قلبه .

ومتى ضم النبي الى بيته هذا العدد الكثير من النساء ؟ .

ان النبي صلى الله عليه وسلم قد قضى فورة الشباب عزبا لم يتزوج حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، على خلاف عادة قومه ، وطبيعة الحياة هناك ، حيث كان يتزوج الشبان في سن مبكرة لا تتجاوز الرابعة عشرة ، أو الخامسة عشرة من سننى العمر ، والذين يدخلون مرحلة الشباب ، ولا يتزوجون ، كانوا يقطعون ليالى الحياة مع الخيليات ، وأصحاب الرايات ، اللائى كن في مكة مجتمع الشبان والشيوخ على السواء !

فهل عرفت قريش في شباب « محمد » زلة أو هفوة في هذا الأمر ؟ وهل وقعت عليه عين من عدو أو صديق أنه ألم بفاحشة أو طاف حولها ؟ انه لو حدث شيء من ذلك لما أنكرته عليه قريش قبل أن يعلن أنه نبي ، أما وقد جاءهم في صورة نبي ، فان هذه الصورة كانت تهتز اهتزازا مدمرا ، لو أنهم كانوا أخذوا عليه هفوة أو زلة ، ولقالوا فيه ما يفضح داعى السماء على أعين الناس ! ..

ان قريشا لم تستطع أن تنطق بكلمة — ولو زورا وبهتانا — تعكر صفاء هذه المسيرة النقية الطاهرة ، اذ كان الحق أكبر وأظهر من أن يتسع لقبول أية فرية ، ولو على سبيل المكابرة !!

ثم هاهو ذا « محمد » يتزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره .. فمن تزوج ؟

لقد تزوج من خير نساء قريش حسبا ، ونسبا ، وعفة وطهرا .. خديجة بنت خويلد ، رضى الله عنها ..

وخديجة ، وان كانت على حظ موقور من الجمال ، الا انها كانت قد جاوزت مرحلة الشباب ، ودخلت في دور الكهولة .. لقد كانت في الأربعين من عمرها ، وكانت قد صرفت نفسها عن الزواج بعد أن مات زوجها ، الا أن تجد الرجل الذى ترضاه خلقا ، وتعشقه عظمة !! .. فكانت أن رضيت بمحمد زوجا ، بل وخطبته لنفسها ، ولم تجد حرجا في أن تعرض هى نفسها للزواج منه !!

ثم ماذا ؟

لقد عاش رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مع خديجة الى أن ماتت ، وقد جاوزت السبعين ، وهو لم يتجاوز الخمسين .. ثم لم يتزوج عليها امرأة أخرى الى أن لقيت ربه . ومع هذا فقد ظل الرسول الكريم يذكرها ، ويترحم عليها ، ويشيد بفضلها ، وبموقفها منه ومن دعوته ، حتى لقد كان ذلك مبعث غيرة من عائشة رضي الله عنها — وهي تراه — صلوات الله وسلامه عليه — يحن لذكرها ، ولذكر كل ما يتعلق بها ، فكانت تقول له : مايعنيك من عجز ، أبدلك الله خيرا منها ، فيقول — صلوات الله وسلامه عليه — « والله ماأبدلني الله خيرا منها .. لقد صدقتني اذ كذبتني الناس » .. ذلك هو موضع اعزاز رسول الله لها ، والاشادة بذكرها ، وهو تصديقها له اذ كذبه الناس !

ثم ماذا أيضا ؟

ثم لقد كان زواج من تزوج بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة ، وبعد هجرته الى المدينة — كان ذلك ، وهو في العقد السادس من عمره ، وفي حرب دائمة مشيوبة الاوار مع المشركين واليهود ، وفي سياسة المجتمع الاسلامي الكبير الذي دخل في دين الله .. فهل في مثل هذه السن العالية ، وفي مثل هذه الظروف المحيطة به ، يجد من فراغ البال ، وراحة الجسد ، ما يتيح له الفرصة للتمتع بالنساء ؟

ان الذي يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبي مع المرأة ، يجب ألا يقصر نظره على هذا الجانب من الحياة ، جانب المرأة وحدها ، ويفغل الجوانب الاخرى من شهوات النفس ، التي تنزع اليها نزعات الانسان ، وتتجه اليها ميوله اتجاها قويا لا يقل عن الاتجاه الى المرأة والرغبة فيها ..

فهناك الى جانب شهوة المرأة شهوات أخرى مشيوبة في كيان الانسان : تتوقد جمراتها وتغلي مراحلها .. هناك شهوة المال ، وشهوة الجاه والسلطان ، وشهوة الطعام والشراب ، وشهوات كثيرة من حياة الترف يقتتل الناس من أجلها ، ويفنون وجودهم فيها ، ويستهلكون أعمارهم في الجرى اللاهث وراءها ..

ففى هذه الشهوات يتقلب الناس ، واليها يتسابقون ، وعليها يتزاحمون . . وليست واحدة منها بمغنية عن الاخرى ، بل ان بعضها ليفرغى ببعض ، ويدعو اليه ، حتى لكانها كائن واحد ، هى منه بمنزلة الأعضاء فى الجسد ، لا يكمل وجوده الا باجتماعها ، ولا يؤدى وظيفته الا بها مجتمعة !

وهل يكفى الرجل الذى ركبته الشهوة الى النساء ، ان يجد امرأة او أكثر ، وهو فقير جائع ، فارغ الجيب والبطن ؟ انه لابد لكى يقضى وطره من تلك الشهوة ، ان يتغذى الغذاء الطيب ، وان يوفر لجسده الراحة ، وان يتيح له فرص الاستجمام من عناء مابذل فى قضاء تلك الشهوة ، كى يجد القدرة على الاستجابة لها ! . . ثم لابد لمثل هذا الانسان ان يطلب المال ويلج فى طلبه ، ويتهاك على جمعه ، كى يجد من النساء من يسكن اليه ، وكى يجدن فى جواره من متع الحياة ما يرغبهن فيه . . فليس يكفى المرأة ان تجد الرجل الذى يضمها الى نسائه ، ويمنحها حظا منه ، ثم لاتجد الحياة التى تتسع لمطالبها ، من كساء وغذاء ومتاع !

ونقول للذين قالوا ، او يقولون فى نبي الاسلام ، من استكثاره من النساء ، وافراطه فى الحياة معهن : انظروا فى هذا الذى كان يحيط بالحياة الزوجية التى كان يحيها زوجات النبي معه . .

اكانت تلك الحياة حياة ترف ورفه ومتع مادية ولذات جسدية ؟ وهل من اجل هذه الحياة احبب النبي ، وحرصن على السكن اليه والحياة فى ظله ؟

لقد شهدت الدنيا كلها ان الحياة المادية فى بيت النبي كانت حياة كفاف ، بل حياة جوع يكاد يكون متصلا ! كان النبي — صلوات الله وسلام عليه — يلقي أهله فيسأل : هل من طعام ؟ وكان أكثر ما يكون الجواب : ان لا طعام . . فيحمد الله ، ويطوى نهاره صائما . . هكذا كان أغلب أيامه !!

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها — « ما شبع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز ، حتى مضى لسبيله ! » . .

وتقول : « لقد مات النبي صلى الله عليه وسلم ، وما في بيته شيء يأكله ذو كبد ، الا شطر شعير في رق لي ! » .

أما فراشه — صلوات الله وسلامه عليه — فكان أدما — أى جلدا — حشوه ليف .

أما البيت الذى يضم نساءه فهو « خوخات » أشبه بالأكواخ التى يتخذها رعاة البدو فى الصحراء ! يقول العالم الأمريكى «ول ديورانت» مما حققه من وثائق التاريخ ، وهو يصف بيت النبي فى المدينة : «كانت المساكن التى أقامها النبي واحدا بعد واحد ، كلها من اللبن ، لا يزيد اتساعها على اثنتى عشرة ، أو أربع عشرة قدما ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام . . سققها من جريد ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمل » (١) .

ونساء النبي — صلوات الله وسلامه عليه — قد شاركنه هذه الحياة ، ووجدن فى جواره من أنوار النبوة وجلالها ما أسعدهن وأنسهن شظف العيش ، وخشونة الحياة ، فقد كان لهن من الغذاء الروحى الذى وجدنه فى ظلال النبوة زاد طيب يزرى بكل زاد ، ومتاع كريم يعلو كل متاع !

ومع هذا ، فقد شعر النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذا الحرمان الذى يعيش فيه نساؤه ، ربما كان مفروضا عليهن بحكم الطاعة الواجبة للرسول ، والولاء له ، فهن كمسلمات ، مفروض عليهن أن ينزلن على حكم الآية الكريمة : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » (٨٠ : النساء) والآية الكريمة أيضا : « **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** » (٦ : الأحزاب) . . كما شعر — صلوات الله وسلامه عليه — وقد دانت له الجزيرة العربية كلها بالطاعة والولاء ، بحيث ملك بسلطانه الروحى الناس وكل ما يملك الناس — شعر أن هذا ربما ألقى فى نفوس نساؤه أن أيام الجوع قد ولت ، وأن حياة الشظف والجفاء قد ذهبت ، لتجىء أيام الرخاء والمتاع ، ولهذا أراد صلوات الله وسلامه عليه ، أن يعزل

(١) قصة الحضارة ، الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ٤٥ .

هذا الشعور عن نسائه ، وأن يقيمنه معه على بينة من الأمر ، فجاءه أمر ربه ، يدعوهُ الى أن يعرض على نسائه قبول الحياة معه على هذا الأسلوب الذى يعيش عليه ، من ترفع عن متاع الحياة الدنيا وزينتها ، أو أن يطلق سراحهن بالطلاق ، ليحيين الحياة التى تروق لهن .. يقول الله تعالى : **« يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وإسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما »** (٢٨ - ٢٩ : الأحزاب) .

فهاتان الآيتان ، تشهد الدنيا كلها فى غير لبس على الحياة التى كان يحياها النبى ونسأؤه معه ، قبل الفتح وبعده .. انها حياة لا يراد بها الحياة الدنيا وزينتها ، وانماهى حياة يراد بها الله ورسوله والدار الآخرة ..

هذا ما أذاعه القرآن على أسماع الناس ، وأعلنه فيهم على لسان النبى ، وشهدوا واقعه شهادة حضور فى حياة النبى وحياة زوجاته معه .. ولن يعقل أبدا أن يكون النبى وأزواجه فى حياة ناعمة رافهة ، ثم يجيء القرآن ليكشف هذه الصورة من حياة الحرمان فى بيت النبوة .. ان ذلك يهدم الدعوة الإسلامية من أساسها ، وما يدعيه « محمد » من أنه رسول الله .. اذ كيف يخرج على الناس بقرآن يحدث عن حياته بخلاف الواقع الذى يراه الناس منه !

ثم ماذا مرة ثالثة ؟

لقد قلنا أن النبى صلوات الله وسلامه عليه ، قد قطع فترة شبابه ، وفتاته الى أن جاوز الخمسين ، وهو لم يعرف من النساء الا السيدة خديجة ، رضى الله عنها — والتى كانت تكبره بخمسة عشر عاما ..

ونقول انه صلوات الله وسلامه ، قد تزوج بعد هذا من تزوج من النساء ، لا ليشبع شهوة ، فقد فات عهد الشهوة ، ان كان من أصحابها ، وقد شهد الواقع بغير هذا ، وانما كانت زيجاته كلها صلوات الله وسلامه عليه ، رعاية لمودة أصحابه ، أو عزاء لامرأة مصابة فى زوجها ، أو اكراما لعزيزة قوم وقعت فى أسر ..

وها نحن أولاء ، نعرض في ايجاز صورة لزوجات النبي اللاتي تزوج
بهن ، بعد السيدة خديجة :

الأولى : سودة بنت زمعة . . تزوجها رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعد موت خديجة ، وكانت متقدمة في السن ، وهاجرت معه الى
المدينة ، وبدأت بين نسائه — فيما بعد — في موقف حرج ، اذ كانت أشبه بأُم
لا زوجة . . ولهذا هم النبي بطلاقها ليخرجها من هذا الحرج ، فلما
فاتحها بذلك ، قالت « لاتطلقني ، وأنت في حل من شأنى ، فانما أريد
أن أحشر مع أزواجك ، وانى قد وهبت يومى لعائشة ، وانى ما أريد
ما تريد النساء . . » فأمسكها الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

هذه واحدة . .

والثانية : عائشة بنت أبى بكر الصديق . . تزوجها النبي وهى
بنت تسع سنين ، وكان صلى الله عليه وسلم قد شارف الخامسة
والخمسين . .

وامرأة أو فتاة ، لا تصلح في مثل هذه السن أن تكون زوجة
لمتعة رجل . .

اذن فلا بد لهذا الزواج المبكر من الفتاة أن يكون لغاية غير غاية
المتعة ، ومطلباً أسمى من الزواج لمجرد الزواج :

والمعروف أن أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — هو والد السيدة
عائشة ، والمعروف أيضاً أن مكانه من رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، كان المكان المكين من الحب والتقدير . . لما كان من موقفه من
الاسلام ، وبلائه مع رسول الله ، واحتماله الصدمات الأولى في
سبيل الدعوة . .

كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال — على أصح الروايات —
فهو بهذا ثانى اثنين في الاسلام ، كما كان ثانى اثنين في الفار ، الرسول
الكريم ، ثم هو .

وقد أذن الرسول الكريم — وهو بمكة — لأصحابه بالهجرة ، ولم

يأذن لأبى بكر ، ليكون له ظهيرا ، وسندا قبل الهجرة ، ورفيقا وأنيسا على طريق الهجرة !

هذا هو بعض ما لأبى بكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما يرتفعه عنده الى مقام الحب والاعزاز .

لقد كان زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عائشة ، بنت أبى بكر بعض ما يجزى به — صلوات الله وسلامه عليه — أبى بكر ، فيضم الى بيته ابنته تلك ، ليكون اتصاله برسول الله دائما ، وليكون بيت رسول الله مفتوحا له فى أى وقت من ليل أو نهار ..

وهذه هى الزوجة الأثيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحب النساء اليه ، لم يكن زواجه منها لشهوة ، لأنها لم تكن عند الزواج بها تصلح للاشتهاء ، ولم تكن دوافع الزواج بها المتعة الزوجية .. وقد توفى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، أى فى مطلع شبابها واكتمال نضجها !

والثالثة : هى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وما يقال عن عائشة يقال كثير منه فى زواج حفصة ، اذ كان شأن عمر فى الاسلام فى المنزلة الثانية بعد أبى بكر ..

وكانت حفصة — رضى الله عنها — من المهاجرات مع زوجها خنيس بن حذافة السهمى ، وكان ممن شهد بدرا .. فلما مات عنها زوجها وتأيمت .. كان من بر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المهاجرة فى سبيل الله وبأبيها وماله من بلاء فى دين الله — أن يضمها اليه وأن يدخلها بيت النبوة ، ليكون هذا البيت الكريم مزارا دائما لصاحب رسول الله ، عمر !

والرابعة : هى زينب بنت خزيمة ، وكانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين ، لكثرة احسانها اليهم ، وبرها بهم .. وكانت زوجا لعبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قتل زوجها يوم بدر ، ضمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجا له ، جبرا لكسرها ، وعزاء لها فى زوجها ، وبراً بابن عمه الشهيد .. فيها ..

والخامسة : أم سلمة هند بنت أبي أمية ، كانت زوجا لأبي سلمة ابن عبد الله المخزومي ، وكانت هي وزوجها من أول المهاجرين الى الحبشة .. فلما مات زوجها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عزاء لها ، وعرفانا بقدرها في الاسلام .

والسادسة : زينب بنت جحش ، وكان اسمها برة ، فسماها النبي صلى الله عليه وسلم زينب ، وهي من قرابة رسول الله ، وقد زوجها النبي متبناه ، زيد بن حارثة ، وكانت هي وأهلها على غير رضى بهذا الزواج غير المتكافئ ، لأنها قرشية في نظرهم ، وهو غير قرشى ، بل كان رقيقا مشترى ، فأعتقه رسول الله وتبناه .. ولهذا لم تقم الفة ومودة بين الزوجين .. وكان أن انتهى الأمر بطلاقها من زيد .

ولهذا الطلاق حكمة ، أراد الله تعالى بها أن يبطل عادة التبني التي كانت شائعة في العرب ، والتي كانت تفرض على آباء الأبناء المتبنين الا يتزوجوا من نساء هؤلاء الأبناء ، اذا طلقن ، أو مات عنهن أزواجهن .. تماما ، كان الشأن مع زوجات الأبناء من الاصلاب !

وانه لكي يحسم هذا الأمر بطريق عملي ، فقد أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يتزوج من مطلقة متبناه زيد ، ليكون في ذلك المثل والقُدوة للمؤمنين ، الذين يتخرجون من أن يتزوجوا نساء من طلق أو مات من الأبناء بالتبني ، على ماؤفهم في الجاهلية !

وفي هذا يقول الله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل ادعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل » (٤ : الاحزاب) .

ثم يقول سبحانه : « واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى في نفسك ما لله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » (٣٧ : الاحزاب) ..

هذا، وقد كثر لفظ اللاغطين ، وتخرص المتخرصين في زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من « زينب » حتى نسجوا من هذا الزواج قصصا اسطوريا ، وقال قائلهم — كذبا وبهتاتا — ان محمدا نظر مرة الى زينب ، وهى في بيت زوجها زيدا ، فرأى منه ما أعجبه ، ورغبه فيها ، ونسوا أن محمدا هو الذى زوج زيدا منها ، وأن زينب كانت على مرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل زواجها . . وليدة وصبية وشابة ، ولو كان له فيها أرب لكانت أقرب شئ الىه . وانه ليكفى في دفع هذه الأكاذيب الملفقة أن نذكر قول الله تعالى هنا في التعليل لهذا الطلاق والزواج : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » فتلك إذن هى حكمة هذا الزواج ، وهى الا يتحرج المؤمنون من تزوج نساء أدعيائهم ، بعد انفصالهن عنهم . . فانه لا حرج بعد هذا في أتيان فعل فعله رسول الله ، وبهذا يقضى على التبنى قضاء حاسما ، لا تردد فيه .

السابعة : وهى جويرية بنت الحارث، وهى من سبى بنى المصطلق، وكان أبوها الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد تزوجها رسول الله بعد أن أعتقها من الأسر ، وبعثتها أعتق المسلمون كل من وقع في أيديهم من بنى المصطلق ، إذ أصبحوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهذا دخل بنو المصطلق جميعا في دين الله ، وأصبحوا قوة من القوى المدافعة عنه .

نفى هذا الزواج اكرام لعزيزة قوم نلت ، واکرام لقوم أراد الله تعالى أن يدفع عنهم عوادي الأسر والمهانة والذلة . .

والثامنة : هى أم حبيبة بنت أبى سفيان ، كانت زوجا لعبد الله ابن جحش من مهاجرى المسلمين الى الحبشة ، وقدهاجرت مع زوجها هذا ، ثم ارتد زوجها عن الاسلام هناك ، وثبتت هى على اسلامها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى ، ليخطبها له ، ويزوجه اياها ، فخطبها النجاشى لرسول الله ، وأصدقها أربعمائة دينار ! .

وواضح من هذا الزواج ما فيه من ترضية لهذه السيدة الكريمة

التي لم تستجب لاغراء زوجها لها بالارتداد عن الاسلام ، ولم تأبه بما تلقاه في هذه الغربة النائية ، بل احتفظت بدينها ، وحسبها ذلك من كل مافي هذه الدنيا ..

والثاسعة : وهى صفية بنت حى بن أخطب من بنى النضير ، وكان أبوها سيد من سادات قومه .. فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير ، وقعت صفية فى الأسر مع من وقعن من نساء قومها ، فأعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتزوجها ..

وفى هذا الزواج مواساة كريمة ، لامرأة كريمة ، ووقاية لها من أن تعرض عرض السائمة للبيع والشراء !

والعاشرة : ميمونة بنت الحارث ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنة سبع من الهجرة ، وقد خطبها له ابن عمه جعفر ابن أبى طالب ، وكانت أختها أسماء زوجة لجعفر ، كما كانت أختها سلمى عند حمزة عم رسول الله ، وأختها الرابعة أم الفضل عند عمه العباس بن عبد المطلب !

والحادية عشرة : ريحانة بنت زيد بن عمر بن خنافة بن شمعون ، من يهودى بنى قريظة ، وقد وقعت فى السبى يوم أن مكن الله الرسول وللمؤمنين من بنى قريظة ، فكانت ريحانة فى قسم رسول الله من الغنائم ، فأعتقها ، وخبرها بين الاسلام ودينها ، فأختارت الاسلام ، ثم تزوجها ..

* * *

هذه هى زيجات النبى ، وأولئك هن زوجاته ، والأحوال والملابسات التى تزوجهن فيها ..

وانه لن يستطيع منصف يحترم الحق ، ويحترم العقل ، أن يقول أن هذا العدد الكثير من النساء اللاتى جمعهن الرسول فى بيت الزوجية ، كان لاشباع رغبته فى النساء ، وارواء ظمئه من المرأة !

ان ذلك افتراء على التاريخ ، واجترأ على الحق ، واعتداء صارخ على الواقع !

ويكتفى هنا ان ندلى برأى عالم من علماء الغرب ، لم يكن مسلماً ، ولا كان من أشياع الاسلام والمسلمين ، ولكنه رجل أقام نفسه لكتابة تاريخ البشرية ، فأخلى كيانه من كل عاطفة كره أو حب لأحد . . أنه يكتب الوقائع والاحداث كما تنطق بها شواهد الحال ، أو تنتصب لها الأدلة والبراهين . .

وهذا العالم هو « ول ديورانت » صاحب موسوعة قصة الحضارة في العالم . . يقول في الحديث عن النبي ، وما ضم في بيته من نساء :

« ولقد كان بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل والفقيرات اللاتي توفى عنهن أتباعه أو أصدقائه . . وكان بعضها زيجات سياسية كزواجه بحفصة بنت عمر ، أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكزواجه من ابنة أبي سفيان ، ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم ، وربما كان الدافع الى بعضها أمله في أن يكون له ولد ! »

فاذا تعلق بعد هذا مغيظ من الاسلام ، محقق على شريعته ، بهذا اللون الظاهري للصورة التي يبدو فيها هذا العدد الكثير من النساء في بيت النبوة وعمى أو تعامى عن المعاني الجليلة السامية التي تكمن في أعماقها ، فحسبنا أن أحدا مهما اعماه الحقد ، وأكل صدره الغيظ ، يستطيع أن يجد كلمة زور تستجيب له لیتهم النبي — مع ما يدعيه له من قوة شهوته الى المرأة — في شيء من عفته وطهارته في حياته كلها قبل البعثة وبعدها ، وذلك مما يزيد النبي عظمة الى عظمته ، وجلالا الى جلاله . . فان انسانا ملء كيانه قوة وشهوة للمرأة ، ثم لا تعلق بذيله هفوة ، ولا تؤخذ عليه زلة ، لهو فريد في الرجال ، طهرا وعفة وسموا ونبلا . .

فصلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليك يا رسول الله ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . .

فهرس

صفحة

٥	تقديم
٢٠	الاسلام وقضاياها

الباب الأول

العقيدة

٢٦	أولا : الايمان بالله
٢٨	ما الاله ؟
٣٦	التجريد والتجسيد
٣٩	ثانيا : الايمان بالملائكة
٤٣	ثالثا : الايمان برسول الله
٥١	رابعا : الايمان بكتب الله
٦٠	خامسا : الايمان باليوم الآخر

الباب الثاني

الشريعة

٧٦	العبادات
٨٨	المعاملات
٩٣	الأخلاق

الباب الثالث

مفاهيم خاطئة عن الاسلام

صفحة	
٩٩	مقدمة
١٠٦	الحدود في الاسلام
١١٦	المرأة في الاسلام
١٢٧	المرأة والحجاب

الباب الرابع

الرسالة الخالدة

١٣٩	الرسالة الخالدة.
-----	------------------

الباب الخامس

الرسالة الخاتمة

١٥٠	الاسلام والمسلمون
١٥٠	الرسول وحدود رسالتهم
١٥٤	الرسالة الاسلامية وعمومها
١٥٦	الرحمة العامة
١٦٢	الرقيق في الاسلام
١٧٩	الاسلام والسيف

خاتمة

نبى الاسلام وما يقول السفهاء من الناس

٢٠٣	القرآن وشخصية الرسول
٢١٠	المرأة في حياة النبى

دار الشروق

مطابع الأهـرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٣ / ٢٠٨٦